القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
نوفمبر - ديسمبر 2010

المعارض والمدن

لندن، باريس، شانغهاي

ملف العدد

القلب

القرارات الخاطئة في عالم الأعمال



العدد 6
المجلد 59

قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** ـ بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

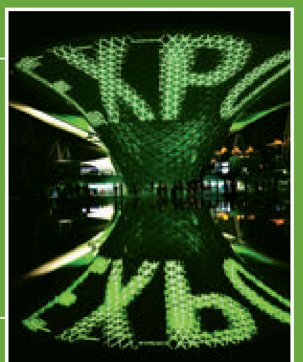
للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف



لمناسبة انتهاء «إكسبو 2010» في شانغهاي، تستطلع القافلة الأبعاد العمرانية والثقافية للمعارض العالمية ودورها في تطوير المدن.

صورة الغلاف: shutterstock

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد إبراهيم أبوبشيت

مدير عام الشؤون العامة
ناصر عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد الدميني

نائب رئيس التحرير
وليد الهلال

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

المكاتب:
الرياض، دينا الشهوان
بيروت، رولان قطان
القاهرة، ليلى أمل
أمريكا الشمالية، أشرف إحسان فقيه
قافلة الأبحاث ومكتب جدة
أحمد المنعي

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها

محطات العدد

نوفمبر - ديسمبر 2010
ذو القعدة - ذو الحجة 1431

قضايا 12–23

طاقة واقتصاد 24–31

بيئة وعلوم 32–48

الحياة اليومية 55–65

الثقافة والأدب 66–86

الملف 87–102



الفاصل المصوّر 49–54

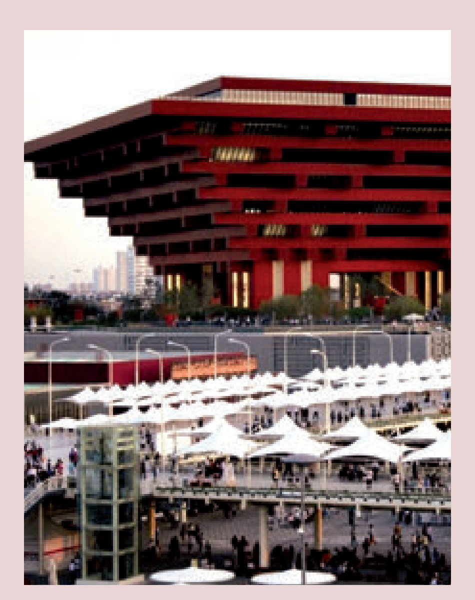
توزع مجاناً للمشتركين
- العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

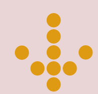
- الهواتف: فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

التغطية الإعلامية الواسعة التي حظي بها المعرض العالمي في شانغهاي «إكسبو 2010»، والتي ركَّزت بشكل خاص على الجناح السعودي فيه، كانت تعكس بشكل عرضي بين الحين والآخر التحولات الكبيرة التي طرأت على المدينة الصينية المضيفة للمعرض. «القافلة» تتوقف في مناخ القضايا لهذا العدد، أمام الدور الذي تلعبه المعارض العالمية في صياغة المدن التي تقام فيها، بعدما ثبت في شانغهاي ما كان قد ثبت في المعارض العالمية الأولى التي أقيمت في القرن التاسع عشر، أن الأبعاد العمرانية والثقافية لهذه المعارض هي أطول عمراً من بُعدها التجاري المباشر الذي أقيمت لأجله.





أما باب قول في مقال، فيعرض باختصار لقضية على مستوى كبير من الأهمية وتتمثل في تضارب نتائج الأبحاث الطبية، وتتغيَّر نتائجها، و«الخفة» في التعامل معها.

2 طاقة واقتصاد

وفي مناخ الاقتصاد بحث بعنوان «أخطاء المديرين»، يدور حول السقطات الكبيرة لعدد من كبار الإداريين المشهود لهم بالكفاءة والتفوق. ويجيب عن السؤال المحيِّر: كيف يمكن لمثل هؤلاء أن يرتكبوا مثل هذه الأخطاء التي أطاحت بما بنوه حجراً فوق حجر على مدى العمر، فجروا مؤسساتهم إلى الهاوية.



3 علوم وبيئة

وإذا كان هناك من يعتقد أن «الفقاعات» تشكِّل فقط مادة لموضوع عن لهو الأطفال، فإن المقال العلمي في هذا العدد يفنِّد هذه الصورة بسرعة ويؤكد أن الفقاعات كظاهرة فيزيائية شغلت العلماء ولا تزال تشغلهم، بدءاً بفقاعات الصابون، وصولاً إلى أشكالها الكثيرة التي تدخل في صميم الحياة اليومية عن طريق أشياء لا تُعد ولا تحصى تبدأ بالأسفنج وتصل إلى المواد الغذائية والمخبوزات.



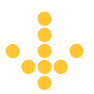
أما الموضوع البيئي فيدور في هذا العدد حول شجرة المانغروف، المعروفة جيداً في المملكة وخاصة في المناطق الساحلية على الخليج العربي والبحر الأحمر، وأهميتها البيئية والجهود الرامية إلى حمايتها وتعزيز غاباتها على مستوى العالم، وعلى المستوى المحلي، بما في ذلك جهود أرامكو السعودية.

الفاصل المصوَّر



ويتوقف الفاصل المصوَّر في هذا العدد أمام عينة من أعمال المصوِّر السعودي عوض الهمزاني، توضِّح حساسية عدسته للتشكيل الغرافيكي الذي يمكن للخطوط أن تتخذه في الطبيعة، وفي المدينة أيضاً.





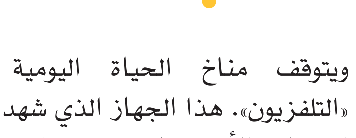
4 الحياة اليومية

ويتوقف مناخ الحياة اليومية أمام «التلفزيون». هذا الجهاز الذي شهد خلال السنوات الأخيرة الكثير من التحسينات التقنية، ولكن على الأرجح بما لا يكفي لمقاومة وسائل اتصال مرئية ومسموعة أخرى وأهمها شبكة الإنترنت بتقنياتها وخدماتها التي تزداد توسعاً وتطوراً، فبدأت بقضم بعض ما كان للتلفزيون من جمهور وجماهيرية. والبحث المنشور هنا يحاول استطلاع مستقبل التلفزيون من هذا المنظار.



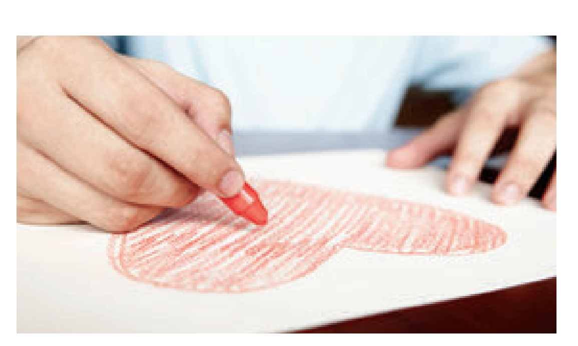
5 الثقافة والأدب

وكما عودت القافلة قرَّاءها، يتضمن مناخ الأدب موضوعين: الأول هو حول عَلَمْ من أعلام الأدب العربي في القرن العشرين، حمزة شحاتة، الكاتب والشاعر الذي لم ينل الأضواء الإعلامية التي يستحقها، وربما شكلت مناسبة الاحتفال هذا العام بمرور مئة سنة على ولادته مناسبة لنقل صورة عن هذا العملاق إلى الأجيال الشابة التي لم تعرفه في حياته.



أما بيت الرواية فيتضمَّن عرضاً لرواية تلقى رواجاً عالمياً في وقتنا الحاضر، نظراً للنقلة التي تمثلها في مجال الرواية البوليسية، وتحميل هذا اللون الأدبي الخاص مضامين اجتماعية غير مألوفة فيه سابقاً. والرواية هي «ثلاثية الألفية»، للكاتب والصحافي السويدي ستيغ لارسن.





6 ملف العدد

أما ملف العدد فهو حول القلب.. بحقيقة أهميته للحياة وبرمزيته إليها أيضاً. القلب الذي ينبض ويطمئن ويتعب ويتعافى.. القلب الواحد ذو الصور المختلفة في العلم عما هي عليه في الأدب ووجدان الإنسان منذ فجر التاريخ وحتى اليوم.

الرحلة معاً

«ويكيليكس»: سؤال إلى الدولة الرقمية الجديدة؟

موقع «ويكيليكس» وخزائنه الأسطورية المفتوحة، هو حديث العالم اليوم ...!

وهكذا .. فحين يتفق الساسة والعلماء والإعلاميون والتقنيون، والأبرياء المتابعون أمثالنا على أن هذا الموقع الإلكتروني، قد أصبح هو عنوان النشرات الإخبارية المتتابعة، فيما يحتشد من ورائها المحللون والاستراتيجيون، فإن هذا يعني أن أمراً جللاً يحدث على خريطة الاتصال الإلكتروني..!.

لم يكن لأحد ليصدق أن جوليان أسانج، المواطن الأسترالي الذي لم يتجاوز الأربعين من عمره، صاحب القدرة الفائقة على فك رموز التشفير الحاسوبي، وحفنة من أصدقائه يمكن أن يعملوا مشتركين لحيازة مجموعة ضخمة من الوثائق السرية والعسكرية والسياسية والقانونية، وأن يهددوا بها رصانة التقاليد الدبلوماسية المعهودة، وأن تصبح غذاءً يومياً لجميع الوسائل الإعلامية العالمية.

والحقيقة أن ما حدث ليس إلا أحد منتجات الشبكة العنكبوتية، ففي هذه الدولة الرقمية (الإنترنت) تبدّدت الحدود المعهودة بين القارات والدول والعواصم، بل وبين الأفكار والقيم والفضاءات. إننا على نحو ما، نعيش في عالم عصيّ على الانضباط، عالم يتنافس فيه الجميع على الانفتاح، والنشر والتواصل، لا على السرية والمنع والغلق. إن حمى الفيضان المعلوماتي المعاصر لا يسهم فيه الأفراد والمؤسسات والمنظمات الخاصة، بل تسهم فيه أيضاً الحكومات والمؤسسات الرسمية على صعيد واحد، فالجميع معنيّون بأن يكونوا جزءاً من هذا العالم المعلوماتي الضخم.

ورغم هذه الثياب الزاهية التي ترتديها شبكة الإنترنت، فإن العالم المادي المحيط بها لن يفلت من بعض أشكال الحروب والصراعات، التي قد لا تنشأ بفعل احتلال أراضي الدول الأخرى، أو بفعل المكونات الجغرافية والتاريخية للدول، ولكن بفعل التهديدات التقنية التي تقترفها دولة ضد أخرى، وإذا كانت قوة المعلومات إيجابية وتعكس مستوىً متقدماً من حرية التواصل وتشاطر المعرفة، فإنها تضع عبئاً على القوى التي تبدأ درسها الأول في الشفافية.

وإجمالاً فإننا لا نعرف حقاً ماذا ستكون ردود أفعال الدول المعنيّة لو كان «ويكيليكس» قد انطلق من إحدى قرى العالم الفقير العالم ثالثي، لا من أحد شوارع مدينة ريكجافيك في أيسلندا، حيث الحريات مصانة، وحيث القوانين قادرة على ضبط نزعات الناس.



يقول مؤلف كتاب «ثورة الأنفوميديا»، فرانك كيلش، إن الخصوصية التي تتعرَّض للتهديد المستمر ستتصدر الأولويات، فالمعلومات هي أحد مصادر القوة، وسوف تنساب كميات كبيرة من المعلومات عن طريق المعلومات فائقة السرعة، ولذا فإن الشركات التي يمكنها الحصول على تلك المعلومات وتحليلها وتصنيفها سيكون لديها قوة هائلة، وستصبح بالنسبة لها سلعة ثمينة ومربحة». ويضيف: «إن محاولة فرض الخصوصية ستكون بمنزلة تجميع المياه في مصفاة، فالتحكم في السرية والخصوصية على شبكة دولية تحتلها ملايين الكمبيوترات، هو ضرب من المستحيل، وستتسرب من فوق أعلى الأسوار كضباب الصباح».

إذن فإن الحديث عن أن التقنية المتجددة قد جعلت العالم قرية صغيرة بل منزلاً، يتشارك فيه سكانه المشاعر والأصوات والانفعالات، هي حقيقة مركزية تحدث في كل لحظة من حياتنا، بل إن الاختراعات العظمى التي أسست للتقارب بين البشر مثل: الكتابة والطباعة والسفن التي تمخر المحيطات وقاطرات السكك الحديدية كلها لا تقارن بما تحدثه طرقات المعلومات السريعة في حياتنا الراهنة.

إذن فإن ما يقوله لنا موقع «ويكيليكس» بكل حمولاته الضخمة، وأسراره، وفضائحه ليس سوى إشارة صغيرة لما يحمله المحيط المعلوماتي الهادر من حولنا، بل إن بعضهم يذهب إلى حد القول إن فضيلة «أسانج» لا تزيد عن أنه اصطاد سمكة في ذلك المحيط، وألقى عليها ضوءاً إعلامياً متوهجاً، فيما يعجّ المحيط نفسه بما لا يحصى من الأسرار والأعاجيب.

خلال فترة من الزمن سينسى العالم كل هذه الضجة حول « ويكيليكس» لتحل محله مواقع أخرى تتقمص الأدوار نفسها، فنحن إجمالاً محكومون بظاهرة «الإفراط» في ضخ المعلومات التي اعتبرها صاحب (اسم الوردة) الكاتب الإيطالي، أمبرتو إيكو، تعادل الضجيج، فالدول لم تعد تمارس الرقابة عبر الاحتجاز أو القضاء، بل عبر الإفراط المنتظم، فاليوم يكفي أن تدمر تأثير خبر ناري ما بإرسال حزمة من الأخبار الشبيهة أو المغايرة وراءه فلا تعود تتذكره، بل تلهث لمطاردة ما يستجد بعده. يضيف إيكو: «في الماضي كنت أذهب إلى المكتبة لتدوين ملاحظاتي حول الكتب التي تهمني، والآن أحمل إلى منزلي كل هذا المخزون الإلكتروني المعرفي لكنني لا أفتحه، فالمشكلة بنظري هي في كيفية التوصل إلى تصفية ما لهذه المعطيات التي تلقى أمامنا».

عندما ولدت شبكة «الإنترنت» قال أحدهم: «الآن لقد ولدت الدولة التقنية». في تلك الأيام كان يمكن الحدّ من آثارها بالمنع أو الإيقاف أو برفع أسعار الخدمة. أما اليوم، فكيف يمكن لدولة أو فرد أن يسيِّر مصالحه الحياتية دون أن يرابط أمام الحواسيب المتصلة بغابة من الشبكات، المعقَّدة التي لا يعرف منتهاها، فنحن مثلاً نقرأ أن مرتادي (الفيس بوك) الذين بلغ عددهم حتى وقت قريب 500 مليون مشترك، يغامرون بفضح أسرارهم الشخصية التي يمكن توظيفها بشكل سلبي؟ ولكن ما يحدث الآن هو أن مرتاديها يتضاعفون كل يوم..!

خلاصة القول إن ظاهرة «ويكيليكس» تفيد أن القوة المهيمنة على العالم هي قوة المعلومات، وهي قوة ليست سيئة بالضرورة، فعبرها يمكن لطالب نبيه يعيش في إحدى قرى الهند النائية، على بضع دولارات، أن يتواصل مع أرقى المعاهد العلمية المتخصصة في بريطانيا أو أمريكا. واستطراداً فإن النهوض الهندي يُعزى في جانب منه إلى أودية التقنية الإلكترونية التي صنعت وجهاً جديداً للهند في آسيا.

إنها الظاهرة التي تفرط من السيطرة ولا يبقى أمام الدول سوى أن تصل إلى طريقة لفهمها والعيش معها.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحِّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

مقالات هنداوي

قرأت في عدد نوفمبر-ديسمبر 2009م، في صفحة بريد القرَّاء، رسالة للقارئ محمد كامل خليل هنداوي من حلب في سوريا، يطلب فيها من مجلة القافلة ببليوغرافيا (رقم العدد وتاريخ الصدور) للمقالات التي نشرتها المجلة للكاتب خليل هنداوي.
إني بدوري مستعد لتزويد الأخ محمد كامل هنداوي بما يطلبه من مقالات نشرت للكاتب خليل هنداوي في بعض المجلات التي كانت تصدر في خمسينيات وستينيات القرن الماضي. ويمكنه مراسلتي على البريد الإلكتروني: nf.krem@yahoo.com أو على عنواني البريدي: ص.ب 152 محافظة النجف، العراق.

القافلة: شكراً لهمتك واهتمامك بتلبية حاجات الآخرين، ولكنك نسيت أن تذكر اسمك في رسالتك. على كل حال، نأمل أن يكون في نشر هذه الرسالة وعنوانك ما يفيد الباحث عن مقالات هنداوي.

لهذا أشترك

بعد أن قرأت مجلة القافلة لشهري يوليو-أغسطس 2010م مع أحد أصدقائي، يسرني أن أكون من قرَّاء مجلتكم الموقَّرة بشكل دائم، لما تتضمنه من موضوعات أدبية لا تهتم بها معظم المجلات، وأيضاً لأنها تتواصل مع قرَّائها، وتشاركهم مناقشة الموضوعات والتعليق عليها، مما يجعل القارئ يشعر بأهميته، وأهمية ردة فعله على ما قرأه. ولهذا أرجو منكم التكرم علي بنسخة خاصة بي. ولكم ولمجلتكم مني كل التمنيات بمزيد من النجاح والتوفيق -إن شاء الله-.

وحيد عادل فودة
مصر

القافلة: أهلاً بك، وستصلك أعداد القافلة مستقبلاً بانتظام -إن شاء الله-.

15 سنة من دون انقطاع

إن حُسن التواصل وربط العلاقات، من صفات الناجحين والمتفوقين، والوفاء من شيم المخلصين الصادقين. وإن فوجنا إذ يستقبل عامه الخامس عشر يعتبر أن تواصل مجلتكم المحترمة «القافلة» ووفاءها له طيلة سنوات نشاطه، بل وعدم انقطاعها عنه في كل فترات عمله، لهو ضرب من ضروب التميز والنجاح، وصورة من صور الإخلاص والوفاء، التي نحسبها من أهم صفاتكم وخلالكم الحميدة وأنتم تشقون طريقكم بثبات في دروب النجاح والتفوق.
وإنه ليطيب لنا من باب العرفان بالجميل وشكران الأفضال أن نقف وقفة شكر وامتنان أمام مجلتكم الفريدة «القافلة» بكل طاقمها المحترم على ما تقدِّمه من إضافة متميزة في الساحة الإعلامية والثقافية العربية، وعلى تواصلها الدائم مع فوجنا. راجين لكم دوام النجاح والتوفيق ومزيداً من التألق والتطور.

هشام دياب
الكشافة الإسلامية الجزائرية

إكمال نواقص

رغبة في تدعيم الروابط الثقافية والعلمية بين المهتمين بشؤون البحث العلمي، نتشرف بإحاطتكم علماً بأننا نقتني أعداد مجلتكم من العام 2005م وحتى العام 2009م على سبيل الإهداء. وقد سقطت سهواً الأعداد التالية:
- من عام 2006 وحتى 2008م
- ومن أول أعداد العام 2010م حتى اليوم
نرجو التكرم بموافاتنا بنسخ عن الأعداد الناقصة المذكورة، راجين أن تسهم مجلتكم في تحقيق الأهداف المرجوة لخدمة الباحثين والدارسين الذين يترددون على المكتبة.

سالم سالم زيد
الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، القاهرة

القافلة: إن لائحة النواقص تبدو طويلة، وثمة أعداد منها لم تعد متوافرة للتوزيع. لذا نرجو منكم إحالة المهتمين إلى الموقع الإلكتروني للمجلة.

الكتابة في القافلة

سعادتي لا توصف، بعد أن وجدت مقالي منشوراً في مجلتكم. لأن القافلة كانت دائماً قمة عالية يخاف الكثيرون أن يقتربوا منها وترفضهم.
وقد كنت على يقين دائم أن ما أرسله من مواد إعلامية للكثير من المجلات والصحف، سينشر فوراً، ولن يرفض أي منها. لكن القافلة كانت حلمي، لأن قراءتها متعة للقارئ الذي يبحث عن أكثر من التسلية، ويعرف أن وقته ثمين، فيمضيه في واحة نادرة من نوعها في خضم وسائل الإعلام الثقافي العربي.
أشكركم جداً لأنكم شجعتموني على الكتابة، وعلى رد فعلكم الفوري عند استلام المادة. فقد أَخَذَتْ مجلتكم بيدي لأرتقي بكتابتي، وأعدكم ألا أجرها إلى ما دون مستواها.

أسامة أمين
ألمانيا

القافلة: نشكرك على تقديرك الكبير للقافلة، وهي بدورها تعتز أن تستضيف كل الأقلام عندما تكون بمستوى قلمك.

ثمن الخط العربي

سررت خلال زيارتي إلى الظهران في فصل

الصيف برؤية معرض الخط العربي الذي أقامته أرامكو السعودية، كما سررت عندما فتحت العدد الأخير من القافلة وقرأت مقالة جميلة عن المعرض. ولكن على هامش هذا المعرض، أود أن أتطرَّق إلى أمر يتعلق بالخط العربي عموماً.

إني شغوف بالخط العربي، ولكنني لا أملك في بيتي غير بضعة لوحات مطبوعة، علماً بأن راتبي كمهندس يسمح لي بشراء بعض الأعمال الفنية الجيدة. ولكنني كلما قصدت معرضاً للخط العربي أفاجأ بالأسعار الباهظة التي لا يقدر على دفعها حتى متوسطي الحال. نعم! هناك مبالغات كثيرة في تحديد أسعار لوحات الخط في كل المعارض الفردية منها والجماعية.

يمكننا أن نتفهم ارتفاع ثمن لوحة خطية إذا كانت تتضمَّن زخرفاً تطلَّب إنجازه زمناً طويلاً. ولكن ما هو مبرر خطاط حي أو شاب ليثمِّن لوحة أنجزها في ساعات بآلاف الدولارات؟ هل هو من باب التشبه بأسواق الفن المعاصر في أوروبا؟ إذا كان الجواب نعم، فليعلم الخطاطون أن في أوروبا سوقاً منظمة حوَّلت الفن المعاصر إلى سندات خزينة، في حين أن عندنا يبقى الخطاطون يتذمرون من عدم رواج أعمالهم تجارياً.

ناصر الصومعي

جدة

المشتركون الجدد

الإخوة: عاطف عبدالباسط عبده، الظهران - عبدالعزيز أبو الهيكل، الطائف - وسام أبو عطاف، الطائف - يوسف أصبيرة، القطيف - علي أحمد آل تركي، القطيف - عبدالله آل مصبح، بلجرشي - عبدالعزيز الأحمد، الهفوف - خالد الأحمدي، المدينة المنورة - عبدالعزيز الزهراني، المدينة المنورة - ناصر علي الزيد، الهفوف - مي عبدالرحمن الطيران، المدينة المنورة - سلطان مبارك العايد، الرياض - محمد بن طلال بن محمد، الطائف - فايز الفايز، الرياض - عبدالله يوسف الفرحان، الدمام - غازي العرفج، الدمام - عثمان مليباري، مكة المكرمة - عاصم محمد السعيد، الرياض - عيسى محمد نور والي، مكة المكرمة - حسين نوفل، الدمام - علي بصري، حضرموت - حصة سلمان المولد، جدة - زكي المشقاب، الدمام - أميرة كشغري، جدة - مدرسة العوامية الثانوية، العوامية - تليدة أيمن بن سلم، مكة المكرمة - محمود المحروقة، سلطنة عُمان - حمد القاسم، جدة - فؤاد القريش، الجبيل الصناعية - فخر الدين الهاجري، الرياض - طارق، الرياض - منال علوي المسحر، القطيف - عبدالمؤمن المحسن، سلطنة عُمان - إياد عباس، أبو ظبي - علاء معتوق، جدة - عبدالعزيز المقلا، الأحساء - أحمد سعد اللهيبي، جدة - مساعد عبدالرحمن القرعاوي، الجبيل الصناعية - جمال عبدالله الصالح، العوامية - مصطفى الصوفي، حمص، سوريا - متعب عجيان العتيبي، الرياض - ماجد عبدالله الغامدي، الباحة - سعيد بن عوض الغامدي، جدة - خالد العولة، المجمعة - عبدالله العمير، الأحساء - محمد زايد الشمراني، الجبيل الصناعية - محمد محمد محمود، جدة - ثامر علي الغزال، الهفوف - عادل الحوسني، أبوظبي - محمد عبدالعزيز الجرباء، الرياض - راكان عبدالله الجامع، القطيف - محمد سمير التركي، الرياض - سارة سمير التركي، الرياض - باقر محمد البركات، الهفوف - طلال محمد البيشي، جدة - أماني الدريدي، عمان، الأردن - سيد بسكمار التهامي، المغرب - عبدالله محمد الجبر، الرياض - فواز عبدالله الحزيمي، الرياض - عبدالله سعد الحمد، الرياض - هادي طالبي، البحرين - يحيى علي قدري، جازان - عبدالله حمدان، الرياض - سمير عيسى، صويلح - سليمان علي المشيطي، الدمام - بدر نوار المجبولي، الدمام.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

غازي القصيبي.. الاستثناء

اطلعت بتقدير وامتنان على عدد (يوليو-أغسطس) من مجلتكم الغرَّاء «القافلة»، الذي خصصتم جزءاً ثميناً منه لفقيد الوطن والقلم، معالي الدكتور غازي ابن عبدالرحمن القصيبي، طيَّب الله ثراه.

وقد قدَّرت لكم كل التقدير بعد أن قرأت مقدمتكم الرائعة عن فقيدنا الجليل. وتضاعف شعوري ذاك وأنا أتصفح مواد الملف الراقي الذي كُرِّس لسيرة الفقيد الأغرّ، غازي القصيبي، وقد أثبت في حياته المطرزة بعطر الإنجاز، وتأكد ذلك بعد رحيله إلى فردوس الخلود، بإذن الله، استحقاقه لوصف «الرجل الاستثناء» في زمن عزَّ فيه «الاستثناء» بما ينفع الناس ولا يضرهم وساد فيه الهامشيون من البشر وقراصنة القفز على الحواجز بما ينفعهم، ولا ينفع سواهم.. إن لم يضرهم!

كان غازي استثناءً في علمه وثقافته.
وكان استثناءً.. في تأهيله المتعدد الأطياف.
وكان استثناءً.. في ولائه وبذله وإنجازه خدمة لهذا الوطن وأهله.
وكان استثناءً في تعامله الإنساني مع شرائح متعددة من البشر، أعلاهم وأوسطهم وأدناهم حضوراً ومقاماً.

من أجل هذا، افتقدنا غازي.. منذ أن رحل إلى بلاد الغربة طلباً للعلاج، حتى حملته الأكتاف الحزينة إلى مثواه الأخير، بعاصمة العز الرياض، وسط تظاهرة حاشدة من المحبين له والمعجبين به، بل والمختلفين معه، أيضاً. كلهم دعوا له بالرأفة والرحمة والغفران.

نعم.. افتقدنا غازي حياً.. وافتقدناه ميتاً، وسنظل نفتقده دائماً لأن له حضوراً في القلوب لن يبلى أو يبور، ولأنه قامة فذة قد لا يجود الزمان بمثلها زمنً طويلاً!

شكراً مرة أخرى لكم ولمجلتكم الغرَّاء، التي وضعت على سيرة غازي العطرة إكليلاً من الفخر لا يُنسى.

عبدالرحمن بن محمد السدحان

الرياض

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول



الخط العربي بين الهواية والعلمية للتغلب على الخط الإلكتروني

فردت مجلتكم الرصينة في عددها السابق عن شهري سبتمبر وأكتوبر 2010م ملفاً تناول الخط العربي، واستعرض آراء عدد من الخطاطين المشاركين بمعرض الخط العربي الذي أقامته أرامكو السعودية خلال موسم الصيف الماضي في مدينة الظهران وفي مناطق أخرى بمشاركة سبعة وعشرين خطاطاً من دول عربية وإفريقية وآسيوية وأمريكية مختلفة.

ورغم وجاهة آراء هؤلاء الخطاطين الفنانين إلا أنه يمكننا أن نتداخل وبشكل غير محدَّد فيما يمكن أن نطلق عليه «هموم الخط العربي»، فلا شك في أن للخط العربي هموماً ومشكلات تعترضه وتجابه تقدمه، ومنها إشكالية: الموهبة والعلمية، فلا شك في أن الموهبة هي أساس لهذا الفن، ولأي فن بشكل عام، ومن دونها لن يكون هناك نجاح مهما كانت العلمية التي يمتلكها الخطاط، فالإحساس الذي يضيفه الفنان إلى عمله قد يمنحه تألقاً وجمالية خاصة يستشعرها المتلقي منذ الوهلة الأولى لوقوع نظره على العمل، والموهبة أيضاً تمنح العمل سراً واضحاً وتعطي الفنان الديمومة وتجعل مسيرته كخط مستقيم له بداية وليست له نهاية، في حين أن المنهجية العلمية تضيف إلى الموهبة مكملات فنية أساسية قد يغفل عنها الخطاط، تماماً مثل الأديب والكاتب فهو يحتاج إلى القراءة المستمرة ليمتلئ بالمفردات ويداورها في كتاباته.

فالخطاط يحتاج إلى الإطلاع على الدراسات الفنية والهندسية التي تجعله أكثر طواعية في استخدام موهبته بما يتناسب والذوق المتجدد، حيث إن الخط يجمع بين فنون الرسم والديكور والهندسة وهي فنون مرتبطة بالعلم.

من زاوية أخرى فإن التوجه نحو التقنيات الحديثة ودخول الكمبيوتر والإعلانات الضوئية وتصميمات الغرافيكس الجاهزة، جعلت العمل الفني ينحسر في زاوية ضيقة. وبدأت التشكيلات الفنية تنحسر في هذه الزاوية، وربما هذه من الأمور التي يعاني منها الخطاطون المحترفون. وهي معاناة ذات شقين سواء أكانت على مستوى الممارسة أو على مستوى الإقبال الجماهيري على المعارض التي يقيمونها بشكل خاص للخط العربي. وبطبيعة الحال لا يتغلب على هذه الإشكالية سوى الفنان الحقيقي الذي يؤمن باللمسة البشرية التي لا تقارن باللمسة الإلكترونية الجامدة.

يقودنا هذا إلى ما ورد في تحقيق القافلة ومقولة الخطاط عدنان الشيخ حيث يفتتح حديثه بجملة صادمة هي: «أنه من الصعب ابتكار خطوط جديدة»، لكنه يستطرد فيقول: «لكن الأمر ليس مستحيلاً، فهناك محاولات للوصول إلى خطوط جديدة، وإذا استمرت هذه المحاولات واستلهمها الخطاطون وطوروها، فقد نصل إلى إضافة خطوط جديدة تضاهي في روعتها وقوتها الخطوط الكلاسيكية». وهذا الرأي جدير بالاعتداد به. إذ للخط العربي مفاتن تغري الناظر إليه، وتحثه على التمعن والاستغراق في جمالية التشكيلات الزخرفية والهندسية في الرسم الحرفي. لا سيما وأن للخطوط أنواعاً عديدة منها الشائع سهل الإتقان، ومنها مايتهرب منه الخطاطون لصعوبته. ولكن على سبيل المثال لو أخذنا خط «الثلث» وهو سيد الخطوط وعملاقها -إن صح القول-، فرغم تنوع وكثرة أشكال حروفه، إلا أنه يمتاز بالمرونة والطواعية بحيث يمكِّن من كتابة الجملة الواحدة بعدة أشكال ووفق تكوينات تختلف بعضها عن بعض. وهذا يعني أنه يتيح التوصل إلى نوعية خطوط مشتقة منه تكون لها سماتها وخصائصها المكرَّسة لذاتها.

فكتابة البسملة مثلاً، التي تأتي كلماتها متتابعة على سطر واحد مع الالتزام بقواعد ونسب الحروف وارتباط نهاية كل كلمة مع بداية الأخرى قدر الإمكان، أما الشكل الآخر فهو اعتماد امتداد حرف السين بحيث يشكِّل قاعدة تحمل باقي الكلمات مع تداخلها بعض الشيء لتكوين كتلة جميلة فوق كلمة «بسم». لذلك فالخطاط الفنان لا يعجز عن التوصل إلى ابتكار خط جديد نابع من خط الثلث.

وبنفس الكيفية يمكن الاشتقاق من خط «المحقق» الذي يتميز بإرسال حروفه وعدم تقوسها وسهولة قراءتها، لا سيما وأنه سمي بالمحقق لتحقق أجزائه وحروفه وبه إمكانية إعطاء كل حرف إشباع متكامل ومتحقق، لذا فهو يتيح التشكيل على نسب الحروف مع إضافة بعض التحويرات بشكل ثابت. فتعطي خطاً جديداً محبباً للناظر إليه. وبالمنهجية نفسها يمكن التعامل مع خط «الإجازة»، فهو خط مزيج بين الثلث والنسخ وغالباً ما يبدأ بالنسخ وينتهي بالثلث، وحروفه تمتاز بالمرونة التامة والحليات الزخرفية. وكتابته تلزم التداخل المتعانق بين نهاية الكلمة وبداية الكلمة التي تليها، ما يكوِّن مجالاً خصباً للابتكار خصوصاً إذا ما اشترك مع الخط «الديواني».

إن ما نفتقده حقيقة في العالم العربي هو إقامة ندوات وورش عمل تقوم بها الجهات الثقافية سواء الرسمية أو الأهلية تهدف إلى التعريف بفنون الخط العربي وتكون بإشراف خطاطين متخصصين، فالخط العربي كنز جمالي، والجمال يستحق الاهتمام والتنمية، ومثل هذه الفعاليات الغائبة أو النادرة الحدوث من شأنها لو فعلت بكثافة أن توجد خطاطين مبتكرين قادرين على إثراء هذا الفن العزيز.

وفي مسألة أخرى أثيرت في تحقيق مجلة القافلة تتعلق بالحرف الطباعي، فإذا ما تناولنا الجانب العملي للحرف الطباعي العربي، فإنا نجده أمراً في غاية الأهمية؛ بوصفه المظهر المنجز لتأدية غايات الكتابة الطباعية الضرورية، وهي مرسى المطالب الوظيفية التطبيقية الواسعة في عالم الأعمال والمكاتبات والمراسلات والصحافة والنشر والبحث العلمي..الخ. فإنه لابدَّ من مراعاة عنصر سهولة ووضوح القراءة بما يرضي المتلقي، بسلاسة بصرية، بعيدة عن الجمالية التكوينية. فالجانب العملي معني بتوصيل الأفكار والمعاني، بأعلى قدر تواصلي ممكن، بيد أن تلك المهمة ليست عملية سهلة البتة، إذ لا بدَّ أن يصحبها الجانب النظري، بوصفه الأساس العلمي والموجه الحقيقي الذي يوصلنا إلى تحقيق الأهداف بأقل الأخطاء، لأن العلم يجانب الاعتباط، ويؤكد هنا على النظم وقواعد بناء الحرف الطباعي، وسائر التقنيات اللازمة، ونحو ذلك، وبذلك يجعل الطريق

سهلاً يسيراً ... ما أريد قوله إننا بحاجة إلى تحديد المعايير العامة والضوابط الواجب مراعاتها من قبل المصممين والتي من شأنها تنظيم العملية التصميمية للحرف والخط العربي، أو لنقل إننا بحاجة إلى تحديد الاعتبارات التي يضعها مصمم الحرف الطباعي العربي نصب عينه لتحقيق وإنجاز خطوط طباعية بمستوى رفيع وعملي جاذب يراعي الناحية العملية ويحقق الناحية الجمالية.

لذلك ينبغي أن يكون الخط رشيقاً، منسجمة حروفه مع بعضها البعض، فليس فيها ما يشذ عن بقية أقرانه بثخانة ملاحظة ولا بكبر شنيع ولا صغر مخل. ولو رسمت خطين متوازيين أعلى وأسفل كل سطر مكتوب بهذا الخط لوجدت أن الحروف العلوية تنتهي تماماً عند الخط الأعلى والحروف السفلية تنتهي تماماً عند الخط الأسفل. كما لا يستخدم الانحناءات في حروف لا تحتاجها كالألف واللام وعصا الطاء. والكلام قد يطول ولكن القاعدة بعاليه أرى أنها ربما كانت كافية وافية بشأن الحرف الطباعي، الذي يأخذ بالمرتكزات الضرورية كالتناسب بين الحروف وانسجام العلاقات، والوضوح والمقروئية ونحو ذلك.

لقد التفت غيرنا من الشعوب إلى حروفهم الطباعية وأشبعوها تنظيراً ووقفوا على خصائصها وأساليبها، ولذلك تجد مدارسهم التصميمية على غاية من الدقة والعلمية، بينما مصممينا ليس لديهم معايير التزموا بها، وإلا كيف نرى تلك الإبداعات الفردية التي نطالعها بين الحين والآخر، وهو أمر إيجابي ومطلوب. لكن السؤال الجوهري ما أهم المعايير العامة والأسس الكفيلة بتصميم الحرف الطباعي من جهة، والحرف الطباعي العربي خصوصاً من جهة أخرى؟.

نعم الخطاطون يتذوقون ويحسون بتنظيم الحرف على سجيتهم ولكن ذلك لايكفي، وكثيراً ما يختصمون لأنهم لم يتفقوا مقدماً على أسس يحتكمون إليها، ولذلك تكون آراؤهم أحياناً متباينة جداً في النقد والحكم على صعيد المنجز الفني، وربما تفوّق عليهم في ذلك المتلقي العادي عند قراءة نص أو عنوان، لأنه ربما ينظر إلى الوضوح أولاً ثم الجمال ثانياً، على عكس قراءة الخطاط العربي الذي يعطي الغلبة للبناء الشكلي قبل الانغماس في المعنى البياني.

منذر إبراهيم

دمشق، حول موضوع «الخط العربي، حراك كبير يصفه البعض بالعصر الذهبي»، مجلة «القافلة» عدد سبتمبر-أكتوبر 2010



الخط العربي في مصر

يشهد الخط العربي في العديد من الدول العربية والإسلامية ازدهاراً ونمواً سريعاً يبشر بالخير لهذه المسيرة المباركة التي أرست قواعدها عبر قرون جمهرة كبيرة من الخطاطين العظام. وفي الآونة الأخيرة يشهد الاهتمام به طفرة وصحوة هي خير مبشر على أن الله تعالى سيتكفل بحفظه، وليس أدل على ذلك من اهتمام غير المسلمين بهذا الفن العربي الأصيل الذي تفردت به اللغة العربية دون سائر اللغات الحية والمندثرة، وكذلك تزايد المحافظة على قواعده ومدارسه وأقلامه من خلال انتشار المدارس المتخصصة والمسابقات المحلية والدولية والمعارض المنتشرة. فهو في تطور مستمر، وازدهار دائم، وانتشار واسع، وواقع الحال يبشر بذلك.

إلا أن الخطاطين في مصر بصفة خاصة يعانون العديد من المشكلات التي تقف أمام نهوضهم وتطورهم. وذلك ناتج عن إهمال المؤسسات والأفراد لأهمية الخط العربي، وتفشي الحاسب الآلي في جميع مجالات الحياة، وكذلك نظرة بعض الناس إليه على أنه من أعمال الزمن الماضي، وأيضاً غياب جيل الرواد من الأساتذة الخطاطين الذين كانوا يتعاملون مع الخط العربي على أنه رسالة يجب أن تؤدى؛ وليس عاملاً مادياً فقط خاصة بعدما أصبح دخل العمل من الخط ضئيلاً جداً مع ارتفاع مستويات المعيشة. مما يحدو بكثير من الخطاطين إلى ممارسة مهن أخرى تؤثر على موهبتهم الخطية، وكذلك تجاهل وسائل الإعلام لأهمية الخط العربي وإهمالها التشجيع على دراسته والعمل به. كل ذلك يقف عائقاً أمام نهضة الخط، رغم أنه يوجد في مصر أكبر عدد من الخطاطين في العالم.

يقول الخطاط محمد محمود حويك عضو الجمعية المصرية العامة للخط العربي بالقاهرة «أهم المعوقات التي تقف أمام نهضة الخط العربي بمصر هي إهمال الأفراد والمؤسسات، وغياب ورحيل الأساتذة الذين كانوا يتعاملون مع الخط على أنه رسالة يجب أن تؤدى؛ وليس مصدر دخل فقط، وذلك ناتج عن إهمال الدولة لرعايتهم. فالخطاط في مصر يأخذ أقل أجر ويعاني من نظرة كثير من الناس إلى أعماله على أنها من أعمال الماضي التي اندثرت، ولم يعد هناك وقت لها بعد تفشي الحاسب الآلي، وبصفة خاصة في مجال الإعلان».

ويضيف الخطاط السيد البنا عضو الجمعية المصرية العامة للخط العربي «لا يزال الخط العربي يعاني من نظرة الناس البدائية على أنه من أعمال العصور القديمة التي لم يعد لها مجال في عصر الكمبيوتر والإنترنت والعولمة والفضاء، متجاهلين أنه فن من الفنون ولكنه يتميز ويتفرد بقواعد تحكمه وتضفي عليه رونقاً وجمالاً خاصاً؛ كذلك ما يقف عائقاً أمام نهوض الخط العربي في مصر إهمال المؤسسات الثقافية له. فلا معارض ولا مسابقات ولا دورات. وهذا ما يدفع كثيراً من الخطاطين إلى ترك الخط للعمل في مهن أخرى. كما أن مدارس الخط تعاني الإهمال فالأثاث رث وبال وقديم والمدرِّس يعمل بها بالأجر لكل حصة مقابل بدل مادي ضئيل جداً. فهذه المدارس بصفة خاصة بحاجة إلى رعاية شديدة، واهتمام يليق بدراسة الخط العربي».

ويثور الخطاط أحمد فرج عضو الجمعية المصرية العامة للخط العربي قائلاً «هناك إهمال في حصص الخط العربي بالمدارس الرسمية الحكومية والخاصة، حيث لا يتعدى عدد الحصص فيها أكثر من حصة واحدة أسبوعياً. كذلك يعاني معلم الخط ودارسة من الإهمال الشديد. وهناك حاجة إلى عقد الندوات للتعريف بالخط العربي وإظهار جمالياته وأهميته كتراث عربي أصيل، والتعريف أيضاً بأهمية الخطاطين وبالرواد الأوائل الذين أسسوا المدارس وعشقوا الخط كفن وأخلصوا له بعيداً عن العامل المادي، فحققوا نهضة لا نزال نطالعها، بارزة في العديد من الأماكن العامة، وفي المساجد واللوحات التي يتوارثها الأحفاد عن أجدادهم الذين كانوا يقدسون هذا الفن لارتباطه بأعظم كتاب على وجه الأرض؛ ألا وهو القرآن الكريم. أما اليوم فهناك إهمال للوحات الخطية خاصة بعدما طغى الحاسب الآلي ببرامجه وانتشرت لوحاته التي تفتقد الروح والحياة التي يسطرها الخطاط من خلال أصابعه الذهبية ورنة قصبته وصريرها».

ويقول الخطاط ضياء الدين مصطفى عطية «يا حبذا لو تقوم وزارة التربية والتعليم بإعداد مسابقات في الخط العربي سنوياً. فإن ذلك سيعطي انطباعاً جميلاً، وسيحرك الرغبة داخل التلاميذ والطلبة بالعمل الجاد على إتقان قواعد الخط، ويجب على جمعيات الخط العربي إتاحة الفرصة أمام صغار الخطاطين من خلال دعوتهم للمشاركة في معارضها، وإصدار العديد من الكتيبات التعريفية بقواعد الخط العربي وبالخطاطين العظماء. ففي ذلك الفائدة العظيمة التي ستفتح المجال للنهوض بالخط الذي يجب أن يأخذ موقعه الصحيح على خريطة التعليم والثقافة في مصر».

علي عفيفي علي غازي

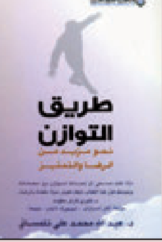
القاهرة

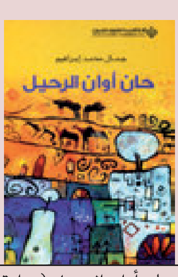
قافلة النشر

إصدارات جديدة

الدار العربية للعلوم ناشرون





طريق التوازن
د. عبدالله محمد علي تلمساني


حان أوان الرحيل (رواية)
جمال محمد إبراهيم

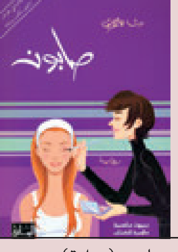
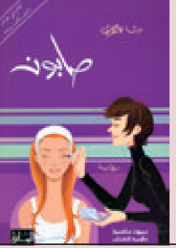
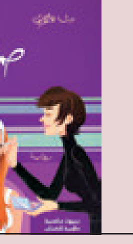

مكافحة الإرهاب..
علي بن سعيد بن عواض عسيري


الإسكندر (فتى الحلم)
فاليريه ماسيمه مانفريدي


ظلال الوأد (رواية)
منيرة السبيعي

دار الساقي




الآخر في الثقافة العربية
حسين العودات

صابون (رواية)
رشا الأطرش

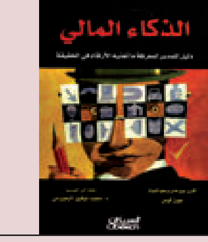
المنارة والبحارة (دراسة)
جهاد فاضل

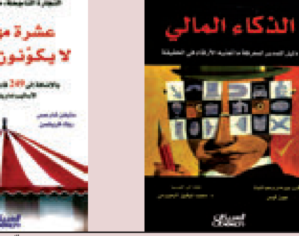
بيروت روحة رجعة (قصص)
كارولين حاتم، وائل بركات، روزين مخلوف، أنطوان أبي عاد

مكتبات ونشر العبيكان


معرفة الإنسان من نظرة
فرانك م. شيلين


الذكاء المالي
كارن بيرمان وجو نايت، جون كيس





عشرة مهرِّجين لا يكوِّنون سيركاً
ستيفن شارجس، ريك فريشمن

أفقه نساء الأمة
محمد بن علي آل مجاهد


أسعد امرأة في العالم
د. عائض القرني

مكتبة جرير


أسرار النجاح في الإدارة
أندرو لي

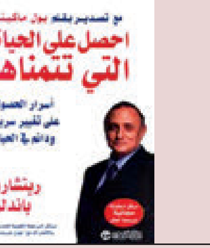
اجعل الحب يستمر للأبد
جاري سمولي




أستطيع أن أقرأك مثل كتاب
جريجوري هارتلي وماريان كارينش



كيف تفقد الوزن


احصل على الحياة التي تتمناها
ريتشارد باندلر

النادي الأدبي بالطائف









المعلّامة
عقيلي عبدالغني الغامدي

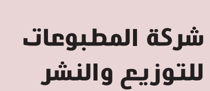
عكاكيز (شعر)
هاني محمد الحفظي

الورد.. والطائف
حماد بن حامد الساطي

النقد القصصي في المملكة العربية السعودية
قليل محمد الثبيتي

بلدي حبيبي (أناشيد للأطفال)
عبدالله أحمد بالعمش

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر







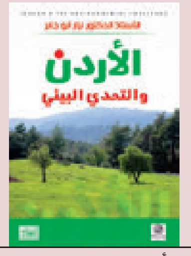

الصرصار (رواية)
راوي حاج

سورية ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط
جمال واكيم

ومضات في رحاب الأمة
سليم الحص

دار الشروق للنشر والتوزيع





إرشادات ذوي الحاجات الخاصة وأسرهم
أحمد عبدالحليم عربيات

الأردن والتحدي البيئي
د. نزار أبو جابر

من أوراق العمر
غازي الخليلي

دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان
نائلة الوعري

مركز دراسات الوحدة العربية المنظمة العربية للترجمة




تأثير العوامل السياسية في سياسة الإصلاح الاقتصادي في اليمن، د. عدنان المقطري

أصول التحديث في اليابان
د. محمد أعفيف

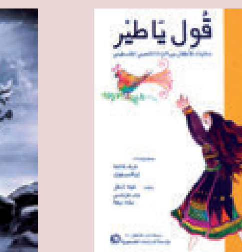
شكري العسلي
د. سهيلا سليمان الشلبي

الزراعة العربية وتحديات الأمن الغذائي
د. فوزية غربي

أبحاث في النظرية العامة في العقلانية
ريمون بودون

كتب متفرقة








لو كنت طائراً
فاطمة شرف الدين
دار كلمات

هدية لي
عبير بلأن
دار كلمات

قول ياطير..
شريف كناعنة، إبراهيم مهوي
مؤسسة الدراسات الفلسطينية

معزوفة عشق
سعود عبدالكريم الفرج
دار الكفاح للنشر والتوزيع

كفيف لثلاثة أيام
باسم شرف
دار العين للنشر

المعارض الدولية من لندن إلى شانغهاي

للتجارة.. وأيضاً للثقافة والعمران



«مدينة أفضل، حياة أفضل»، هذا هو الشعار الذي رفعه المعرض الدولي في شانغهاي بالصين، المعروف رسمياً باسم «إكسبو 2010»، والذي انتهى في الحادي والثلاثين من أكتوبر الماضي، بعدما استقبل نحو 75 مليون زائر، ليكون بذلك أكبر معرض دولي في التاريخ، وأيضاً أكبر تظاهرة ثقافية وعمرانية إضافة إلى أبعاده الاقتصادية والتجارية. ولكن، ما علاقة الشعار المشار إليه أعلاه بهذا الحدث؟

فريق القافلة يفتح ملف المعارض الدولية ودورها في صياغة هويات المدن التي تستضيفها، وأبعادها المتشعبة والمتشابكة، ويجول بنا على أمثلة عديدة بدءاً بلندن في أواسط القرن التاسع عشر وصولاً إلى شانغهاي اليوم.



الصورة العامة المنطبعة في وجدان الناس حول المعارض الدولية صحيحة. تقول إن هذه المعارض هي أماكن يلتقي فيها المنتجون والتجار حول منتجات جديدة في إطار السعي إلى ترويجها على نطاق واسع، ويمكن لهذه المنتجات أن تكون سلعاً زراعية أو صناعية أو حرفية أو حتى ثقافية أو خدمات فقط.. ولكن هذه الصورة هي على صحتها تبقى أصغر من أن تحيط بأهمية المعارض الدولية ونتائجها التي تتجاوز إلى حد بعيد البعد التجاري المباشر، لتصل إلى التبادل الثقافي، وأيضاً رسم شخصية المدينة المضيفة للمعرض لسنوات، وربما لعقود طويلة تلي إقامة معرض دولي فيها.

من رحم التجارة وتحالفها مع الصناعة

shutterstock

تعود جذور العوامل التي تدفع الدول إلى تنظيم المعارض الدولية، إلى الثورة الصناعية في أوروبا، وهي ثورة بدأت منذ نحو 5 قرون، بطيئة في البدء، ثم تسارعت شيئاً فشيئاً، إنما اتخذت شرارتها الأولى من الكشوف الجغرافية التي كانت رحلة كريستوف كولومبوس (1451 – 1506م) إلى القارة الأمريكية، ورحلة فرديناند ماجيلان (1480 – 1521م) حول العالم، مفتاحيها المباشرين.

منذ نشأتها، أصبحت المعارض الدولية مجالاً لتعزيز صورة «التفوق»، ومن خلالها الهوية الوطنية أمام الضيوف

فما الذي صنعته الكشوف الجغرافية وما علاقتها بالثورة الصناعية؟

يعتقد المؤرخون، مستندون إلى أدلة ظرفية متشابكة ومتزامنة، وإلى مراسلات تجارية وقنصلية بليغة الدلالة والمعنى، أن هذه الكشوف فتحت أسواق العالم أمام الحرفيين الأوروبيين، صنَّاع الملابس والأحذية والأواني والمعدات الزراعية والحرفية وما إلى ذلك. وكان لا بد للحرفيين، وقد انفتحت أمامهم أسواق هائلة الاتساع، من أن يجدوا طريقهم إلى تسريع الإنتاج، وزيادته أضعافاً مضاعفة، لأن باب الربح فُتح على مصراعيه، ولا بد من اغتنام الفرصة السانحة. ولذا أخذوا يحوِّلون وسائل إنتاجهم من نمط حرفي محدود في وتيرة إنتاجه، ونسبة اليد العاملة فيه عالية، إلى نمط آلي صناعي يعتمد الإنتاج بالجملة، في خطوط تصنيع تتسارع وتيرة إنتاجها وتنخفض فيها نسبة الاعتماد على عدد العمال. وقد أدى هذا الأمر إلى إنشاء علاقة عضوية مباشرة وقوية، بين الصناعة والتجارة، لأن فتح الأسواق الجديدة يعزِّز الإنتاج، ووفرة الإنتاج لا بد لها من أسواق تصريف جديدة. وحين يزيد الطلب عند التاجر، تراه يسارع إلى حث الصناعي على زيادة إنتاجه، من أجل أن يلبي العرض ذلك الطلب.

ويُدرج المؤرخون في هذا السياق قيام الثورة الفرنسية، التي يرون أنها أحلَّت حكم حلف التجار والصناعيين والمصرفيين في المدن، محل حكم الإقطاع والنبلاء الفرسان المستندين إلى ممتلكات زراعية شاسعة. إذ إن زيادة حجم التجارة الدولية، ونهوض الصناعة الوطنية لتلبية الطلب، عزَّزا قوة هذا الحلف الاقتصادية.

وصارت السوق العالمية لاعباً أساسياً في تاريخ التمدن البشري. وتسابقت الدول الكبرى للتمدد في العالم، من أجل توفير أسواق لصناعتها ومصادر مادة أولية وفيرة

شانغهاي إكسبو 2010

shutterstock



كريستال بالاس/ الأمير ألبرت

ورخيصة لهذه الصناعة. فمن يبع أكثر، يكسب السباق. ومن يحصل على أرخص مادة أولية، يؤسس لانتصاره هذا في السباق الاقتصادي.

ومنذ قيام المعارض الدولية الأولى في القرن التاسع عشر، والنجاحات التي حققتها، تأكد للحكومات أن هذه المعارض تحمل في طياتها مفاعيل تتجاوز الغاية المباشرة منها، أي تنشيط التجارة والصناعة، لتصبح مجالاً لتعزيز صورة «التفوق» -ومن خلالها الهوية الوطنية- أمام الضيوف. فحسن التنظيم والإنجازات العمرانية الخاصة بهذه المعارض صارت رمزاً للتطور ولـ «القوة» على الصعد الاقتصادية والإدارية والعلمية، إضافة إلى تطور السلع المعروضة وتميزها. ولذا، صار على كل معرض دولي أن يكون الأكبر والأجمل والأكثر تنظيماً.. حتى صارت منشآت هذه المعارض تحتل نسبة مئوية ملحوظة من مساحة أية مدينة تستضيفها، والكثير الكثير من هذه المنشآت دخل تاريخ الهندسة المعمارية، وبعضها أصبح رمزاً وطنياً معروفاً على نطاق العالم بأسره.

بعبارة أخرى، فإن المعارض الدولية التي ظهرت فكرتها أساساً لتعزيز التبادل التجاري، صارت تصوغ شخصية المدن وتخطيطها العمراني، إضافة إلى طبع بصماتها الواضحة على الثقافة والتبادل الثقافي بشكل عام.

ولدت كبيرة جداً

يُعد «إكسبو شانغهاي 2010» الحلقة الأخيرة والأضخم في سلسلة المعارض الدولية التي كانت حلقاتها الأولى ضخمة بما فيه الكفاية. فأول معرض عالمي بالفعل، كان المعرض الذي أقيم في لندن في شهر مايو عام 1851م، وكان اسمه الرسمي «المعرض الكبير لأعمال صناعة كل الأمم»، واختصر اسمه ليصير معروفاً بعبارة «المعرض الكبير».

تعود فكرة إقامة هذا المعرض إلى الأمير ألبرت، زوج الملكة فكتوريا، الذي لم يكن محبوباً جداً في بريطانيا بسبب أصله الألماني، ولكنه كان مهتماً جداً بتعزيز مكانة الصناعة البريطانية. وكان لنجاح هذا المعرض فضل كبير على تحسين شعبية الأمير في صفوف عامة الشعب الإنجليزي.

يعرف هذا المعرض البريطاني العالمي الأول باسم «معرض كريستال بالاس» نسبة إلى المبنى العملاق الذي أنشئ لاستضافته، وصممه المهندس جوزف باكستون خلال عشرة أيام فقط، وكان عبارة عن هيكل عملاق من الحديد مغطى بمليون قدم مكعبة من الزجاج. ليكون بذلك أول مبنى زجاجي في العالم، ودخل تاريخ الهندسة بهذه الصفة.

تضمَّن هذا المعرض العالمي 13,000 معروضة من كافة أنحاء العالم، وزاره 6,200,000 شخص، كان الكثيرون منهم من الدول الأوروبية المجاورة. وسمحت الأرباح التي جُمعت من هذا المعرض بتأسيس وتمويل بعض المشروعات العامة مثل المسرح الشهير «ألبرت هول»، ومتحف العلوم، و«متحف التاريخ الطبيعي»، و«متحف فيكتوريا وألبرت».. وهي لا تزال من أهم الصروح الثقافية في العاصمة البريطانية حتى اليوم.

V&A



shutterstock

متحف فيكتوريا وألبرت.. من ثمار أول معرض عالمي

shutterstock

ألبرت هول


سقف القصر الكبير

وعلى الرغم من نقل «الكريستال بالاس» بعد انتهاء المعرض مـن موقعه الأصلي في هايد بـارك، إلى منطقة أخرى، ومن ثـم دماره فـي حريق التهمه عام 1936م، فإن موقعه الجديد المعـروف باسـم «كريسـتال بالاس بـارك» ظل يشـهد لقرن ونصف القرن الكثير من أوجه النشاط الثقافية والفنية التي أقيمـت فـي العاصمة البريطانية. وذكراه لا تزال حية سـواء مكانته في تاريخ الهندسـة، وفي ريادته لهذا النوع من أوجه النشـاط العالميـة، وحتـى في فريـق كرة القـدم الذي يحمل اسمه وتأسس عام 1861م، ولا يزال قائماً حتى اليوم.

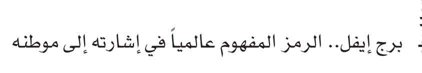
معرض «أفعلُ التفضيل»

أدى النجـاح الكبير للمعرض العالمي الأول هذا إلى انتشـار الرغبة في إقامة مثله في دول عديدة أخرى. وكانت فرنسا، المنافـس التاريخـي لبريطانيـا على المسـتعمرات، مضيفة أهـم وأضخـم المعارض العالميـة فـي النصـف الثاني من القرن التاسع عشر.

في العام 1889م، ولمناسبة إقامة «المعرض العالمي»، تم بناء برج إيفل الشهير، كبوابة للمكان الذي يستضيف العارضين.

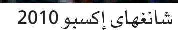
صمـم هـذا البـرج المهندس الفرنسـي غوسـتاف إيفل من الحديـد فقط. وبلغ ارتفاعـه 324 متراً، أي ما يوازي ارتفاع عمـارة مـن ثمانيـن طابقـاً. وقد تجـاوز بذلك قليـلاً ارتفاع «نصب واشنطن» في العاصمة الأمريكية، ليكون بذلك أعلى بنـاء رفعه الإنسـان فـي العالـم. واحتفظ بهـذا اللقب لمدة 41 عامـاً، تاريـخ بنـاء «برج كرايسـلر» في مدينـة نيويورك. ولكـن برج إيفل لم يخسـر مكانته بعد ذلـك كرمز للعاصمة الفرنسية ولفرنسا عموماً.

وما يتكشف عنه برج إيفل ورقمه القياسي هو انتصار «أفعل التفضيـل» فـي المعارض الدوليـة. فالتالـي يجـب أن يكون الأكبر، الأجمل، الأوسع، الأكثر تنوعاً، ... الخ.


برج إيفل.. الرمز المفهوم عالمياً في إشارته إلى موطنه

shutterstock




شانغهاي إكسبو 2010

Google

ففي العام 1900م، عادت فرنسا لتقيم معرضاً عالمياً، ولكن هذه المرة تحت اسم «المعرض الكوني». وقد أقامت لهذه الغاية قصرين دخلا تاريخ الهندسة في القرن العشرين من أوسع أبوابه، ولا يزالان أهم قصرين في العاصمة الفرنسية بعد قصر اللوفر الملكي والمتحف.

فالقصر الأول يعرف باسم «القصر الكبير»، يبدو بواجهته الحجرية المزيَّنة بالتماثيل على أنه «تقليدي»، ولكن هيكله الداخلي مؤلف من الفولاذ وتعلوه قبة من الزجاج، فأصبح بذلك أكبر مبنى من الزجاج والفولاذ في العالم بعد احتراق «الكريستال بالاس». وبسبب الضوء الذي يغمره من الداخل بفعل قبته الزجاجية العملاقة، تحوَّل هذا القصر بعد المعرض الكوني، إلى مضيف أكبر المعارض الثقافية العالمية التي تقام في العاصمة الفرنسية. والأمر نفسه ينطبق على «القصر الصغير» الذي يقابله تماماً.



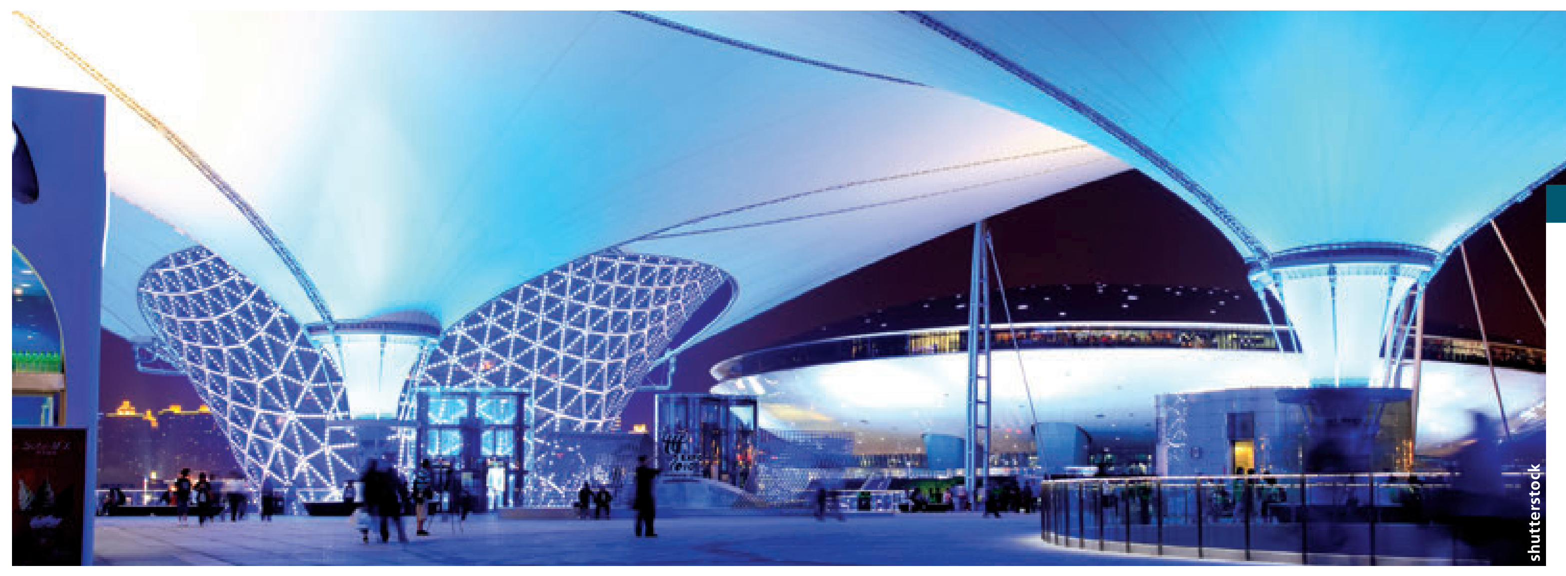
تطوُّر المواصلات أضاف البُعد السياحي والثقافي والترفيهي إلى أبعاد المعارض التجارية

وأينما كان في العالم في صميم الاقتصاد والثقافة

وطوال القرن العشرين، كان للمعارض العالمية الوقع نفسه على البلدان التي أقامتها. وجاء تطور المواصلات ليعزز البعد السياحي لهذه المعارض التي صارت تستقطب من الزوار الأجانب ما يحسب حسابه على صعيد السياحة والدخل القومي. وتعزيزاً لهذا الجانب، صارت أوجه النشاط الثقافية والترفيهية والبرامج السياحية من نقاط الجذب المعادلة في أهميتها للمعروضات الصناعية والتجارية.

ومن الأمثلة القريبة منا، «معرض دمشق الدولي» الذي تأسس قبل 57 سنة، عند طرف مدينة دمشق القديمة، على ضفة نهر بردى، فأصبح بعد خمسين عاماً في وسط المدينة، الأمر الذي دفع الحكومة إلى اختيار موقع جديد له، تبلغ مساحته 1.2 مليون متر مربع (13 ضعف مساحة المعرض القديم)، منها 63 ألف متر مربع للأجنحة المسقوفة، و150 ألف متر مربع للعرض أو أوجه النشاط في الهواء الطلق، ليبقى بذلك «القطعة» الأكبر على خريطة مدينة دمشق رغم توسعها. وما يعرفه الجميع، هو أن «معرض دمشق الدولي» بات منذ نشأته وحتى اليوم، يشكِّل سنوياً الموسم الثقافي والسياحي الأكبر.

أما المثل الثاني فهو من طرابلس لبنان، حيث أوعزت الحكومة اللبنانية في مطلع ستينيات القرن الماضي إلى المهندس البرازيلي أوسكار نيامار بتصميم معرضها الدولي. فوضع تصاميم هندسية سبقت في طليعتها تصميمه لمدينة برازيليا. ولكن أسباباً عديدة، وأهمها اندلاع الحرب الأهلية، حالت دون إكمال بناء هذا المشروع في حينه. وعلى الرغم من أن جزءاً صغيراً من هذا المعرض افتتح لكافة أوجه النشاط الثقافية


shutterstock

والتجارية المختلفة بعد نهاية الحرب، فإن أثره على حياة المدينة وتخطيطها كان واضحاً، إذ تمددت المدينة باتجاهه، وارتفعت حواليه المباني السكنية الفاخرة، وصار اسم المعرض يطلق على كل الشوارع المحيطة به، ويبدو من الصور الفضائية «القطعة» الأكبر في المدينة الصغيرة.

شانغهاي 2010 غير شانغهاي 2009

إكسبو 2010 أعاد رسم مدينة شانغهاي، وشهد تخطي كل الأرقام القياسية السابقة له

لو رسمنا خطاً بيانياً لمسار المعارض العالمية التصاعدي، انطلاقاً من النقطة الأولى -المرتفعة أصلاً- وهي معرض «الكريستال بالاس» في لندن لأمكننا أن نتصور مقاييس معرض شانغهاي وأهميته على كافة الصعد المباشرة وغير المباشرة. ولكن لا بد من التوقف أمام جذور الفكرة الداعية إلى إقامته.

فمن بين زوار المعرض العالمي الأول الذي أقيم في لندن عام 1851م، كان هناك رجل صيني من كانتون يدعى زو رونغ كون، الذي ما إن سمع بخبر المعرض حتى هرع إليه حاملاً معه 12 كيساً من الحرير. واستحقت مشاركته ميدالية ذهبية من الملكة فيكتوريا. ومع العلم أن المشارك الصيني لم يكن ممثلاً رسمياً للحكومة، فإن مشاركته هذه تُعد أولى مشاركة للصين في أي معرض عالمي.

وفي سنة 1867م، شاركت حكومة الإمبراطور الصيني في «معرض فيلادلفيا المئوي»، ثم في «معرض الشراء» في سانت لويس، بولاية لويزيانا الأمريكية، سنة 1904م. وبعد زوال حكم الإمبراطورية، شاركت الجمهورية الصينية في «معرض بنما - المحيط الهادي الدولي» سنة 1915م.

وتوقف اشتراك الصين طويلاً قبل أن تعود سنة 1982م، في المعرض العالمي.

ولكن قبل ذلك، وتحديداً في سنة 1893م، كتب صيني اسمه تشنج جوان يينج كتاباً عن فوائد المعارض الدولية الاقتصادية والعسكرية والدبلوماسية والثقافية. فقرأه الإمبراطور وأمر بطبعه في 2000 نسخة. ثم ألف ليانج كيشاو كتاباً عنوانه: «مستقبل الصين الجديدة»، سنة 1902م، وكتب لو شي إيه «الصين الجديدة»، سنة 1910م. لكن توالي الحروب الداخلية، والاحتلال الياباني في ثلاثينيات القرن العشرين الميلادي وأربعينياته، أخّر تنفيذ الفكرة.

وأخيراً، في سنة 1979م، وبعد معارض صغيرة متفرقة هنا وهناك، وأولها «معرض نانيانج الصناعي» سنة 1910م، استعاد الزعيم الصيني دنج هسياو بنج الأمر بيديه، ووُلدت فكرة معرض شانغهاي. فاستضافت الصين سنة 1999م بنجاح «معرض كونمنج النباتي» وقررت حينذاك أن تستضيف «المعرض العالمي». وهكذا كان، تماماً مئة سنة بعدما اقترح لو شي إيه سنة 1910م، أن تنظم شانغهاي المعرض.

بدأ بناء مرافق المعرض ومبانيه في 4 نوفمبر 1999م، وافتُتحت المرافق هذه في 2 نوفمبر 2001م. ولم يتوقف تطويرها وتوسعتها، حتى بلغت عند افتتاح «إكسبو 2010» 5.28 كيلومتر مربع، استضافت بكفاءة عالية أجنحة 192 دولة و50 منظمة عالمية، وبلغ عدد زوارها نحو 75 مليون شخص.

كل الأرقام القياسية المسجلة سابقاً في المعارض الدولية انهارت في معرض شانغهاي. بدءاً بعدد رؤساء الدول

وممثليهم الذين حضروا الاحتفال بالافتتاح، وصولاً إلى عدد الفنانين الذين اعتلوا خشبات المسارح العديدة فيه وبلغ عددهم 22 ألف فنان خلال ستة أشهر.. وما بين هذا وذاك، أجمع زوار المعرض على أنه بدا في مجمله مسابقة بين دول العالم في فن العمارة وابتكار طرز بناء لم ترها العين سابقاً.

ولكن، قبل الوصول إلى كل هذا، تطلبت إقامة هذا المعرض إعادة رسم صورة مدينة شانغهاي، وإجراء تعديلات أساسية على خريطتها.

فعندما اعتمدت هذه المدينة لاستضافة «إكسبو 2010» انطلقت ورشة عمل بلغت كلفتها 48 بليون دولار. والتعديلات التي أجريت على المدينة فاقت تلك التي أجريت على العاصمة بكين لاستقبال الألعاب الأولمبية عام 2008م.

فقد أخلت المدينة 2.6 كيلومتر مربع على ضفتي نهر هوانغبو، وتطلب ذلك إجلاء 18 ألف عائلة، ونقل 270 مصنعاً إلى أماكن أخرى، ومن بينها مصنع واحد يضم نحو 10 آلاف عامل. كما تم شق ستة خطوط جديدة لقطار الأنفاق، واشترت المدينة سيارات أجرة جديدة تماماً، وأعيد تأهيل شبكة الإنارة الليلية.. وعندما نضيف إلى كل ذلك، أنه بعد انتهاء «إكسبو 2010» في الحادي والثلاثين من أكتوبر، فإن مباني الأجنحة المنتمية في هندستها إلى المستقبل ستبقى قائمة كجزء من المدينة، وستشهد أجنحة كثيرة أوجه نشاط دائمة وإن كانت أقل ضخامة من المعرض العالمي، عندها يمكننا أن نفهم حقيقة الشعار الذي حمله هذا المعرض، والقائل «مدينة أفضل، حياة أفضل». فقد بات في حكم المؤكد أن مثل هذه المعارض العالمية تغيِّر تماماً أشكال المدن، كما يبدو أن التغيير هو دائماً نحو الأفضل.





المحترف السعودي – زكي غواص





سوق عُكاظ

أول معرض دولي في التاريخ؟

لأن شبه الجزيرة العربية كانت ولا تزال الممر اللازم للتجارة الدولية بين بلدان حوض المحيط الهندي، أي بلدان شرق إفريقيا وجنوب آسيا، والهند والشرق الأقصى ولا سيما الصين من جهة، وبين بلدان حضارات البحر الأبيض المتوسط، كان أمراً طبيعياً أن يمتهن عرب عُمان والخليج وسواحل المتوسط الشرقية النقل البحري منذ الزمان الغابر، وأن تكون أسواق الجزيرة العربية ملتقىً لتجار الشمال والجنوب، وتجار الشرق والغرب.

وقد نظَّمت قريش منذ القرون الميلادية الأولى، في حضرموت أولاً، ثم في مكة المكرمة بعدئذ، أسواق العرب، لتسويق البضاعة المحلية وبضاعة التجارة الدولية المارة عبوراً إلى أسواق بلاد الشام والبحر الأبيض المتوسط. وابتكر هاشم ابن عبد مناف وإخوته الثلاثة المُطَّلب وعبد شمس ونوفل، نظاماً من العهود مع ملوك الأطراف في بلاد الشام والحيرة واليمن والحبشة، ومع القبائل المقيمة على طرق قوافل قريش، للاتِّجار بسلام في أسواقهم، وحماية القوافل أو المشاركة فيها، على نحو ضَمِن مرور البضاعة الاستراتيجية من المحيط الهندي إلى البحر الأبيض المتوسط، على الرغم من نشوب حروب مزمنة معظم سنوات القرن الميلادي السادس بين البيزنطيين والفرس، عطّلت خطوط التجارة الأخرى عبر الخليج ونهر الفرات، أو عبر البحر الأحمر.

وكان شأن هذا النظام الذي أنشأته قريش إقامة أسواق في ديار كبرى القبائل العربية بنظام مداورة سنوية، وكان أكبرها وأهمها سوق عُكاظ، التي شدّ الرحال إليها العربُ من أقصى شمال بلاد الشام، ومن اليمن، ومن الحيرة، ومن عُمان، بل من بلاد فارس والحبشة. وكانت تُباع وتُشترَى في هذه الأسواق البضاعة المحلية، وكل ما تشتريه القبائل من البضاعة الدولية الآتية بالبحر من الهند وسرنديب (سري لانكا اليوم) وشواطئ إفريقيا الشرقية والصين وبقية بلاد حوض المحيط الهندي.



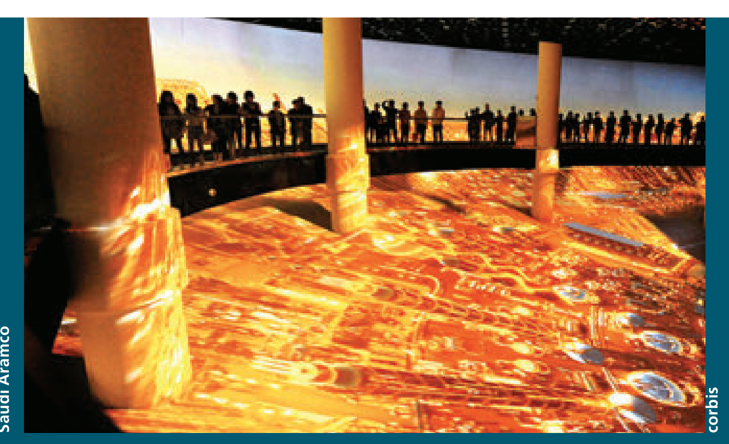


corbis

«طابور بطول ميلين»
الجناح السعودي في إكسبو شانغهاي

بعيداً عما يمكن أن يقوله «شاهد من أهله»، نذكر ما كتبته الصحافية الأمريكية بربارة ديميك بتاريخ 30 يوليو 2010م في صحيفة «لوس أنجلس تايمز» في معرض حديثها عن المعرض العالمي في شانغهاي، وجاء فيه: «في أيام الذروة، تمتد طوابير الزوار حتى الميلين (ثلاثة كيلومترات) انتظار وتسع ساعات للتمكن من زيارة الجناح السعودي، الجناح الأكثر شعبية في «إكسبو 2010». فقد كانت حصة الجناح السعودي من الزوار أكثر من خمسة ملايين زائر. وهو رقم لا تجرؤ أجنحة دول كبرى على أن تحلم به. وكان من بين هؤلاء عشرات رؤساء الدول والحكومات والوزراء، وفنانين عالميين ومثقفين من مشارق الأرض ومغاربها.

فقد كان هذا المعرض مناسبة للجمع بين عملاقين: الصين عملاق الصناعة والاقتصاد الناهض، والمملكة عملاق صناعة النفط ومشتقاته. إلا أن الجناح السعودي لم يشد الملايين إلى هذا الجانب فقط، بل إلى التعرف إلى المملكة وثقافتها وتاريخها، بواسطة تجربة سينمائية جديدة تقنياً، وصفها الصحافي خالد الطويلي في أحد تقاريره بأنها تقوم على 25 جهاز عرض في وقت واحد على شاشة عملاقة تبلغ مساحتها 1600 متر مربع تحيط بزائري الصالة من جميع الجهات، وتنقلهم عبر صور بالغة التطور التقني، ولمدة 12 دقيقة بين أرجاء متعددة من المملكة، وقوفاً على مسار متحرك يعطيهم إحساساً بالتحليق على متن ما أطلق عليه اسم «سفينة النور».


corbis


Saudi Aramco


Saudi Aramco


Saudi Aramco



Saudi Aramco


Saudi Aramco

وكما أن الحديقة المعلقة فوق الجناح السعودي والمزروعة بالنخيل وبعض النباتات الصينية جنباً إلى جنب، رمزاً للصداقة التي تجمع البلدين، فإن أوجه النشاط الثقافية العديدة، والتي غطتها الصحافة اليومية في الصين كما في المملكة بالكثير من التفصيل، شكَّلت بالنسبة لمئات الآلاف مناسبة للتعرف إلى ثقافة المملكة وهويتها الوطنية ونهضتها الثقافية، مثل معرض «نبط» للفنون الشعبية الذي استمر لنحو ثلاثة أشهر وشارك فيه 23 فناناً وفنانة سعودية، ومنتدى «وجوه من السعودية»، الذي تحدث فيه سمو الأميرة ريم الفيصل عن تجربتها في التصوير الضوئي، والدكتورة حياة سندي عن تجربتها العلمية ومخترعاتها في مجال التكنولوجيا الحيوية، ووزير الصحة الدكتور عبدالله الربيعة عن عمله البارز في فصل التوائم، إضافة إلى «منتدى اليوم الوطني» الذي نظَّمته وزارة الخارجية السعودية، وغيره الكثير.

وفي هذه المشاركة السعودية، وغيرها من التجارب المماثلة ما يؤكد على أن البعد التجاري والاقتصادي المباشر للمعارض الدولية، بات يفسح أكثر فأكثر المجال للأبعاد العمرانية والثقافية. وكما تترك منشآت هذه المعارض بصماتها واضحة على المدينة المضيفة، فإن فعالياتها تبقى في وجدان الزائرين لتطورها، وتعزز التعاون والتفاهم والحوار بين الشعوب.

قول في مقال

أيها الطبيب..
هل أمضغ علكة، أم أتناول تفاحة؟

كثيراً ما تطالعنا نتائج أبحاث ودراسات طبية تناقض ما كانت قد توصلت إليه دراسات أخرى. وتعرضها علينا وسائل الإعلام مبسطة، مع شيء من المبالغة أو التفكّه لجذب انتباه القرَّاء.

عبدالخالق الغامدي ينطلق من خبر صغير نشر في وسائل الإعلام مؤخراً، ليطرح سؤالاً كبيراً، حول تضارب تقارير الأبحاث الطبية، وقيمتها الحقيقية، وتجريد تفاصيل من وقارها مع شيوع وسائل الاتصال الحديثة.

نشرت صحيفة «الحياة» بتاريخ الثاني من ديسمبر 2010م خبراً طريفاً في صفحتها الأخيرة، يتحدث عن مدرِّسة ألمانية تحث طلابها على مضغ العلكة، استناداً إلى النظرية القائلة إن العلكة محفزة للخلايا العصبية إضافة لتعزيزها للتركيز، وجاء في المقال: مضغ العلكة يحفّز نشاط الدماغ ويساعد بالتالي على زيادة مستوى الانتباه والقدرة على التركيز..!

والحقيقة أن هذا المقال مدعاة للتفكير في قضية تبتعد عن العلكة وعن المدارس وعن ألمانيا، ولتثير التساؤل التالي: أين وصلت الدراسات والتقارير والأبحاث الطبية التي تُجرى على الأطعمة والأشربة؟ وما القول الفصل في تأثير هذا المأكول أو ذاك المشروب على صحة الإنسان؟ ويزداد هذا التساؤل وجاهة ونحن نشهد دراسات ينفي بعضها بعضاً، ويتناقض مضمون أحدها مع مضمون الآخر يوماً بعد يوم. وفي مجال الطب تحديداً يصبح هذا التضارب خطراً حقيقياً لاتصاله المباشر بصحة الإنسان وحياته.

ترى ما هو المرجع في استقاء تلك الدراسات واستحداثها؟ وأيها يخلص إلى نتائج دقيقة وصحيحة؟ وأيها يتحدث بما لا يعرف؟

لا بد من الإقرار في البداية بأن هناك مؤشرات تتحدث عن أن طبيب اليوم قد يكون خطراً على صحة المرء، في الوقت الذي يُتوقع أنه المنقذ من الألم والمريح منه كما كان «حكيم» الأمس. والواقع يخبر عن مشاهدات عديدة تعزِّز هذا الافتراض. فمن الحوادث المشهورة في هذا الصدد الإضراب الذي قام به الأطباء في لوس أنجلوس عام 1978م واستمر شهراً كاملاً، وكانت أهداف ذلك الإضراب بعيدة كل البعد عن النتيجة الكبرى التي صدمت مراكز الأبحاث والمتابعين، وهي انخفاض نسبة الوفيات خلال ذلك الشهر بنسبة 18%!

الأمر نفسه تكرر في فلسطين المحتلة، عندما أضرب الأطباء في عام 2000م في كافة أنحاء البلاد مطالبين بزيادة الأجور وتحسين الأوضاع المعيشية، وكان من المدهش أن الوفيات انخفضت واستمرت في الانخفاض مع استمرار ذلك الإضراب، حتى أشارت تقارير إلى أنه في بعض المدن هوت نسبة الوفيات بمعدل 50%، وهو ما جعل السؤال المثير يطفو على السطح: هل الأطباء يقتلون المرضى؟

ومن الدراسات الطريفة كذلك، تقرير نشر في أكتوبر 2008م، تناول فيه باحثون أمريكيون وكنديون من جامعات

مختلفة بعض الإضرابات التي قام بها الأطباء خلال الثلاثين عاماً الماضية، وحصروا منها خمسة إضرابات كبيرة، وكانت النتيجة أنه في جميع هذه الحالات كانت نسبة الوفيات تقل عن المعتاد أو على الأقل تبقى بمعدلاتها الطبيعية، إلا أن لا إضراباً من تلك نتجت عنه زيادة في عدد الوفيات بسبب غياب الرعاية الطبية.

وبعيداً عن إضرابات الأطباء ونتائجها، تظهر أمام المتابع أسباب أخرى من شأنها إحداث الشك في كثير من تلك التقارير الطبية والدراسات والنصائح المستمرة التي تنهال على الفرد بمجرد سؤاله عما يحافظ له على صحته. فالانفتاح الإعلامي مثلاً لا يمكن أن يُغفل عند الحديث حول هذه المشكلة، وما يتيحه الإنترنت لنشر وتسويق أي معلومات أو تقارير مغلوطة أصبح أمراً مألوفاً لدرجة أنه أوقع بعض المؤسسات والمراكز العالمية المعتبرة في حرج، من بعض التقارير الملفقة التي تنسب إليها.

فعلى سبيل المثال، انتشر عبر البريد الإلكتروني تقرير مطول عن الخلايا السرطانية وخطورة العلاج الكيميائي الذي قد يعالج الورم جزئياً، لكنه يؤثر بالكامل على الخلايا الدماغية في جسم الإنسان. ولقي هذا التقرير رواجاً كاسحاً في صناديق البريد والمجموعات الإلكترونية، لدرجة أنه ترجم إلى العربية وتناقله «المجتمع الإنترنتي» العربي، وجاء المقال بعنوان: «أحدث بحث طبي صادرعن جامعة الأبحاث الطبية الأمريكية الشهيرة -جون هوبكنز- والتي تعد ثاني أحسن جامعة ومركز أبحاث طبي على مستوى أمريكا».

تحدث المقال بوجاهة! وبلغة علمية مبسطة محترفة عن أحد عشر سبباً لجعل العلاج الكيميائي «مهلكاً» للإنسان، وأشار التقرير إلى أن في كل إنسان ثمة خلايا سرطانية، لكنها لا تظهر كمرض إلا بعدما تتكاثر في منطقة معينة من الجسم، كما أن العلاج الكيماوي يقوم بتسميم تلك الخلايا السرطانية، ويؤدي أيضاً إلى تدمير خلال سليمة سريعة النمو في النخاع الشوكي والجهاز الهضمي ويسبب أضراراً في الكبد والكلى والقلب أو الرئتين.. إلى آخر المقال.

وجاء في نهاية المقال أن جامعة جون هوبكنز الشهيرة نشرت هذا البحث في دوريتها العلمية، وتناقلته مراكز بحث كبرى في الولايات المتحدة، كما ظهر الدكتور إدوارد فوجيموتو، مدير برنامج الصحة بمستشفى كاسل مؤخراً في برنامج تلفزيوني ليشرح هذه الظواهر ويؤكدها!!

والحقيقة أن جامعة جون هوبكنز أصدرت بياناً خاصاً بهذا البحث، تؤكد فيه أن هذا البحث لم يصدر عنها، ولم ينشر في دوريتها ولا في غيرها، وأوردت ما مفاده: «نشرت على القوائم البريدية معلومات خاطئة نسبت إلى جامعة جونز هوبكنز، تستعرض بالتفصيل حقائق عن الخلايا السرطانية وسبل العلاج منها، وجون هوبكنز لم تنشر هذه المعلومات التي أرسلت بالبريد الإلكتروني، كما أنها لا تؤيد محتواها أيضاً».

ولكن المفارقة تأتي هنا في أن بيان الجامعة العريقة لم يلق الرواج الذي لقيه التقرير المزيف. وهو ما يعيدنا إلى الاستفهام عن المرجعية العلمية والطبية والحقوقية والفكرية في العالم الافتراضي الرقمي؟ من يحاسب من؟ وما هي الآليات التي تحفظ القارئ من التلفيق والتزوير وتأليف الحقائق المغلوطة؟

حسناً، من الواجب أيضاً قبل أن نضع نقطة نهاية السطر أن نشير إلى ثقافة عامة قد تكون سبباً مهماً آخر من أسباب هذه الفوضى البحثية الطبية، وهي النظرة التقليدية إلى الطبيب، والافتراض أنه أحرص على صحة المريض من نفسه. إن المبالغة في توهم المرض أولاً، والتوجس من أي عارض قد يصيب الجسم، ثم المبادرة بالاعتماد على الطبيب لتقديم العلاج والتشخيص ثانياً، والافتراض بأنه أدرى بجسم المريض من نفسه، وبما يتعرض له ذلك الجسم من مؤثرات بيئية واجتماعية ونفسية وغيرها، يحول الإنسان من مسؤول راشد عن عافيته وسلامته، إلى متلقٍّ بليد يتكئ على ما يوصي به الطبيب وما تنصح به الأبحاث.

هناك واجب مناط بكل فرد، وهو أن يقوم بمسؤوليته الصحية تجاه نفسه، ولا يتعامل مع أي عارض بتفاعل سلبي مبالغ فيه، ولعل هذا ما يشير إليه القول المأثور: «لا تمارضوا فتمرضوا»!

تُرى، هل ما زال العلك الآن منشطاً للخلايا الدماغية وسبباً لزيادة التركيز؟ أم أن العلك يحتوي على مواد كيميائية وملونة وكمية عالية من السكر؟

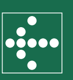
أخطاء الأذكياء في عالم الأعمال



كثيراً ما تطالعنا وسائل الإعلام بأخبار تتحدث عن انهيار مؤسسات اقتصادية ضخمة، يفترض أنها تضم أعداداً كبيرة من أصحاب العقول الكبيرة والمبدعين والإداريين المتفوقين.. وكثيراً ما يفسَّر هذا الانهيار بخطوة استراتيجية خاطئة أقدمت عليها هذه المؤسسة وأدت إلى إفلاسها. فكيف يمكن أن يخطئ مديرون مشهود لهم بالتفوق والنجاح مثل هذه الأخطاء القاتلة، وهم الذين شقوا طريقهم إلى القمة من خلال سلسلة طويلة من القرارات الصائبة.

ليلى أمل تجيب عن هذا السؤال المحيِّر. وفي الأمثلة التي تعطيها ما قد يفاجئ القارئ.

Illustration: almohtaraf alsaudi - Samar Haddad



في حياتنا اليومية العادية، نتخذ عشرات القرارات. بعضها صغير وعادي، وبعضها كبير وأكثر أهمية، ذو تأثير كبير في حياة المعنيين به. وفي الحياة العملية، يزداد تعقيد القرارات، ويتسع محيط تأثيرها.

ولهذا، يؤكد خبراء الإدارة دائماً على أهمية عملية اتخاذ القرار، وضرورة الاستعداد الجيد لها. علينا أن نجري التحليلات الدقيقة، ونزن الأمور بعناية فائقة، ونراجع كافة البدائل، ونقلب الأمر على كل أوجهه الممكنة. لكن الحقيقة التي تسترعي الانتباه وتتطلب التوقف أمامها، هي أنه بالرغم من كل ذلك، هناك قرارات كبرى، يتخذها أشخاص أذكياء ومسؤولون، يعتمدون على أدق المعلومات وأفضل النوايا، تأتي نتيجتها لتثبت كم كانت هذه القرارات منذ البداية خاطئة.

لدينا قصة جارجين شريمب، المدير التنفيذي لشركة ديملر- بينز. الذي قاد الإندماج ما بين شركتي ديملر وكرايسلر، رغم المعارضة التي واجهها هذا القرار. بعد سنوات تسع، اضطرت ديملر للتخلي عن كرايسلر في صفقة جديدة للحد من خسائرها.

وهناك قصة ستيف راسل المدير التنفيذي لشركة «بووتس» البريطانية المختصة ببيع المستحضرات الطبية. فقد قرر راسل اعتماد استراتيجية جديدة، لتمييز الشركة عن منافسيها ودفع نموها، وذلك عبر تقديم عدد من الخدمات الطبية داخل فروعها كالعناية بالأسنان. لكن اتضح فيما بعد أن مديري «بووتس» لم تكن لديهم المهارات اللازمة للنجاح في المجالات الجديدة. بالإضافة إلى ما اتضح من الربحية القليلة لهذه المجالات. فطالت خسائر هذه الاستراتيجية راسل نفسه، إذ أسهمت في سرعة رحيله عن المنصب الأعلى في الشركة.

لكن تعرف الأنماط يمكنه أن يقودنا في الاتجاه الخطأ. فعند التعامل مع مواقف تبدو مشابهة لمواقف سابقة، قد تدفعنا هذه العملية إلى التفكير في أننا نفهم الموقف بجميع تفاصيله، في حين أن حقيقة الأمر ليست كذلك.

هاتان القصتان وغيرهما الكثير في عالم الأعمال، تثيران التساؤل: كيف يمكن للمدير الذي يملك كل المهارات والخبرات اللازمة لإدارة شركته، أن يتخذ قرارت يتضح بعد مدة قصيرة أنها كانت أخطاءً فادحة؟ وهل يمكننا تجنب مثل هذه الأخطاء؟

كيف نقوم باتخاذ القرارات؟

لنرى الأمر بوضوح أكبر، علينا أولاً أن نفهم العمليتين الرئيستين اللتين نعتمد عليهما في اتخاذ القرارات. فالمخ يزن ويقيس المعلومات المتوافرة أمامه عن طريق عملية «تعرف الأنماط»، ثم يقرر التفاعل مع هذه المعلومات، أو تجاهلها، استناداً للارتباطات العاطفية المحفوظة في ذاكرتنا. وكل من هاتين العمليتين محل ثقة ويعتمد عليها جيداً، لكن في بعض الحالات وتحت ظروف معيَّنة يمكن أن تخذلنا بشدة.

«تعرف الأنماط» هي عملية معقدة تستخدم المعلومات التي تتعامل معها أكثر من 30 منطقة من مناطق المخ. فعندما نواجه موقفاً جديداً، نبدأ بوضع فرضيات حوله بناءً على الخبرات والأحكام السابقة. وبهذه الطريقة، يستطيع مخ لاعب الشطرنج الخبير، أن يصل إلى حركة عالية المستوى في مدة زمنية قصيرة تصل إلى ست ثوان، عن طريق البناء على أنماط رآها وتعامل معها من قبل.

في العام 2005م، كان الجنرال ماثيو برودريك رئيس مركز عمليات الأمن الداخلي الأمريكي، مسؤولاً عن إشعار الهيئات الحكومية العليا إذا تصاعدت حدة الإعصار «كاترينا»، وأصبح يشكِّل خطراً داهماً على مدينة نيوأورليانز. كان برودريك صاحب خبرة مكثفة في العمل في مراكز العمليات في الكثير من التحركات العسكرية على مدى سنوات حياته المهنية، كما أنه قاد مركز عمليات الأمن الداخلي الأمريكي خلال عدة أعاصير سابقة ضربت بلاده. وقد علمته هذه الخبرات أن التقارير الأولى حول حدث كبير تكون غالباً غير دقيقة كفاية. وأنه من الأفضل أن ينتظر حتى يحصل على الحقيقة المؤكدة قبل أن يبدأ في التصرف. لكن الأمر كان مختلفاً هذه المرة، ولم يكن في جعبة الجنرال برودريك خبرة سابقة مع إعصار يضرب مدينة ينخفض مستواها عن مستوى سطح البحر.

في نهاية يوم 29 أغسطس للعام 2005م، كان برودريك قد تلقى عدة تقارير عن تصاعد الموقف، واحتمال وصوله إلى حدود خطرة. إلا أنه تلقى أيضاً تقارير معاكسة. كما عرضت القنوات التليفزيونية مشاهد لسكان المدينة يحتفلون بعبور الإعصار عبوراً هادئاً وبزوال الخطر عن مدينتهم. وقادت عملية «تعرف النمط» التي أجراها برودريك، أو جرت في عقله من دون تحكم، إلى الوصول إلى أن هذه التقارير المعاكسة هي الحقيقة التي كان ينتظرها. لذلك، أصدر تقريراً قبل انصرافه إلى منزله في المساء يقول فيه إن الوضع لم يصل إلى مرحلة الخطر، إلا أنه يحتاج إلى مزيد من البحث والتأكد في اليوم التالي. وبعد ساعات من إصدار التقرير، اجتاح الإعصار مدينة نيوأورليانز وأحدث فيها دماراً غير مسبوق.

أما العملية الثانية التي نعتمد عليها في اتخاذنا للقرارات، فهي الربط العاطفي. والتي تتشكل بواسطتها الروابط

بين مشاعرنا المختلفة والأفكار والخبرات المحفوظة في ذاكرتنا. هذه الروابط هي التي تخبرنا ما إذا كان علينا أن نعطي انتباهنا لشيء ما أم لا، وتحدد لنا رد الفعل المناسب إن قررنا الانتباه له. وتشير أبحاث الدماغ إلى أهمية هذه الروابط العاطفية في عملية اتخاذ القرار. فحين تتعرض مناطق المخ المسؤولة عن تكوين هذه الروابط للإصابة، تصبح عملية اتخاذ القرار بطيئة وغير فعالة. وذلك على الرغم من عدم تأثر قدرة المخ على التفكير والتحليل المنطقي.



كيف يمكن للمزاج الشخصي عند مدير أن يملي عليه قرارات تؤدي بمؤسسته إلى الإفلاس؟

وكما كان الأمر مع تعرف النمط، فإن عملية الربط العاطفي تساعدنا على اتخاذ قرارات صحيحة، لكنها أحياناً تحيد بنا عن ذلك. كانت شركة «وانج» واحدة من أهم شركات البرمجيات في أوائل الثمانينيات، وكان الجزء الأكبر من نجاحها يأتي من برامج معالجة النصوص التي كانت الشركة تقوم بتصميمها. وفي الفترة الأولى من ظهور الكمبيوتر الشخصي إلى النور، رأى مؤسس الشركة آن وانج أن مستقبل الشركة سيكون مهدداً إن لم تقم بالدخول في هذا القطاع. وبالفعل صمم «وانج» جهاز كمبيوتر شخصي، لكنه اختار أن يصمم له نظام تشغيل خاص، بدلاً من الاعتماد على نظام التشغيل «آي بي إم» الرائج وقتها، والذي أصبح نظام التشغيل المعتمد في صناعة الكمبيوتر الشخصي. فقاد هذا الخطأ الشركة إلى النهاية خلال سنوات قليلة، وكان سببه كراهية وانج لشركة «آي بي إم». فقد كان يرى أن «آي بي إم» سطت على تكنولوجيا جديدة كان قد ابتكرها في بداية حياته العملية. وهذه المشاعر جعلته يرفض تماماً أن يعتمد في جهازه نظام تشغيل مصدره الشركة التي يكرهها إلى هذا الحد.

لماذا لا يلتقط المخ هذه الأخطاء ويقوم بتصحيحها؟ السبب الأول هو أن معظم العمل العقلي الذي نقوم به، يكون بطريقة غير واعية. لهذا يكون من الصعب أن نراقب المعلومات والأفكار والمنطق الذي استخدمناه حين قمنا باتخاذ القرار. فنحن نقوم باكتشاف الأخطاء في نظامنا، فقط بعد أن نرى نتائج هذه الأخطاء. ماثيو برودريك عرف أن قاعدة «الحقيقة المؤكدة تأتي متأخرة» لا تصلح للحكم في كل الأحوال، لكن فقط بعد أن وقعت كارثة إنسانية هائلة. وآن وانج وجد أن إطلاقه لنظام تشغيل خاص كان قراراً خاطئاً، لكن بعد أن لاقى جهاز الكمبيوتر الذي طرحته شركته في السوق فشلاً مؤكداً.

ومما يزيد من تعقيد المشكلة هو أن تفكيرنا في معظمه يدور بصورة غير واعية. وثمة مشكلة أخرى مصاحبة هي طريقة هذا التفكير. فالمخ لا يقوم بعملياته بالطريقة «الأكاديمية».. تحديد الخيارات، ثم تعريف النواتج المطلوبة، ثم قياس كل من الخيارات على هذه النواتج. فبدلاً من ذلك، نقوم بتحليل الموقف باستخدام تعرف النمط، ثم نصل للقرارات حول الفعل، أو عدمه، عن طريق الربط العاطفي. وكل من العمليتين تحدث في الحقيقة بصورة لحظية.

توصلت الدراسات التي قام بها عالم النفس الأمريكي جاري كلان، إلى أن المخ يقفز إلى الاستنتاجات، ويقاوم إعادة التفكير في البدائل. كما أنه يقاوم إعادة تقييم الموقف، أو تغيير الإطار الأول الذي رآه عبره. وفي اختبار تجريه كلية أشريدج للأعمال، يُطلب من الدارسين تقديم نصيحتهم لشركة تريد أن تستثمر في تكنولوجيا جديدة أنتجتها، ويشير الاختبار إلى هذه التكنولوجيا الجديدة على أنها فرصة واعدة. بعد ساعات من البحث والتحليل، يصل بعض الدارسين إلى خطأ اعتبار هذه التكنولوجيا فرصة واعدة من الأصل، ويبدأون في رؤيتها بطريقة صحيحة كتهديد لوضع الشركة المادي وموقعها في السوق. وعلى الرغم من تأكيد التحليل والأرقام، للتأثير السلبي لهذه الخطوة الجديدة على الشركة، إلا أن النسبة الأكبر من الدارسين، لا تستطيع الخروج من الإطار الأول الذي رأت فيه هذه التكنولوجيا، وتأتي إجابتهم بتشجيع الإقدام على الاستثمار بقوة فيها.

عوامل ثلاثة للخطأ

هناك ثلاثة باحثين اهتموا بمعرفة أسباب اتخاذ القرارات الخاطئة. فقد قام آندرو كامبل، وجو وايتهيد، مديرا مركز الإدارة الاستراتيجية بلندن، بالتعاون مع سيدني فينكلستين أستاذ الإدارة بكلية دارتماوث الأمريكية، ببناء قاعدة بيانات تتضمن حصراً لمجموعة ضخمة من القرارات الخاطئة التي اتخذها مديرون في عالم الأعمال، ومسؤولون في مجالات أخرى مختلفة. تشترك جميعها في

وجود دلائل واضحة تشير إلى كونها خاطئة وقت اتخاذها، لكن ذلك لم يمنع من المضي قدماً في تنفيذها. وبتحليل هذه البيانات، توصل الفريق إلى أن القرارات الخاطئة تأتي كنتيجة لأخطاء يرتكبها المسؤولون في حكمهم على الأمور. وبالتالي اتجه نظرهم إلى ضرورة فهم الطريقة التي تحدث بها هذه الأخطاء في الحكم.



بتحليل الطريقة التي يقوم بها المديرون الأكفاء باتخاذ قرارات خاطئة، اتضح أنهم يتأثرون في هذه الحالات بثلاثة عوامل تؤدي إلى ربط عاطفي خاطئ، أو تدفعهم إلى رؤية نمط غير حقيقي.

1

العامل الأول والأكثر شيوعاً هو وجود اهتمام شخصي، يؤدي إلى عدم حيادية الأهمية العاطفية التي نعلِّقها على المعلومات، الأمر الذي يجعلنا نرى النمط الذي نحب أن نراه، حتى وإن كان غائباً. وتؤكد الأبحاث أنه حتى في حال وجود النيات الطيبة وغياب ما يستدعي الانحياز، فإن قراراتنا المهنية تتأثر كثيراً باهتماماتنا الشخصية.

أجرى ماكس بازرمان الباحث بجامعة هارفارد الأمريكية دراسة حول الدور الذي يلعبه الاهتمام أو المصلحة الشخصية، في عملية اتخاذ القرار. فقد طلب من مجموعة من المراجعين الماليين الخبراء مراجعة حسابات إحدى الشركات، للتأكد من صحتها ودقتها وخلوها من أي تلاعب. وقد قسم المراجعين الماليين إلى قسمين، وأخبر القسم الأول أن الشركة هي من رشحتهم للقيام بالعمل. أما القسم الثاني فقد أخبرهم بأن شركة أخرى خارجية قد كلفتهم بأداء هذه المهمة قبل أن تقوم بعقد صفقة مع الشركة المقصودة. وإذا افترضنا الحياد التام، فإنه سيكون من المتوقع أن تتطابق نتيجة تقييم القسمين، إلا أن الأمر لم يكن كذلك. فحين جمع بازرمان متوسط التقييم الذي حصل عليه من القسمين، وجد أن تقييم القسم الأول يقول إن حسابات الشركة دقيقة ومطابقة للمعايير، بدرجة أعلى بنسبة 30% من تقييم القسم الثاني.

2

العامل الثاني هو وجود ارتباط غير مناسب. فنحن نصبح مرتبطين بالبشر وبالأماكن والأشياء، وهذه الروابط يمكن أن تؤثر على الأحكام التي نكونها حول الموقف الذي نواجهه، وحول الفعل المناسب اتخاذه. ومثال ذلك هو التردد الذي يشعر به المدير التنفيذي حين يواجه قرار بيع جزء أو قسم من شركته عمل فيه في بدايات حياته المهنية وارتبط به.

3

أما العامل الأخير فهو وجود ذكريات مضلِلة، من حيث كونها تبدو متصلة وقابلة للمقارنة مع الموقف الحالي، فتقود تفكيرنا نحو اتجاه خاطئ. لأنها تدفعنا إلى التغاضي عن الاختلافات الفارقة بين الموقف الحالي والموقف الذي نقيس عليه. الأمر الذي يجعلنا نتخذ قرارات في غير أماكنها. ويزيد من تعقيد الأمر، وجود ارتباطات عاطفية متعلقة بهذه الخبرة السابقة. فكلما كانت قراراتنا في الموقف السابق ناجحة، زاد احتمال اندفاعنا لتكرارها مرة أخرى، وبالتالي تغاضينا عن الفروق الكبيرة بين الموقفين.

«رنتوكل» هي شركة بريطانية لتأمين سلامة المنازل والمنشآت، وقد كانت سياسة مديرها التنفيذي كليف طومسون تقوم على ضم مجموعة من الشركات الناجحة الأصغر حجماً، ودمجها في شركته الأم. وقد حققت هذه السياسة الكثير من الفائدة والربح للشركة، التي كانت تمارس قدراً كبيراً من الضبط والتحكم على الشركات التي تضمها إليها. ولكن بعد فترة من النجاح، أقدم طومسون على قرار خاطئ بضم شركة كبيرة هي «سيكيوريجارد» إلى كيان شركته الآخذ في النمو. وبعد فترة قصيرة أثبتت التجربة خطأ هذا القرار. لأن الشركة الكبيرة لم يكن من السهل دمجها كما كان الحال مع الشركات الأصغر، واهتزت أقدام رنتوكل في السوق كثيراً، وخسرت خسائر كبيرة لم تستطع بعدها أن تتعافى منها. فحين توالت صفقات طومسون الناجحة، افترض أنه سيكون ناجحاً في كل صفقة جديدة مشابهة. وكان من الصعب أن يتوقف ليسأل عن صحة القرار الجديد بعمق، أو أن يلتقط الخطأ في القياس الذي كان واضحاً للجميع ماعداه.

نقاط الحراسة في طريق الخطأ

بناء على ما توصلوا إليه من خلال دراساتهم حول الموضوع، يقترح كامبل وواياتهيد وفينكلستين، اتباع استراتيجية من ثلاثة أجزاء، تكون بمثابة إقامة نقاط للحراسة ضد القرارات الخاطئة. النقطة الأولى هي الحصول على معلومات وخبرات وتحليلات جديدة، والثانية هي طرح القرار للنقاش، أما النقطة الثالثة فهي عملية المراقبة والمتابعة.




أسباب أخطاء الأذكياء: الاهتمامات الشخصية والذكريات المضللة والارتباطات غير المناسبة

في كثير من الأحيان، لا يكون صانع القرار ملماً بجميع جوانب الأمر. فيبني قراره على القليل من المعلومات المتاح بين يديه. الأمر الذي يُعد خطوة أولى أكيدة لاتخاذ القرار الخطأ! فحتى لو كانت المعلومات المتاحة بين يديه دقيقة وصائبة، إلا أن نقصها وإغفالها لجوانب مهمة، يجعلها بخطورة المعلومات الخاطئة إن لم يكن أكثر.

في حالة ستيف راسل المدير التنفيذي لشركة «بووتس»، كان من الممكن أن يجعله تعرضه لمعلومات أو خبرات جديدة، يعيد التفكير في قراره السابق. كان راسل يحتاج إلى مزيد من الخبرات الشخصية في مجال الرعاية الصحية الذي ينوي دخوله مع شركته لأول مرة. وكان يحتاج إلى رأي مستشار مختص يمده بالمعلومات اللازمة حول حجم السوق والمنافسة، ومدى الربحية المتوقع من الدخول في القطاع الجديد. كما كان بحاجة إلى أن يعرف ما هي المتطلبات الجديدة للنجاح في هذا القطاع، ومدى قدرة شركته على توفيرها، سواء من جانب الموارد المادية، أو من جانب تأهيل موظفيه وتدريبهم على أداء مهام جديدة.

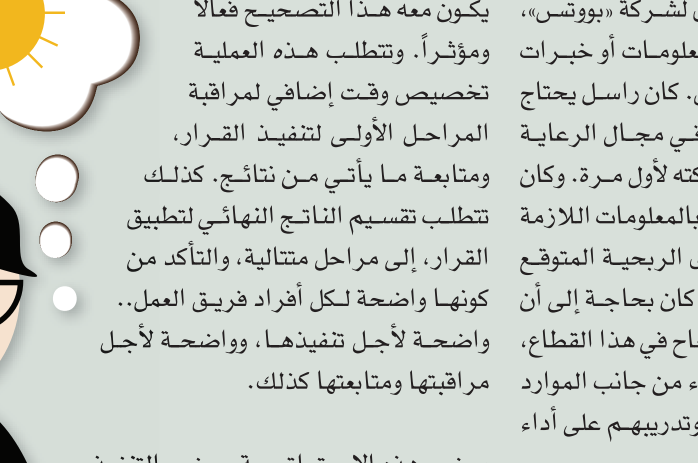
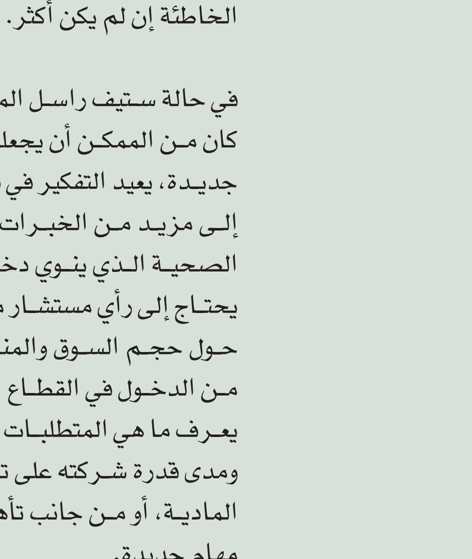
300 مليون دولار ثمن الذوق الشخصي!

أما طرح القرار على النقاش، فهو من العمليات المهمة في اكتشاف أي انحياز مؤثر في عملية اتخاذه. فوجهات النظر المختلفة، تؤكد إن اجتمعت، أو اجتمعت أغلبيتها، على صحة القرار. أما إذا كان القرار غير صحيح بدرجة كبيرة، فإن النقاش حوله سيسلط الضوء على نقاط ضعفه، ويفسح المجال لتعديله أو استبدال خيار أفضل به.

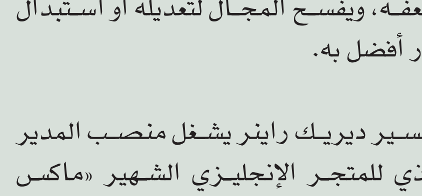


كان السير ديريك راينر يشغل منصب المدير التنفيذي للمتجر الإنجليزي الشهير «ماركس وسبنسر» في الثمانينيات. وعلى الرغم من نجاحه الكبير خلال الفترة الأولى من توليه منصبه، إلا أنه ارتكب خطأ كبيراً في شراء شركة أمريكية هي «بروكس براذرز»، حيث عرض مبلغاً قدره 750 مليون دولار، على الرغم من أن التقارير المالية أكدت بعد ذلك أن الصفقة لم تكن تساوي أكثر من 450 مليون دولار. الأمر الذي أدى إلى انخفاض حاد في أسهم «ماركس وسبنسر». يقول المحللون إن راينر كان يمكنه أن يتفادى هذه الخسارة الكبيرة لو أنه طرح القرار للنقاش مع كبار مسؤولي الشركة، واستمع جيداً لما يرون عليه القيمة الحقيقية للصفقة. لأن رأي راينر كان متحيزاً بوضوح في تقييمه للشركة الأمريكية، التي كانت ملابسها مصممة للرجال في عمره وعلى ذوقه الخاص.

وآخر نقاط الحراسة هي عملية المراقبة والمتابعة. فإذا تم اتخاذ القرار الخطأ، سيكون من المهم اكتشاف ذلك مبكراً، لتصحيح المسار في وقت يكون معه هذا التصحيح فعالاً ومؤثراً. وتتطلب هذه العملية تخصيص وقت إضافي لمراقبة المراحل الأولى لتنفيذ القرار، ومتابعة ما يأتي من نتائج. كذلك تتطلب تقسيم الناتج النهائي لتطبيق القرار، إلى مراحل متتالية، والتأكد من كونها واضحة لكل أفراد فريق العمل.. واضحة لأجل تنفيذها، وواضحة لأجل مراقبتها ومتابعتها كذلك.

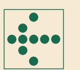
بوضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ، تستطيع الشركات أن تحد من نسبة الخطأ في قراراتها المهمة، وتحد كذلك من التأثير السلبي للخطأ في حالة وقوعه. فاتخاذ القرارات الجيدة والصحيحة، لا يتطلب فقط المعلومات والخبرة والحكم السليم، ولكنه يتطلب أيضاً اتخاذ خطوات عملية لتصحيح المسارات الخاطئة للتفكير، والتي تقود بالضرورة إلى اتخاذ قرارات خاطئة. وإذا كان تجنب كل القرارات الخاطئة هو أمر مستحيل على أرض الواقع، إلا أن اتباع خطوات عملية لتقليل نسبة حدوثها، قد يكون هو أكثر القرارات صواباً.



«تنقيح..» غيِّر الطريقة التي تعمل بها للأبد



لكثرة ما كُتبَ من دراسات عن حُسن الإدارة، بات كل من يبدأ عملاً تجارياً خاصاً للمرة الأولى يَجد نفسه مقيداً بمجموعة مفاهيم وقوانين أثبتت نجاحها على مرّ السنين. ولكن، أمَا مِن طريق آخر للنجاح غير الذي سلكه قبلنا الآخرون؟
جايسون فريد ودايفيد هانسون بريان في كتابهما «تنقيح، غيِّر الطريقة التي تعمل بها إلى الأبد»، أن هناك طرقاً قد تكون أفضل للوصول إلى إدارة ناجحة وعمل تجاري مربح.
اللافت في الكتاب ليس طرحه فحسب، بل الظروف المحيطة به التي تستحق الدراسة بوصفها نموذجاً لحالة تحول الشركات من منظمات إدارية لا تثير اهتمام الجمهور، إلى الشركة-النجم التي تحاط بالجماهير المتعطشين لتلقي أي منتج تطرحه في الأسواق وإن كان لا علاقة مباشرة له بمنتجاتها الأصلية.



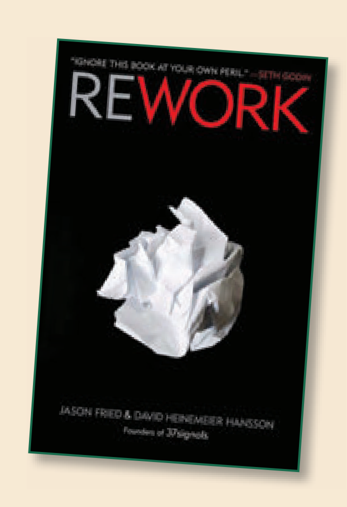
ما قبل الكتاب

«سيجنالز 37» هي شركة صغيرة تكونت في العام 1999م في شيكاغو بأمريكا لتقديم استشارات تتعلق بالتصميم الإلكتروني (المواقع الإلكترونية وما شابه ذلك على شبكة الإنترنت). وفي العام 2003م قام فريق العمل بتصميم برنامج داخلي لتسهيل التعاون بين موظفي الشركة الذين كانوا موزعين على مدن مختلفة في الولايات المتحدة. وعندما اطلع عملاء الشركة على هذا البرنامج الذي سمته الشركة «بايس كامب»، وجدوه مفيداً لأعمالهم أيضاً. وطالبوا الشركة بتوفيره لهم. وسرعان ما تحوَّل اتجاه «سيجنالز 37» من التصميم الإلكتروني إلى تقديم حلول إلكترونية لمسائل تنظيم العمل وإدارة المشاريع وعلاقات العملاء وغيرها، وتجاوز نجاحها في هذا المجال كل التوقعات. ومع هذا، ظلت الشركة كما بدأت، بعدد محدود جداً من الموظفين مقارنةً بأرباحها وفاعليتها (لا يزيد على العشرين حتى اليوم)، وتمارس القواعد والمفاهيم نفسها التي بدأت بها في نهاية التسعينيات، رغم أن برامجها تخدم الملايين من العملاء.

من ضمن ما بدأت به الشركة كان مدونةً إلكترونية (وهي موقع إلكتروني يسمح للمشاركين فيه بكتابة آرائهم ومناقشة الموضوعات التي تهمهم) يكتب فيها الشركاء في الشركة بالإضافة إلى الموظفين آراءهم كما تخبرنا المدونة في التصميم والثقافة والإدارة والأعمال والبساطة أيضاً. ورويداً رويداً اكتسبت المدونة الإلكترونية حضوراً لا يستهان به ضمن المدونات، وتجاوز عدد زوارها المئة ألف زائر يومياً. وفي العام 2006م قامت الشركة بوضع كتاب مجاني (وإن كان متوافراً للبيع لمن يريد قراءته على جهاز خاص أو نسخة ورقية) على موقعها الإلكتروني، يتضمَّن فلسفتها الخاصة بشأن بناء الحلول الإلكترونية. الكتاب هو بعنوان (لنواجه الواقع: أذكى، وأسرع، وأسهل طريق لبناء تطبيق إلكتروني ناجح). ثم قبل شهور من مايو 2009م (وهو الموعد الذي ظهر فيه الكتاب) أعلنت الشركة عن عزمها طرح أول كتاب يحمل فلسفتها الإدارية في المكتبات.

في انتظار الكتاب

كان جمهور «سيجنالز 37» في انتظار كتاب «التنقيح»، أشبه بجمهور فنان معروف انتظروا طلته على خشبة المسرح لدهور، فلما أعلن عن موعد أدائه تخاطفت أيديهم التذاكر.. فسرعان ما حجز أغلبهم نسخته على مواقع بيع الكتب مثل أمازون وبارنز آند نوبل التي توفر مثل هذه الخدمة قبل ظهور الكتاب بأسابيع. أما الذين حصلوا على الكتاب قبل موعد إطلاقه الرسمي فقد كتب



معظمهم مراجعات له تعج بالثناء. المفارقة في هذه الحالة أن القوة الدافعة التي صعدت بالكتاب ليصبح واحداً من الكتب الأكثر مبيعاً حتى قبل أن يصدر، تمثلت في المعجبين بالشركة، ليس فقط من قرَّاء مدونتها بل أيضاً ممن استخدموا منتجاتها وقدَّروا فاعليتها. إلا أن محتوى الكتاب يروق أيضاً لأولئك الذين لم يعرفوا الشركة بعد، أكثر من معجبيها الذين طال انتظارهم له! ولهذا أسباب نعرفها بمعرفتنا لمحتوى الكتاب ومقارنته بما اعتاد متابعو الشركة على معرفته من أخبارها وطريقة تفكيرها وتوقعاتهم بما سيأتي الكتاب به.

نظرة إلى محتواه

تقوم أفكار الكتاب على اختلافها وتنوع المسالك التي تطرحها على أساس واحد ألا وهو: هناك حاجة ماسة إلى إعادة صياغة الطريقة التي يظن الناس أنها الطريقة الوحيدة لممارسة العمل التجاري. الكتاب الذي نشرته في الولايات المتحدة الأمريكية دار «راندوم» الشهيرة، وتولت نشره في بريطانيا دار نشر «فيرميليون» يتناول المفاهيم الأساسية الضرورية لبدء العمل التجاري وازدهاره مثل التخطيط ودراسات الجدوى، الإنتاجية والأداء، الإعلان ودراسة الشركات المنافسة، والتوظيف وإدارة الأزمات، ويناقش الكيفية المختلفة التي يمكن للناس اتباعها أو تبنيها وتختلف تماماً عما هو متبع أو مفروض. ويعتمد الكتاب بشكل مطلق كما يذكر الكاتبان في مقدمته، على تجربتهما الشخصية في إدارة «سيجنالز 37»، ونجاح الشركة رغم مخالفتها للسائد في ممارسة هذه المفاهيم خلال السنوات العشر من عمرها. فمثلاً، وتحت قسم الإنتاجية، يصف الكاتبان الاجتماعات الإدارية بالسمّية، في تضييعها للوقت وغموض جداول أعمالها، والسهولة الشديدة التي تنحرف الأحاديث فيها عن الهدف الأساسي الذي من أجله عقدت الاجتماعات.

الكتاب الذي أتى في 273 صفحة من القطع المتوسط هو من أسهل الكتب قراءةً، وذلك لأن مصمم الكتاب استخدم المساحات البيضاء بكثرة بحيث لا تزيد في الغالب كلمات الصفحة الواحدة على 200 كلمة، كما أن الأفكار نفسها شديدة الاختصار ومكتوبة بلغة مباشرة لا تلاعب فيها. بالإضافة إلى ذلك، اعتمد الكاتبان بكثرة ربما في رأي كثير من القرَّاء أكثر من اللازم، على الرسوم الكاركاتيرية لتوضيح الفكرة. أخيراً، يمكن للقارئ المهتم بإعادة النظر، كما يوصي الكتاب، في موضوع معيَّن مثل الإنتاجية أو التوظيف، بالعودة إلى جدول المحتويات وقراءة القسم الخاص بهذا الموضوع، من دون أن يتسبب هذا في قطع سيل أفكار الكتاب أو ارتباك في فهم قارئها.

الكتاب بشكل عام مفيد وممتع للجانبين، للمعجبين بشركة «سيجنالز 37» ولمن لم يسمعوا عنها قبل قراءة هذه المراجعة، ولكن لأسباب مختلفة تماماً.

يهتم متابعو شركة «سيجنالز 37» بالحصول على الكتاب، كما يهتم جامع التحف باستكمال مجموعته لفنان معيَّن باقتنائه للوحة من أعماله ولو كانت ليست المفضلة لديه.. وذلك لأن الكتاب لم يأتِ كما توقعته جماهيره المنتظرة، فكثير من مقالاته طرحتها مدونة الشركة قبلاً. أما عن الأفكار نفسها، فهي تعزِّز من صورة الشركة المختلفة عن غيرها من شركات التكنولوجيا أو حتى الشركات الخدماتية التقليدية. لكنها في الوقت عينه لم تعتمد على أمثلة من واقع الشركة اليومي بشكل يرضي فضول وعطش الجماهير. فعلى سبيل المثال، وجدنا حديث الكتاب عن استخدام معيار (جودة الكتابة) للمفاضلة بين مرشحين تقدَّموا لشغل وظيفة ما حديثاً واقعياً ومثيراً للاهتمام، حيث يشير الكتاب إلى أن الكتابة الجيدة لا تتعلق فقط بتفوق الكاتب في استخدام الكلمات، بل هي دليل مباشر على وضوح تفكيره وقدرته على ترتيب الأفكار وبالتالي اختيار الأولويات.. وهنا يستطيع الكاتب الجيد أن يستخدم هذا الوضوح لمصلحة مهام منصبه، حتى وإن لم تكن ذات علاقة بالكتابة. لكن الكتاب لم يعط أمثلة من واقع ممارسات الشركة. بالصدفة، وأثناء عملنا على هذه المراجعة، وجدنا أن الكاتب المشارك دايفيد هانسون الذي انضم إلى الشركة عام 2003م كان قبل ذلك مبرمجاً يعمل ويدرس في الدنمارك ويتابع مدوَّنة الشركة، فلما نشرت المدوَّنة أفكار مؤسس الشركة جاسون فريد عن البرمجة أرسل هانسون له، ومن دون تخطيط أو نية مسبقة، رسالة إلكترونية مطولة معلقاً فيها على المقال. وبناءً على كتابة هانسون ووضوح أفكاره بالإضافة بالطبع لاختصاصه دعته الشركة مباشرة إلى الالتحاق بكادر موظفيها. ويوضح دعم كل واحد من مقالات الكتاب بنموذج كيف قامت «سيجنالز 37» بتطبيق ما تدعو إليه.

أما اهتمام القارئ العادي بالحصول على الكتاب فيعود ببساطة إلى أنه كتابٌ جيد، في الإعداد له وفي مادته وطرحه وأمثلته وأسلوبه. كما أنه ممتع وسهل القراءة. إضافة إلى كونه يخرج بقارئه من الإطارات المعتادة ويسمح له بالتفكير ملياً في خياراته.. بل يسمح له بمعرفة تعدد الخيارات أمامه، وليس الطريق الممهد في اتجاه واحد. كما أنه يقدِّم مجموعة من المواقف المختلفة المتنوعة، واختيار القارئ لتبني أحدها لا يلزمه بتبنيها ككل.. وبهذا يسمح له بإدارة منظمته وأعماله كما يؤمن أنه الأصح، دون أن يستسلم لضغط المفاهيم السائدة من دون تفكير أو تأمل.

هناء الأحمد

المانغروف

المانغروف شجرة يعرفها البعض، خاصة سكان المنطقتين الشرقية والغربية في المملكة، ولكن فرادة هذه الشجرة وأهميتها على المستوى البيئي تبقى مجهولة بالنسبة إلى الكثيرين. فاتن عبدالرحمن أبّا تحدثنا عن هذه الشجرة ومواصفاتها، وبعض جوانب أهميتها البيئية التي ازدادت وضوحاً بعد التسونامي الذي ضرب عدداً من البلدان الآسيوية قبل سنوات قليلة. في حين يتناول زكريا العباد الجهود التي تبذلها جهات عديدة في المملكة، ومن بينها أرامكو السعودية في الحفاظ على غابات المانغروف وتعزيزها على شواطئ الخليج العربي والبحر الأحمر.

corbis

1 حارس البر جذوره في البحر



شجرة المانغروف هي ذات جمال فريد يميزها عن باقي الأشجار. تبدو للوهلة الأولى من بعيد كشجرة خضراء عادية، ولكننا عندما ندنو منها، تفاجئنا بجذورها المتشعبة كأرجل العنكبوت، وما يفاجئنا أكثر هو أن هذه الجذور تغور في.. مياه البحر المالحة، فهي بذلك تنمو في بيئة يصعب على غيرها من النباتات أن تنمو فيها. فالملوحة الشديدة وتغير مستوى الماء في حركة المد والجزر المتواصلة، والعواصف القوية التي تهب على السواحل، تركت بصمة على تركيبة هذه الشجرة والغابات التي تضمها.

الاسم العلمي للمانغروف هو «أفيسينا-مارين»، أما الاسم الشائع فهو مركب من كلمتين: الأولى برتغالية «Mangue» وتعني الشجرة، والثانية إنجليزية «Grove» وتعني «منبت الأشجار».

وأشجار المانغروف معروفة عند العرب، أطلق عليها قديماً اسم «القرم». وقد أورد ذكرها ابن منظور في لسان العرب: «والقَرْمُ: ضرب من الشجر؛ حكاه ابن دريد، قال: ولا أدري أعربي هو أم دخيل. وقال أبو حنيفة: القُرْم، بالضم، شجر ينبت في جوف ماء البحر، وهو يشبه شجر الدُّلْب في غلظ سُوقه وبياض قشره، وورقه مثل ورق اللوز والأراك، وثمره مثل ثمر الصَّوْمَر، وماء البحر عدو كل شيء من الشجر إلا القُرْم والكَنْدَلي، فإنهما ينبتان به». ونقل عنه الجواليقي في كتابه «المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم»، وكذلك فعل الفيروز أبادي في «القاموس المحيط» عندما قال: «نبت كالدُّلب غلظاً وبياضاً ينبت في جوف البحر». وزاد عليه ابن سيده في المخصص قائلاً: «وهو مرعى للبقر والإبل تخوض إليه حتى تأكل ورقه وأطرافه الرطبة ويحتطب فيستوقد به لطيب ريحه ومنفعته».

المانغروف حول العالم

تنمو غابات المانغروف في مناطق عديدة حول العالم. وتضم إندونيسيا وأستراليا ونيجيريا والمكسيك حوالي 50% من إجمالي مناطق المانغروف في العالم. كما يوجد في بنغلاديش أكبر غابة للمانغروف في العالم وتعرف باسم غابات «ساندربانز».

ومن بين أكثر من ثمانين نوعاً من أشجار المانغروف حول العالم، فإن الوطن العربي تحديداً يحتضن أربعة أنواع منها، تتوزع ما بين ساحل البحر الأحمر الغربي (مصر والسودان) والساحل الشرقي (اليمن والمملكة العربية السعودية)، وانتهاءً بخليج العقبة (الأردن) والخليج العربي. والأكثر انتشاراً منه نوعان: أولهما يسمى بـ «القرم» أو «الشورى» (أفيسينيا مارينا)، وثانيهما بـ «القندل» (ريزوفور ماكروناتا) وينتشر في جزر فرسان. ويبلغ إجمالي مساحات غابات المانغروف في المملكة نحو 204 كيلومترات مربعة، أغلبها يغطي سواحل البحر الأحمر، وجزيرة تاروت في المنطقة الشرقية.

خصائص المانغروف وأهميته

تنمو أشجار المانغروف في المناطق الاستوائية المدارية وشبه الاستوائية، وتحديداً في البيئات الساحلية المالحة أو قليلة الملوحة، وقليلة التعرض نسبياً للأمواج العنيفة، كالخلجان الصغيرة المنتهية إلى السواحل كونها تساعد في كسر قوة الأمواج المدمرة للنباتات الصغيرة، والبحيرات ومصبات الأنهار، أو المناطق الضحلة في الجزر القريبة من السواحل، وتزرع عند الحدود الفاصلة ما بين البحر واليابسة، وتحتاج مستنقعات مائية غنية بالمواد العضوية لتنمو بشكل صحي. إذ يمكنها العيش كذلك في الرمال الخشنة قليلة المسام، ولا يضيرها أن تكون هذه الرمال



شجيرات المانغروف المزروعة حديثاً

مكسوة بالطين. كما أنها تنمو من غير مشكلات في بعض المناطق التي يقل تركيز الملوحة فيها.

والمانغروف شجرة دائمة الخضرة، يتراوح طولها ما بين 3 و5 أمتار، وفي بعض الحالات يصل طولها إلى عشرين متراً. أوراقها رقيقة متقابلة الشكل هودجية، أو سميكة خضراء اللون مدهامَّة، متصالبة الشكل، ينتشر على سطحها العديد من الغدد الملحية التي تساعد النبتة على إفراز الأملاح الزائدة عن حاجتها وترشيحها، فتقاوم بذلك الملوحة الزائدة. وللنبتة قدرة على تحمل درجات الحرارة والرطوبة العالية ودورات المد والجزر، وحين تزهر فإن لأزهارها لوناً برتقالياً زاهياً أو أصفر محمراً رائحته مميزة جداً. وأما ثمارها فإما قلبية الشكل أو مخروطة، يتراوح طولها ما بين 0.5 و2.5 سنتيمتر. ويلاحظ أن هناك العديد من الأشجار التي تنمو تحت تأثير الظروف نفسها، وتشبه في شكلها شجرة المانغروف وتسمى خطأ بذلك، ولكن التشابه الفيزيولوجي لا يعني أنهما تنتميان للجنس نفسه.

تتميز شجيرات المانغروف بأنها تنمو كمجموعة صغيرة ممتدة من الغابات الصغيرة، تشبه في شكلها شجرة كبيرة متشابكة. ويمكن العثور على هذه الغابات في البيئات الساحلية حيث الرواسب الدقيقة الناعمة ذات المحتوى العضوي، والمتشكلة في المناطق المحمية من حركة الأمواج وديناميكية المد والجزر، بحيث تترسب من دون أن تنجرف بعيداً.

وهناك ثلاثة أنواع من المانغروف وهي: المانغروف الأحمر والمانغروف الأبيض وأخيراً المانغروف الأسود. ويسهل التمييز بين هذه الأنواع لوجود اختلافات بينها. فبعض


shutterstock

الطميَ الذي يساعد في نمو الطحالب ذات القيمة الغذائية العالية، يُعد البيئة المثالية لنمو أشجار المانغروف

أصناف المانغروف هي أكثر مقاومة للأملاح من الأصناف الأخرى، كما أن كل صنف يتميز بآلية خاصة تمكنه من التخلص من الأملاح الزائدة. فالمانغروف الأحمر يتخلص من الأملاح عبر جذوره، كما أنه يقوم بتخزين الأملاح في الأوراق الهرمة الآيلة للسقوط. أما المانغروف الأبيض فإنه يقوم بطرح الملح على شكل بلورات بواسطة غدتين ملحيتين موجودتين في قاعدة كل ورقة، وقد سمي المانغروف الأبيض بهذا الاسم نسبة إلى بلورات الأملاح التي تتراكم على أوراقه. في حين يتميز المانغروف الأسود بلحاء خشبي ذي لون بني غامق مائل إلى الأسود، ومن هنا جاءت التسمية. فالمانغروف الأسود يمكن التعرف إليه بسهولة عن طريق الأنابيب العديدة التي تشبه أقلام الرصاص والتي تستخدم بغرض التنفس، وتسمى (pneumatophores)، وهي تنمو عمودياً من الوحل إلى الأعلى بحيث تكون بمستوى أعلى من مستوى المياه.

كيف تكيفت مع بيئتها؟

لأشجار المانغروف جذور هوائية متوسطة الطول، تنمو من «السوق الريزومية» المغمورة بالماء تحت سطح الأرض، إلى ما فوق سطح الماء. فحاجة أشجار المانغروف إلى بيئة بحرية مالحة قليلة الأكسجين لتنمو أوجد لديها هذه الجذور التنفسية الهوائية النامية من أسفل إلى الأعلى بعكس ما هو متعارف عليه لنمو جذور النباتات الأخرى. وظهور هذه الجذور فوق سطح الماء هدفه أن تتمكن من توفير الأكسجين اللازم للعمليات الحيوية كافة. بعض الأنواع تنمو جذوره على فروع النبات وتتدلى في الهواء. وعن طريق خاصية الجذور المتحورة تتمكن هذه النباتات من العيش في الرمال الخشنة قليلة المسام المكسوة بالطين. والتصاق هذه الجذور بالطمي يساعد على تهدئة التيارات المائية المتدفقة، مما يوفر بيئة أنسب لنمو النباتات وتكاثرها.

وبسبب ندرة المياه العذبة في التربة المالحة الناتجة عن المد والجزر، تقوم أشجار المانغروف بتقليل كمية المياه التي تفقدها من خلال أوراقها، وذلك بالحد من فتح المسام على سطح الورقة (التي يتم من خلالها تبادل غاز ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء خلال عملية التمثيل الضوئي). ويختلف أيضاً اتجاه أوراقها لتجنب شمس الظهيرة القاسية وتقليل تبخر الماء من خلال الأوراق.

أما المشكلة الأكبر التي تواجه غابات المانغروف فهي امتصاص المغذيات. فتربتها مغمورة دائماً بالماء، وتعاني من قلة الأكسجين. فمن خلال جذورها، تمتص المواد العضوية من بيئتها وتربتها البحرية الطينية، وتمتنع عن امتصاص الملح الذائب بشكل فائض، وتخرج منها الملح الممتص الزائد على شكل بلورات تتشكل على سطح الورقة. والجدير بالذكر أن تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون (CO_2) الناتج عن العمليات الحيوية التي تقوم بها البكتيريا اللاهوائية أثناء تحلل النباتات الميتة يجعل التربة ذات رائحة تشبه العفن لا يمكن احتمالها. لذا، فإن تركيبة جذور أشجار المانغروف تسمح بامتصاص الغازات مباشرة من الغلاف الجوي، والمواد المغذية الأخرى مثل الحديد من التربة. ويتم تخزين الغازات داخل الجذور، ومن ثم معالجتها حتى عندما تكون الجذور مغمورة بالماء أثناء المد.

وتظل الثمار والبذور متصلة بالشجرة الأم، تنمو وهي متصلة بها. فإذا نضجت (في أغسطس وسبتمبر غالباً) تسقط على الشاطئ وتنفصل عن الشجرة الأم. لتنمو بعد ذلك من جديد مكونة شجرة جديدة. وتنغمس الجذور الأولى لهذه البذور في التربة بحيث تمنعها من الانجراف بعيداً وتجنبها عوامل المد والجزر.


shutterstock

في مشاتل الإكثار

دورها البيئي

لأشجار المانغروف دور مهم جداً في المحافظة على النظام البيئي متزناً ومتماسكاً، فتقوم جذورها بحماية الشواطئ من الانجراف والتآكل، لأنها تمتد في التربة حتى عمق يصل إلى المترين.

> تجلَّت أهمية هذه الشجرة في صد الأمواج خلال كارثة التسونامي الذي ضرب دول المحيط الهندي قبل سنوات

وتوفِّر هذه الأشجار بمختلف أنواعها الحماية للعديد من الطيور المهاجرة، التي تبني أعشاشها فوقها وتترك بيضها بأمان هناك. كما أنها تشكل بالنسبة إلى العديد من المخلوقات البحرية والبرمائية بيئة مناسبة للعيش وللتكاثر كالأسماك والقشريات والجمبري وسرطان البحر والسلمون. وتُعد زيادة على ذلك مصدراً رئيساً لغذاء العديد من المخلوقات البحرية، إذ توفر «الطمي» والعناصر العضوية الأخرى للشعاب المرجانية، فالطمي الذي يساعد في نمو الطحالب هو ذو قيمة غذائية عالية ويكون مفككاً عادة، وجسيماته أكبر من جزيئات الطين، ويحتوي على العناصر الرئيسة اللازمة لتغذية العديد من النباتات والمزروعات، ويزيد من خصوبة التربة. ولكن تراكمه في مكان ما خطأ قد يؤدي إلى حجب الضوء اللازم الذي تحتاجه الكائنات للقيام بالعمليات الحيوية بسهولة ويسر، مما يضعفها وينهكها أو يتسبب بموتها في بعض الحالات. أما أوراق شجرة المانغروف فغنية بالبروتين العضوي. ولذلك، فهي الغذاء الأنسب للكثير من المخلوقات البرية النباتية، ولكن هذه النقطة بالذات تحولت إلى أحد الأسباب التي أسهمت بشكل كبير في تناقص عدد أشجار المانغروف، وبشكل متواصل.

وتعمل عروق الشجرة المتشابكة كمصفاة تجمع المواد الملوثة وتمنعها من الانتقال إلى البحر. قد يضرها هذا ولكنه يشكل فائدة أساسية في إبقاء المياه نقية. كما وأن هذه النباتات مفيدة للإنسان نفسه، إذ يستخدم مستخلص أوراقها في علاج أمراض اللثة وأمراض الكبد، وهي مصدر طبي لبعض الهرمونات المهمة بسبب وجود مركب «كيومارين» في أجزائها، وهو ما يدخل في صناعة العديد من العقاقير الطبية.

shutterstock

من ناحية أخرى، فإن تواجدها عند حدود اليابسة والبحر يحد من انجراف التربة ويقلل من حالات تكوين الكثبان الرملية.

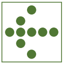
تتمتع أشجار المانغروف بمناظر ساحرة وخلاَّبة، ويمكن اعتبارها مصدر جذب سياحي ممتاز. ولكنها باتت من الأشجار النادرة الآن، لتعريضها لعوامل سلبية كثيرة أدت إلى الحد من انتشارها، وعرَّضت الكثير منها للجفاف التام، والسكوت على ذلك يعني انقراضها. فهناك عوامل بيئية ليس للإنسان يد فيها، كتعرض الأشجار خلال السنتين الأوليين إلى ما يعوق نموها، كالعواصف الرملية والأمواج البحرية الشديدة التي قد تغمر المناطق التي نبتت فيها هذه الأشجار، لأنها تحتاج إلى رعاية خلال هذين العامين قبل أن تصير قادرة على الثبات في وجه التغيرات البيئية المختلفة وحدها. ويمكن القول أن حاجتها إلى سياج يوضع حولها لمنع انجرافها أو موتها في هذه المرحلة يُعد من الحلول الضرورية والمطالب الرئيسة التي تحميها وتقيها من المخاطر. ومما يهدد حياة الشجرة بعد نموها هو تراكم الطحالب الخضراء والمخلفات العالقة عليها، والتي تحول ما بينها وبين إتمام عملية البناء الضوئي. كما أن ارتفاع منسوب البحر بسبب ارتفاع حرارة الأرض المتزايدة يهدد وجود هذه الأشجار بشكل ملحوظ.

المانغروف أقوى من تسونامي

غداة وقوع كارثة التسونامي الشهير، الذي ضرب عدداً من دول المحيط الهندي قبل سنوات، أعلن الباحثون الذين درسوا هذه الكارثة وأسباب عنفها في بعض المواضع أكثر من غيرها أن أشجار المانغروف قادرة على مقاومة أمواج التسونامي وتخفيف اندفاعها نحو اليابسة.

وأشارت الأبحاث إلى أن أشجار المانغروف تستطيع أن تستوعب ما بين 70 إلى 90% من قوة الأمواج. لذا قام الاتحاد الدولي لحماية البيئة (IUCN) بتسليط الضوء على الدور الذي لعبته أشجار المانغروف الاستوائية في حماية الشواطئ من خلال دراسة هذه الظاهرة في اثنتين من القرى الساحلية في جنوب سري لانكا. ومن هذه الدلائل التي أشار إليها الاتحاد أن شخصين فقط لقيا حتفهما في قرية «كابوهينوالا» في سري لانكا، التي تحيط بها 200 هكتار من غابات المانغروف الكثيفة، في حين أن قرية أخرى تدعى «واندوروبا» ومحاطة بغابات مانغروف متدهورة عانت من خسائر كبيرة قدرت بحوالي 5,000 إلى 6,000 قتيل. وعلى الرغم من عدم وجود دراسات علمية قاطعة تشرح كيف تتمكن أشجار المانغروف من مقاومة المد الزلزالي، فإن الأبحاث السابقة أسهمت في تعزيز المشاريع الرامية إلى حماية غابات المانغروف في مختلف دول العالم.

2 جهود المملكة في المحافظة على المانغروف



بدأت محاولات إنقاذ شجرة المانغروف في المملكة منذ وقت مبكر. ففي العام 1982م كانت أول عملية استزراع لنبات المانغروف على ساحل الخليج العربي قد تمت من قِبَل أرامكو السعودية في منطقة الخفجي.

وفي وقت لاحق، بدأ التعاون بين أرامكو السعودية والهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها، من خلال إنشاء عدد من المشاتل داخل المسيجات في عام 1995م. وقامت الهيئة بعدها بزراعة عدد من المواقع على ساحل البحر الأحمر والخليج العربي في المواقع المتضررة بيئياً.

ومنذ بداية التسعينيات، وبالتعاون بين أرامكو السعودية ومركز البحوث في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، جرت محاولات عديدة لاستزراع المانغروف في منطقة أبو علي الساحلية. كما قضى مشروع التعاون بين الهيئة الوطنية ووزارة الزراعة بإنشاء عدد من المشاتل على ساحل البحر الأحمر والخليج العربي. وخلال تلك المحاولات لاستزراع المانغروف على شواطئ المملكة استخدمت عدد من الطرق المتنوعة، منها على سبيل المثال:

الزراعة المباشرة: ويقصد بها وضع البذرة على الشاطئ مباشرة في منطقة المد والجزر، وهي أبسط عمليات الاستزراع، ولكن نسبة الحياة فيها لا تتعدى 10%، بسبب جرف الأمواج للبذور. ومن هنا كان من الضروري الاستعانة بإنشاء المشاتل.

نقل البادرات من موقع إلى آخر: تواجه بعض بادرات المانغروف الموت بعد نحو ثلاثة أشهر من نموها، بسبب عدم وجود الطبقة الرملية كافية السماكة في كثير من المواقع. ولذا يتم نقلها إلى مواقع أخرى تحتاج إلى تكثيف الاستزراع، كما حدث في جزيرة السقيد في فرسان. وتعتبر هذه الطريقة من أفضل الطرق، ونسبة نجاحها عالية جداً ولا تحتاج إلى جهد كبير.

أبرز مبادرات أرامكو السعودية

- في العام 1984م قامت أرامكو بالتعاون مع جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بوضع برنامج لدراسة توزيع المانغروف ومعدل نموه وإنتاجيته في منطقة خليج تاروت وما حولها بهدف تحديد نطاق انتشار هذه الأشجار في تلك المنطقة.
- في العام 1991م بدأت أولى جهود زراعة المانغروف تؤتي ثمارها، وكان ذلك استمراراً للدراسة المشار إليها آنفاً، وقد حقق البرنامج نجاحاً لافتاً في منطقة أبو علي، فمن خلال 100 شتلة تم زراعتها في هذه المنطقة شوهدت آلاف أشجار المانغروف بعد سنوات عشر من وقت زراعتها.
- حملات زراعة المانغروف في خليج تاروت-رأس تنورة للأعوام (1996، 1999، 2003، و2008م). وكان الهدف الرئيس من هذه الحملات المساعدة على استعادة تجمعات المانغروف في الخليج بسبب كثافة أوجه النشاط التطويرية الساحلية، إلى جانب تثقيف الأجيال المستقبلية بأهمية هذه التجمعات للبيئة البحرية. وقد نظمت الحملة الأولى عام 1996م بالتعاون مع الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها، حيث تمت زراعة أكثر من 2000 شتلة في المنطقة، وتمت حتى الآن زراعة 4000 شتلة في منطقة رأس تنورة من خلال هذه الحملات.

37 36



جانب من مشاتل المانغروف في المملكة

Saudi Aramco

مشاتل المانغروف المستحدثة في المملكة

المنطقة	العدد	التاريخ
رأس تنورة	10000	1422
الخفجي	10000	1422
عنك	40000	1424
رأس أبوعلي	40000	1424
رأس أبوعلي	80000	1426
رأس أبوعلي	40000	1428
رأس أبوعلي	100000	1429

- في العام 2003م وبتوجيه من صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز تمّ تشكيل اللجنة الوطنية للمانغروف. وكان من الطبيعي أن تكون أرامكو السعودية أحد أهم الأعضاء الفاعلين في اللجنة.

- بوصفها عضواً في اللجنة، شاركت أرامكو السعودية ممثلة بإدارة حماية البيئة في أعمال مسح المانغروف التي أجريت خلال عام 2004م على امتداد ساحل البحر الأحمر. وكذلك على امتداد ساحل منطقة جازان بأكمله. وقد أجري هذا المسح بغرض توثيق توزيعات المانغروف التي تعرضت للأذى وتحديد مصادر ذلك الأذى.

> بدأت جهود أرامكو السعودية لإنقاذ المانغروف وإكثاره عام 1984م وازدادت زخماً في التسعينيات

- في عام 2005م حددت منطقة شمال تاروت، بين كل من رحيمة وصفوى، منطقة محمية للمانغروف، وذلك بهدف دراسة وتقييم أية أنشطة في تلك المنطقة، والتأكد من عدم تأثيرها سلباً على البيئة هناك.


Saudi Aramco
Saudi Aramco

متطوعون سعوديون يزرعون المانغروف

ودور لوزارة الزراعة

وكان لوزارة الزراعة جهد كبير في متابعة أعمال المخالفات، وكذلك أعمال التجريف والحد من الردم ورمي الأنقاض في البيئة الساحلية. وبسبب الزيادة في تعرض مناطق المانغروف إلى الدفن والتجريف، وخوفاً من تعرض تلك النباتات إلى الانقراض، قامت وزارة الزراعة بالتخطيط والعمل على تنفيذ مشاريع إعادة تأهيل بعض المناطق، والبحث عن مناطق جديدة مناسبة لأعمال الاستزراع وتأهيلها.

كما قامت الوزارة بمسح مناطق تواجد نباتات المانغروف في السواحل، ومسح وتحديد المناطق القابلة للتأهيل، ودراسة طبيعة المانغروف والاطلاع على الدراسات السابقة في هذا المجال، وإنشاء مشاتل للمانغروف لتوفير مصدر للشتلات.

كما عملت الوزارة على إعادة الزراعة في المناطق المتضررة في الأوقات المناسبة، إضافة إلى الزراعة في المناطق القابلة للتأهيل والبعيدة عن النشاط السكاني والصناعي.

توصيات ندوة يوم الأرض

استمراراً للجهود التي تبذلها الجهات المهتمة بالبيئة في المملكة مثل أرامكو السعودية وجامعة الملك فهد للبترول والمعادن ووزارة الزراعة والهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية، وتحت عنوان (المانغروف والثروات البحرية الساحلية)، عقدت في فندق «مريديان» الخبر في أبريل 2010م، ندوة علمية لمناسبة الذكرى الأربعين «ليوم الأرض العالمي»، شارك فيها 16 عالماً وباحثاً في محاور الندوة الثلاثة، وهي: البيئة الطبيعية لأشجار المانغروف، والتقييم البيئي للوضع الراهن للمانغروف، واستزراع أشجار المانغروف وإيجاد الحلول للعقبات في المحافظة على بيئة المانغروف.

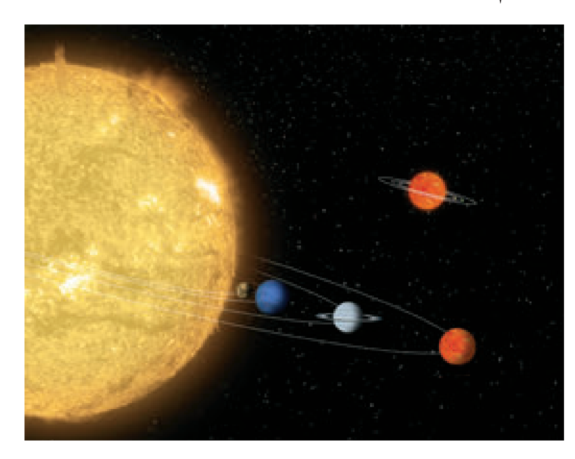
وقد خرجت الندوة بالتوصيات التالية:

- إيقاف جميع أعمال الردم والتجريف على السواحل.
- حث الجهات ذات العلاقة على وضع آلية جديدة لتحديد غرامات أكثر صرامةً، تكون رادعة لمن يقطع الأشجار، يضاف إليها تكاليف استزراع وصيانة مساحة مساوية للمنطقة المزالة لمدة 25 سنة.
- وضع برنامج رقابي لأشجار المانغروف وتسجيل إحداثياتها ومتابعتها.
- إنشاء المزيد من المشاتل المنتجة للمانغروف.
- إيقاف تصريف المياه غير المعالجة ثلاثياً في البحر.
- دعم الدراسات والأبحاث المتعلقة بالبيئة الساحلية.
- إنشاء مركز إقليمي للمعلومات خاص بالمانغروف.
- إنشاء جمعية تطوعية للمانغروف تهتم بنشر التوعية البيئية لأهمية المانغروف والمحافظة عليها.
- تحديد محميات طبيعية لحماية غابات المانغروف المتبقية، يذكر منها لأهميتها البيئية القصوى، خليج تاروت وجزيرة أبو علي.
- زيادة رقعة غابات أشجار المانغروف بالاستزراع المنتظم في الأماكن المناسبة.
- تقدير جهود جميع الجهات التي أسهمت في المحافظة على أشجار المانغروف واستزراعها، وفي مقدمتها أرامكو السعودية ووزارة الزراعة والهيئة السعودية للحياة الفطرية والرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة وجمعية الصيادين بصفوى، ودعوتها إلى مواصلة ذلك.

زاد العلوم

1 تحديد ماهية الكواكب!

عندما نطالع التطورات التي طرأت على علوم الفلك والفضاء والرحلات الفضائية، نعتقد أن تحديد ماهية الكواكب أصبحت وراء ظهرنا منذ زمن بعيد، يعود إلى تلك الحصة في الجغرافيا التي تلقيناها في المدرسة الإعدادية. ولكن الحقيقة المدهشة تبدو غير ذلك. إذ يعود العلماء اليوم ألف ميل إلى الوراء، وهم يسعون إلى وضع تحديد علمي لماهية «الكوكب» من بين تريليونات الأجرام السماوية المختلفة.



فالتحديد الذي تعلمناه في المدارس القائل إن الكوكب هو جسم ضخم ومستدير يدور حول الشمس، لم يعد كافياً ولا دقيقاً كما يفترض بالعلم أن يكون.

إن كلمة «كوكب» هي على مستوى كبير من الأهمية، ولهذا يجب أن نستخدمها في مكانها الصحيح». يقول مايك براون أستاذ علم الفلك في «جامعة كاليفورنيا للتكنولوجيا».

ففي المجموعة الشمسية وحدها، هناك ثمانية أجرام كروية تفي بالمواصفات المعتمدة حتى الآن من قبل «الاتحاد الفلكي العالمي» لكي تسمى كواكب، (غير الشمس). ولكن المشكلة هي في وجود أجسام كروية أخرى تتأرجح بين كونها كواكب أو نيازك. وإضافة إلى الاستدارة، يجب أن يكون دوران هذه الأجرام حول نفسها يولِّد جاذبية ذات مستوى معين، وإلا فلن تكون كواكب، ثم هناك مسألة الحجم وغير ذلك الكثير.. وعندما نضيف إلى جملة هذه المقاييس، الأعداد الهائلة من الأجرام السماوية المختلفة المقاييس خارج مجموعتنا الشمسية والتي تتأرجح قليلاً عند حدود مقاييس الكواكب. نفهم لماذا يسعى العلماء إلى وضع تحديد جديد للكوكب. وأكثر من ذلك، لماذا سيتطلب الأمر وقتاً حتى العام 2015م كي يتوصلوا إلى وضع هذا التحديد، حسبما يقول مارك سايكس من «معهد علم الكواكب» في جامعة أريزونا بالولايات المتحدة.

2 التغلب على النزف الدموي

في كل عام يموت نحو نصف مليون شخص نتيجة نزف دموي نجم عن حادث سير، أو إطلاق نار، أو الطعن بآلة حادة، أو أي شكل آخر من أشكال الجروح الكبيرة. ولكن جهود العلماء بدأت تعد بإمكانية تخفيض هذا العدد بشكل ملحوظ عن طريق عقاقير تؤهل الجسم إلى التعامل بشكل أفضل مع خسارته للدم والصدمة الناجمة عنها.

الجهد الأول هو الذي يبذله الدكتور إيان روبرتس في جامعة لندن، على دراسة دور عقار معروف باسم حمض «الترانيكساميك» في إبطاء النزف، من خلال منع الإنزيم المسمى «بلاسمين» من تدمير «الفيبرين» الذي يحافظ على لزوجة الدم. والنتائج الأولية لاختبار هذا العقار كشفت أنه كان فعالاً إلى درجة الإنقاذ بنسبة 15%، أي ما يعني احتمال إنقاذ نحو 75 ألف جريح نازف سنوياً.

أما العلاج الثاني الذي لا يزال قيد التجارب أيضاً، فيقوم بدراسته فريق من الأطباء في «المستشفى العام» بولاية ماساتشوستس الأمريكية. ويقضي باستخدام حمض يسمى «فولباريك» يساعد الخلايا على العيش فترة أطول بأكسجين أقل. وفي «جامعة الطب في النمسا»، اكتشف الباحث فولكر وينزل، أن الهرمون الطبيعي «خازوبريسين» أبقى بعض الحيوانات حية حتى بعد الصدمة الناجمة عن نزف دموي حاد، وذلك من خلال إبطاء دورتها الدموية، في الأطراف، وتعزيز هذه الدورة في القلب والدماغ.



3 الفولاذ الدمشقي الذي عاد غير الذي ضاع



الفولاذ الدمشقي هو اسم معدن شاع استعماله في صناعة السيوف في مدينة دمشق ما بين القرنين العاشر والسابع عشر الميلاديين. وقد حظيت هذه السيوف بشهرة كبيرة خلال الحروب الصليبية حتى حيكت حولها أساطير عديدة لا يمكن التأكد من صحتها، مثل القول إنها كانت حادة إلى درجة تكفي لشطر إنسان بضربة واحدة، وفي الوقت نفسه «لينة» إلى درجة يمكن معها لف السيف حول خصر الرجل، ليعود السيف ويأخذ شكله الأولى بمجرد إزاحة الضغط عنه. كما يتميز مظهر سطحه بخطوط متوازية ومتموجة وكأنه مؤلف من طبقات.

ولأسباب مجهولة انقرضت صناعة هذا الفولاذ في مطلع القرن السابع عشر، وبقيت تركيبته لغزاً حتى ثمانينيات القرن العشرين.

كشفت الدراسات المخبرية التي أجريت على هذا الفولاذ أنه يحتوي على «نانو أنابيب» من الكربون، لا يمكن إنتاجها ضمن الفولاذ بشكل صناعي. ولذا رجَّح البعض أن تكون هذه المعادلة موجودة أساساً في خامات الحديد الطبيعية المستخدمة في صناعة هذا الفولاذ، والتي كانت تستورد إلى دمشق من الهند وسري لانكا، والمعروف علمياً باسم «ووتز».

في ثمانينيات القرن الماضي، حاول العلماء إعادة إنتاج الفولاذ الدمشقي. ونجحوا بالفعل في إنتاج معدن مشابه جداً له، من خلال مزج خامات الحديد والزجاج والكربون، وإحمائه إلى درجة الغليان، فتنفصل العناصر الداخلية على سطح الصهارة، التي تستخرج منها حبيبات من الـ «ووتز» ذات محتوى من الكربون يصل إلى 1.5%، وتصهر على شكل سبائك زنة الواحدة منها كيلوغرامين. غير أن هذا الفولاذ يفتقر إلى العروق التي كانت تميز الفولاذ الدمشقي.

ومنذ نحو سنوات عشر، خرج من مختبرات جامعة ستانفورد فولاذ يحاول التشبه بالفولاذ الدمشقي وسوِّق حالياً على أنه كذلك. ولكن العروق فيه ناجمة عن تصنيعه من عدة طبقات رقيقة من رقائق الووتز. ويعترف صانعوه بأنهم نجحوا في تقليد «الفولاذ الدمشقي»، وليس في إعادة إنتاجه.

الفقاعات

أهم من بساطة مظهرها على سطح السوائل



على الرغم من أننا نادراً ما نلتفت إلى وجودها بحد ذاتها، فإن الفقاعات التي تتجمع لتكون الرغوة التي تعلو الكثير من السوائل، هي جزء مهم من حياتنا اليومية. نشربها، نغتسل بها، وقد نلهو قليلاً بأشكالها الغريبة.. ولكنها تدخل أيضاً في أساس صناعات عديدة، لتشكل مادة لدراسة علمية.

المهندس أمجد قاسم* يعرض ما هية هذه الفقاعات التي تجري حولها العديد من الدراسات لمعرفة أسباب تشكلها واتخاذها أحجاماً مختلفة ولماذا تلتصق أحياناً ببعضها، وتتنافر في أحيان أخرى، إضافة إلى بعض أوجه الاستفادة منها في حياتنا اليومية.

* كاتب علمي، متخصص في تكنولوجيا الصناعات الكيميائية، عضو الرابطة العربية للإعلاميين العلميين

photos of the article: shutterstock



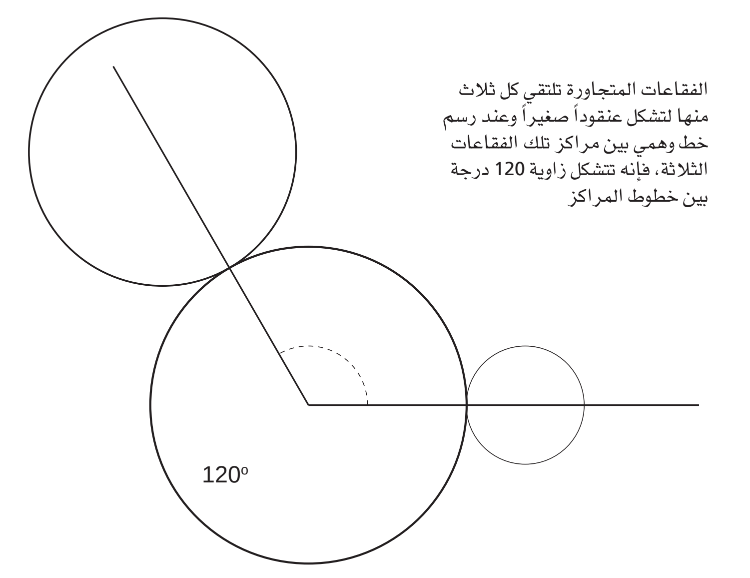
تعرف الفقاعات بأنها عبارة عن غاز يحيط به غشاء سائل أو صلب رقيق جداً، ويمكن أن نجدها في كل مكان. فهي تعلو سطح فنجان قهوتنا أو سطح مشروبنا الغازي المفضل، أو كأس الحليب وغيره.

كما أنها تتجمع لتشكِّل رغوة الصابون التي نغتسل بها أو رغوة صابون الحلاقة، كما تتشكَّل بعض المواد الغذائية على هيئة رغوة، كما هو الحال في بعض الحلويات المعدة من رغوة الشوكولاتة مثلاً، كما إن الرغوة التي هي عبارة عن مجموعة كبيرة من الفقاعات تشكل الزبد الذي يطفو فوق سطح مياه البحار ويتجمع بالقرب من الشواطئ والأماكن الضيقة، وهي أيضاً التي تجعل المياه الغازية تندفع بشدة من الزجاجات في حال رجها بعنف ثم فتحها بشكل سريع.

ويلعب التوتر السطحي دوراً أساسياً في تشكل الفقاعات، فالتوتر السطحي عبارة عن خاصية فيزيائية تجذب جزيئات السائل مع بعضها البعض. وبالتالي يتصرف سطح السائل وكأنه غشاء مشدود، مما يمكِّن الحشرات من السير فوق الماء، وكذلك تطفو الأشياء المعدنية الصغيرة والخفيفة على سطح الماء، وهذه الظاهرة تفسر لماذا تأخذ القطرات السائلة الشكل الكروي، كما توضح لماذا تتماسك جزيئات السائل وتلتصق ببعضها وكيف يتكون السطح المحدب أو المقعر للسوائل الموجودة في الأنابيب الضيقة.

وتقدم ظاهرة التوتر السطحي تفسيراً لتكون فقاعات الصابون، حيث يعمل الصابون كمنشط سطحي يقلل كثيراً من قوة التوتر السطحي، وبذلك يصبح ممكناً عمل فقاعات ذات سطوح كبيرة بكمية قليلة من السائل، وبناءً عليه فإن قوة الضغط داخل الفقاعة تساوي مقاومة الشد السطحي.

ويمكن تفسير التوتر السطحي كطاقة لكل سنتيمتر مربع من السطح، وهي طاقة ميكانيكية، تجعل السطوح تمتلك



الفقاعات المتجاورة تلتقي كل ثلاث منها لتشكل عنقوداً صغيراً وعند رسم خط وهمي بين مراكز تلك الفقاعات الثلاثة، فإنه تتشكل زاوية 120 درجة بين خطوط المراكز

أصغر مساحة ممكنة كأي نظام يحاول الوصول إلى وضع أقل طاقة حرة.

تأخذ تلك الفقاعات في العادة شكلاً كروياً دقيقاً، يتميز بأقل مساحة سطحية ممكنة، وبالتالي فهي تستهلك أقل طاقة ممكنة، وقد بينت التجارب، أن الغاز المحصور داخل كل فقاعة ينفصل عن الغاز الموجود في الفقاعات المجاورة، ولا يمكن له أن ينتقل، حيث يحول الغشاء الرقيق دون ذلك. وقد تتجاور تلك الفقاعات وتلتصق كما هو الحال في الرغوة المتشكلة فوق سطح القهوة، بينما تتباعد عن بعضها، كما هو الحال في فقاعات صابون الحلاقة.

شكل الحلوى تصوغه فقاعات التخمير

محكومة بقوانين الفيزياء

وفي الواقع، فإن تلك الفقاعات تحكمها قوانين فيزيائية صارمة ومعقدة. فبالرغم من أن شكلها كروي، وتمتلك أقل طاقة ممكنة، إلا أنها عند تجمعها وضغطها، تحاول أن تحافظ على الشكل الكروي، وفي حال زيادة الضغط الواقع عليها وللوصول إلى الحالة الأقل طاقة، فإنها تنبعج نحو الداخل ليصبح مجموع سطوحها أقل ما يمكن. وقد دلت الدراسات الرياضية التي أجريت عليها ، أن تلك الفقاعات المتجاورة تلتقي كل ثلاث منها لتشكِّل عنقوداً صغيراً وعند رسم خط وهمي بين مراكز تلك الفقاعات الثلاثة، فإنه تتشكل زاوية 120 درجة بين خطوط المراكز.

تشكل الرغوة والمحافظة على قوامها

تتكون الفقاعات عن طريق خلط سائل كالماء مع الغاز تحت ضغط أو رج. وفور إزالة ذلك الضغط أو تخلخله، يندفع الغاز إلى الخارج، ليشكِّل الفقاعات التي تتجمع لتكون الرغوة. وتختلف خواص تلك الفقاعات تبعاً لنوع الغاز المستخدم، ووجود مواد مضافة إلى الماء، ففي المشروبات الغازية يضاف غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يشكِّل فقاعات متماسكة، تدوم لفترة طويلة نسبياً، كما قد تتشكَّل تلك الفقاعات، خلال بعض التفاعلات الكيميائية المنتجة للغازات وفي عمليات التخمر الحيوية، كما طوَّر الباحثون طرقاً خاصة لتصنيع الرغوة المعدنية من الرصاص أو الألومنيوم.

إن فقاعات الرغوة، وبالرغم من كونها سريعة التحطم، إلا أنه يمكن زيادة تماسكها عن طريق خلط الصابون والجليسيرين في الماء، حيث تتشكَّل فقاعات تدوم لفترة أطول، وهذا يعود إلى أن جزيئات تلك المواد المضافة، ذات

صفتين متناقضتين، تحب الماء وتكرهه، وبالتالي يتكون رأس ينجذب إلى الماء وذيل يكره الماء ويرتفع في الهواء، بطول يبلغ أجزاء من المليون من المليمتر، وبالتالي فإن تلك الفقاعات الناتجة عن وجود الصابون في الماء، تتكون من غشاء مائي يحيط به غشاء من جزيئات الصابون مما يكسبها صفة التماسك.

تجمع الفقاعات وتفرقها

من الأمور البديهية لدينا، أن نشاهد الفقاعات الموجودة على سطح الماء قد تجمعت في عناقيد، وأنها تتجه نحو الطرف الخارجي للوعاء أو الإناء. ويبين الفحص الدقيق لهذه الفقاعات، أن الماء المحيط بتلك الفقاعات يرتفع من حولها قليلاً، وعندما تتجاور فقاعتان فإن سطح الماء بينهما يرتفع بشكل ملحوظ ، وبالتالي نجد أن الفقاعات تميل للتجاور لكي تصل إلى حالة أدنى طاقة، وهذا يفسر لماذا تتجه الفقاعات نحو المحيط الخاص بالإناء، فعن طريق ملاحظة ارتفاع السائل في الوعاء، نجد أنه عند الأطراف يزداد ارتفاع السائل حوالي ملليمتر، ووجود الفقاعات على الأطراف يقلل من ارتفاع سطح الماء، وبذلك تقل الطاقة المستنفذة، هذه العملية تحدث بشكل عكسي في الآنية المبطنة بمادة التفلون المانعة للالتصاق، حيث إن الماء الملامس للأطراف ينخفض نحو ملليمتر واحد.

ويُعد اللهو واللعب بالفقاعات من الأمور المسلية للأطفال ولصغار السن، ويتم إنتاج تلك الفقاعات عن طريق النفخ بواسطة أنبوب في ماء يحتوي على صابون وبعض الجليسرين. وسرعان ما ترتفع الفقاعات المتشكِّلة إلى أعلى وتنتشر في المكان وتأخذ أشكالاً جميلة وجذَّابة. ويعود ارتفاع تلك الفقاعات في الهواء، إلى أن الهواء الموجود فيها يكون دافئاً، وبالتالي تكون كثافته أقل من كثافة الهواء العادي المحيط بها، ولضمان إنتاج كمية كبيرة من الفقاعات ينصح باستخدام الماء المقطر أو ماء ثلج مذاب أو الماء المغلي المبرد.



جزء أليف من الحياة اليومية



رغوة الصابون والأسفنج.. كلاهما مكون من الفقاعات

باحثون يدرسون الفقاعات

استرعت الفقاعات اهتمام عدد من الباحثين، فكتب العالم الإنجليزي جارلس بويز كتاباً بعنوان «فقاقيع الصابون» وذكر فيه عدداً كبيراً من التجارب الفيزيائية حول تكون فقاعات الصابون وتشكلها، وشروط تكون تلك الفقاعات بشكل جذَّاب وجميل في الماء، كما قدَّم العالم بلاتو وصفاً دقيقاً لكيفية تشكل الفقاعات في ماء يحتوي على رغوة الصابون والجليسرين.

ويعتقد الكثيرون أن فقاقيع الصابون لا تدوم طويلاً، بل سرعان ما تنفجر بعد وقت قصير من تكونها. وهذا ليس دائماً صحيحاً، حيث يمكن المحافظة على قوام الفقاعات لمدة طويلة. فعالم الفيزياء الإنجليزي ديولر تمكَّن من إنتاج فقاقيع صابون في زجاجات خاصة وعزلها عن الغبار والتيارات الهوائية وحفظها لمدة شهر أو أكثر.

فقاعات ملوَّنة

نلاحظ أحياناً تكون الفقاعات الملوَّنة التي تتشكَّل في الماء المختلط بمواد التنظيف، وهذه الفقاعات الملوَّنة أثارت

اهتمام عالم الفيزياء الشهير اسحق نيوتن، فأجرى حولها تجارب مكثفة لمعرفة الكيفية التي تتشكَّل بها، وقد أطلق عليها نيوتن اسم «الغشاء الأسود لنيوتن» وقد قادته تجاربه تلك إلى حساب حجم جزيئات المادة المنظفة.

من استخدامات الرغوة فصل الشوائب العالقة في الركام المعدني، ورفع تركيز المعادن في خاماتها

هذه الفقاعات البديعة الشكل ذات الألوان الجذَّابة والمتغيرة، تتشكل ألوانها بسبب انعكاس موجات الضوء الساقط على جدار الفقاعة الرقيق من جوانبها المتضادة، مما يؤدي إلى حدوث حالة من التداخل بحيث تلغي بعض الموجات موجات أخرى حسب طولها، وينجم عن ذلك ظهور متدرج للألوان سرعان ما تتغير بسبب حدوث تغيرات في غشاء الماء بفعل الجاذبية، ولدى حدوث جفاف للماء تظهر البقعة السوداء التي شاهدها نيوتن وأثارت فضوله ودفعته لدراستها بشكل مكثف.



فقاعات الصابون التي شغلت نيوتن

استخدامات الفقاعات في حياتنا اليومية

تستخدم الفقاعات في العديد من مناحي حياتنا من دون أن ننتبه لذلك، فعملية غسيل الملابس مثلاً قائمة على تكون الفقاعات. فطرف يحب الماء وطرف يكره الماء، وبالتالي فإنها تعمل على إزالة الأوساخ العالقة في الملابس. وبالمثل، فإن الفقاعات تستخدم في عمليات التنظيف المختلفة التي يعتمد مقدار تكونها على عدة عوامل، منها نوع مادة التنظيف ووجود شوائب وأملاح ذائبة في الماء (عسرة الماء) ودرجة الحرارة، كما تستعمل أنواع خاصة من الرغوة لتنظيف بعض المواد والأدوات الحساسة للماء.

وتستخدم الرغوة، التي هي عبارة عن عدد كبير من الفقاقيع الصغيرة، أيضاً، في العديد من العمليات الصناعية والكيميائية والتعدينية، حيث تستخدم في عمليات فصل الشوائب العالقة في الركام المعدني، وفي عمليات رفع تركيز المعادن في خاماتها، وتعرف هذه العملية بالتعويم (Flotation)، حيث تعمل الرغوة أو الزبد على فصل المعادن والأملاح المعدنية العالقة في السوائل عن طريق التصاقها بفقاعات الغاز، وبالتالي ترتفع المادة الصلبة التي التصقت بفقاعات الغاز دون غيرها إلى الأعلى، وتُعد عملية التعويم من عمليات الفصل الفيزيائية الرخيصة والمستخدمة على نطاق واسع لفصل الأملاح المعدنية المتشابهة كيميائياً، وفي عمليات رفع تركيز الخامات المعدنية من أجل صهرها وتنقيتها.

وتجري عملية التعويم في خلايا خاصة، فيتم توليد فقاعات هوائية فيها تتوزع وتنتشر خلال المخلوط المعلق لتكون الرغوة التي ترتفع إلى أعلى داخل تلك الخلايا بسبب قلة كثافتها، فالحبيبات الصلبة القابلة للابتلال (Wettability) أو التي تألف الماء (Hydrophilic) تبقى معلقة في الماء، بينما الحبيبات الصلبة التي لا تألف الماء (Hydrophobic) أو التي لا تبتل بسهولة، تلتصق بفقاعات الهواء وترتفع إلى السطح ويتم فصلها. ومن أجل إنجاح هذه العملية تتم إضافة بعض العوامل الكيميائية التي تحافظ على تماسك الرغوة لتفادي انفجار الفقاعات أثناء إجراء عملية التعويم.

وقد تم اكتشاف طريقة التعويم بالصدفة. ففي أواخر القرن التاسع عشر لاحظت المعلمة الأمريكية كاري ايفيرسون أثناء غسلها لأكياس ملوثة بالدهن استعملت لحفظ مادة بيريت النحاس، التصاق دقائق بيريت النحاس على سطح رغوة الصابون الطافية فوق ماء التنظيف، فاسترعت هذه الظاهرة انتباهها وبدأت بدراستها بدقة، لتطور لاحقاً طريقة التعويم المستخدمة حالياً على نطاق واسع لفصل وتركيز الخامات المعدنية.

وإضافة إلى ما تقدم، تستخدم الرغوة في بعض حالات الحوادث الكيميائية أو النووية، لمنع التلوث البيئي الذي قد يحدث، إذ تحاط المواد الخطرة المتشكلة برغوة صلبة تمنع انتشارها وتعمل على تثبيتها، كما تستخدم الرغوة في مكافحة النيران، حيث إنه وبسبب كونها خفيفة، فإنها تحيط وتطفو فوق المواد المحترقة، وتحجب بالتالي الهواء عنها وتخمد بذلك النيران. ولذلك تستخدم في إخماد الحرائق التي تنشب في المواد التي يخشى أن يتسبب الماء بتلفها، كالكتب والأجهزة الكهربائية والإلكترونية.

فقاعات في حوض الاستحمام

انتشرت خلال السنوات الماضية مستحضرات فقاعات الاستحمام التي لقيت رواجاً بين صغار السن والكبار على حد سواء، وأصبحت تجارة رائجة في عالم مستحضرات النظافة والعناية الشخصية بعبواتها الجميلة غير المألوفة. فهذه المستحضرات كما يروج لها، تزيل الأوساخ بسهولة وتجعل عملية استحمام الأطفال ممتعه لهم مما يقلل من تذمرهم وشكواهم.

تمكَّن العلماء من قياس أطوال الموجات الضوئية من خلال دراسات ألوان قوس قزح على فقاعات الصابون

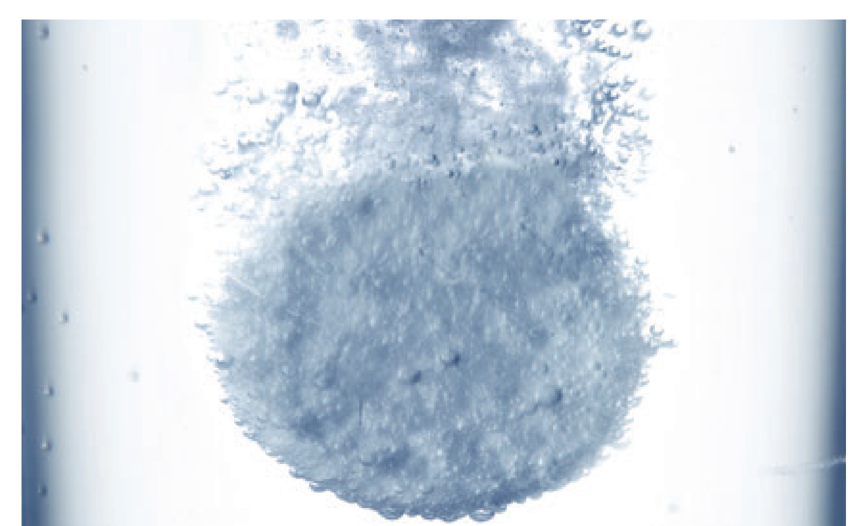
ومستحضرات فقاعات الاستحمام يتم تحضيرها على عدة أشكال، كمساحيق أو حبيبات أو جل أو سوائل أو أقراص أو كبسولات، وهي تهدف إلى تزويد حوض الاستحمام بالرغوة والعطر، كما تمنع تكون حلقات الماء العسر على جوانب حوض الاستحمام.

وتتميز تلك المستحضرات بإنتاجها لكمية كبيرة من الفقاعات في مياه الاستحمام عند تركيز منخفض بدون استخدام ضغط المياه، وثبات تلك الفقاعات سواء في الماء العذب أو العسر وعلى مدى واسع من درجات الحرارة، وهي أيضاً لا تتسبب بتهيج الجلد أو العينين.

وتتركب مستحضرات فقاعات الاستحمام من مواد ذات نشاط سطحي، بحيث تملأ حوض الاستحمام بكميات كبيرة من الفقاعات المعطرة، وليس من الضروري أن تكون جيدة التنظيف. فبالرغم من أن عدداً من المواد التي تنتج رغوة كثيفة تكون جيدة التنظيف، بيد أنه إذا لم تنظف البشرة كما هو مطلوب، فيمكن إضافة مواد أخرى إلى التركيبة تعمل على زيادة مقدرتها على ذلك. كما تضاف مواد مزيلة لعسرة الماء كبعض أملاح الفوسفات وأملاح السترات، وكذلك تضاف أملاح صوديوم ايثيلين داي امين ترا أستك اسد (Na EDTA) وهي أملاح تتميز بقدرتها على منع



الأسبرين الفوَّار





الفقاعات داخل أحجار البازلت البركانية السوداء

قتل الرغوة، وتعمل أيضاً على حفظ صفاء فقاعات الرغوة السائلة وتوقف عملية نزع اللون بسبب تفاعل الكميات القليلة من المعادن مع الزيوت العطرية، كما تضاف مواد حافظة ومواد عطرية وألوان إلى تلك المستحضرات. علماً بأن بعض الشركات المصنعة لمستحضرات فقاعات الاستحمام تضيف بعض المواد الأخرى كالكلوروفيل ومستخلصات الأعشاب الطبية واللانولين ومشتقاته.

وتطوَّرت صناعة تلك المستحضرات. فلم تَعُد تعتمد على استخدام الصابون السائل، بل أنتجت مواد صناعية ذات فعالية عالية كمادة تراي إيثانول أمين لوريل سلفات ومادة صوديوم لوريل سلفات، ومادة أمونيوم لوريل سلفات، ومادة ماغنيسيوم لوريل سلفات وبعض مشتقات الكيل فينول بولي جليكول إيثر المكبرتة، ومواد أخرى تعمل على إنتاج رغوة كثيفة ذات ثبات عالٍ نسبياً.

وتجدر الإشارة إلى الاعتقاد الخطأ لدى بعض مستهلكي الشامبو من أن المستحضر الذي ينتج رغوة أكثر ينظف أفضل، وفي الحقيقة، ليس لزاماً أن يصاحب التأثير المنظف الفعال للشامبو قدرة على إنتاج رغوة كثيفة، بل إن هناك مواد لها قدرة ممتازة على التنظيف من دون أن تكوِّن رغوة وفقاعات كثيفة.

وقد ابتكرت اختبارات متعددة لحساب مدى تشكل الرغوة في مواد التنظيف، منها اختبار عامود الرغوة «روز وميلز» (Ross and Miles) الذي يستخدم لمعرفة كفاءة ترغية المواد، حيث يوضع 200 مل من محلول التنظيف داخل مخبار زجاجي مدرج يحتوي على 50 مل من نفس المحلول ويقاس فوراً ارتفاع الرغوة المتشكلة، وتكرر عملية القياس على فترات زمنية محددة.

رغوة سائلة ورغوة صلبة

تتميز الرغوة السائلة بهشاشتها وتحطمها خلال وقت قصير نسبياً، لكن الرغوة الصلبة، تتميز باستقرارها وثباتها ومقاومتها للصدمات والعوامل الخارجية، وهذا النوع من الرغوة يستخدم في الكثير من الصناعات التعدينية كرغوة الألمنيوم ورغوة الرصاص، كما تدخل في صناعة الأثاث والفراش والمقاعد التي ننام أو نجلس عليها. فالإسفنج الصناعي عبارة عن رغوة صلبة تتميز بمرونتها وعزلها للصوت بشكل جيد.

تلعب رغوة الصابون دوراً فاعلاً في فصل الأوساخ، ولكنها ليست شرطاً ضرورياً لذلك

كذلك فإن الرغوة الصلبة تستخدم في مجالات البناء وفي العديد من الصناعات، كصناعة السيارات والطائرات والقطارات، حيث تستخدم كمواد ماصة للصدمات ومانعة للاهتزازات. كما أن بعض التفاعلات الكيميائية تستلزم وجود مساحة سطح كبيرة في الطور الغازي، لذلك تستخدم بعض أنواع الرغوة كعوامل مساعدة ممتازة كرغوة البلاتين وغيرها.

وتدخل الفقاعات بشكل مباشر في العديد من الصناعات الغذائية، فهي تملأ قطع الكيك والخبز التي نتناولها والتي تنتج عن خلط العجين مع بايكربونات الصوديوم، كما أن البوشار وحلويات «المرنغ» (خليط من بياض البيض والسكر) هي عبارة عن رغوة صلبة.

دقة هندسية في عالم الفقاعات

تتميز الفقاعات السائلة بجمالها الأخاذ. فهي تنتظم في أشكال وعناقيد مختلفة، وبالرغم من الفوضى الظاهرية التي تحكمها، إلا أنها في الواقع تتصرف ضمن قوانين فيزيائية محددة. يقول العالم الإنجليزي كيلفن: «انفخ فقاعة صابون وراقبها، ويمكنك أن تدرسها طوال حياتك، وتستقي منها على الدوام دروساً في الفيزياء».

من هنا نجد أن تلك الفقاعات تقدِّم للعلماء مصدراً مهماً للمعلومات القيمة، فعن طريق دراسة ألوان قوس القزح التي يظهر عليها، تمكن العلماء من قياس أطوال الموجات الضوئية وتردداتها. وأيضاً، فإن دراسة قوى الشد والتوتر بين أغشية الفقاعات الرقيقة تساعد على التعرف واكتشاف القوانين التي تحكم تبادل الفعل بين الجسيمات والدقائق المادية، كذلك الأمر عند دراسة الفقاعات المتشكلة في المياه الباردة أو في المياه الدافئة، حيث نستطيع معرفة العلاقة بين قوى التوتر السطحي ودرجة الحرارة.


..وداخل الشوكولاتة

لقد دلت التجارب التي أجريت على تلك الفقاعات، أن أغشيتها تُعد من أكثر الأشياء المتناهية الرقة التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة، فغشاء فقاعة الصابون يقل سمكه بنحو 5000 مرة عن سمك الشعرة.

أما الرغوة الصلبة، فإنها تتميز بخفة وزنها، وانخفاض كثافتها، ومثال عليها حجر الخفان البركاني الذي يتكون من 97% هواء، مما يكسبه صفة الخفة وانخفاض الكثافة، وهذا ينطبق على الفراش الإسفنجي والمواد المالئة (الحشوات) ومواد العزل الصوتي والحراري المختلفة.

تلك هي الفقاعات التي تحيط وتغلف عالمنا، والتي تُعد جزءاً مهماً في حياتنا اليومية. فهي تثير كل من يشاهدها وتلهم كل من يبحث عن أسرار المادة ويستكشف الجمال الكامن في عناصر الطبيعة المختلفة.


للفقاعات دور كبير في التنظيف





قد لا نجد على وجه الأرض طعاماً جاهزاً يقترب في شعبيته وعدد محبيه، من كيس رقائق البطاطس. لكن هذا الصديق الأليف الذي يبدو وكأنه كان موجوداً منذ الأزل، هو في حقيقة الأمر ابتكار ذو قصة طويلة، ومرَّ بمراحل كثيرة قبل أن يصل إلينا بالشكل الذي نعرفه الآن.

بداية فصول القصة مع جورج كرام، المولود في العام 1822م بولاية نيويورك الأمريكية، وتولى مجموعة من الأعمال المتفرقة في التجارة، قبل أن يكتشف أنه مولع بصفة خاصة بفن الطهو. فالتحق بالعمل كطاهٍ في أحد المطاعم الراقية، التي كانت أصابع البطاطس المقلية واحدة من أهم وأشهر أطباقها.

وفي أحد أيام صيف العام 1853م، كان العمل يسير بصورة عادية، حتى شكا أحد الزبائن من أن أصابع البطاطس في طبقه كانت سميكة أكثر من اللازم. ولأن كرام كان كثير الاعتداد بكفاءته في الطهو، فقد أثارته الشكوى، وكان رده عليها لاذعاً. فقد قام بتقطيع البطاطس إلى أرفع شرائح يمكنه أن يحصل عليها، ثم قلاها، وأعاد إلى الزبون طبقه مليئاً برقائق البطاطس الرفيعة المقرمشة. لكن رد فعل الزبون كان مثيراً للدهشة. فقد نالت الرقائق الجديدة إعجابه! وبدأ بقية الزبائن في طلبها أيضاً. وخلال وقت قصير، أصبحت رقائق بطاطس كرام من الأطباق الخاصة والمميزة في المطعم.

وفي العام 1860م افتتح كرام مطعمه الخاص، وجعله مكاناً فخماً مخصصاً للطبقة الغنية وعلية القوم من سكان ولاية نيويورك. وكانت إحدى اللفتات الأنيقة التي اجتذبت الزبائن هي سلة من رقائق البطاطس تزيِّن وسط كل مائدة.

استمر كرام في العمل في مطعمه الخاص، حتى تقاعد في العام 1890م. ولم يعرف حقيقة الاكتشاف الذي وقع عليه بالصدفة. فقد كان الأمر بالنسبة له طبقاً لطيفاً وجد طريقه إلى يديه. فلم يفكر في أن يسجِّل براءة اختراع باسمه، ولم يفكر في أن تمتد شهرة رقائق البطاطس إلى أماكن أبعد من مدينته.

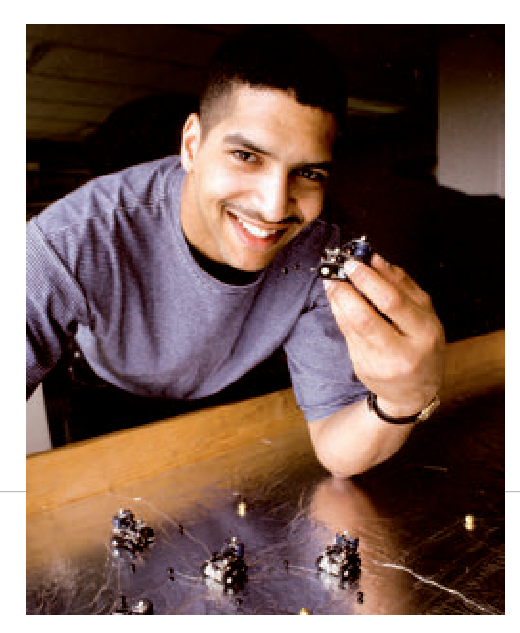


لكن الفكرة طرأت لغيره. فقد بدأ وليام تابندون بعمل رقائق البطاطس وبيعها لمتاجر البقالة. وعندما ضاق مطبخه الخاص بحجم عمله، افتتح مصنعاً صغيراً. وكانت تلك هي أول تجربة لبيع رقائق البطاطس على نطاق تجاري واسع. بعدها، تبعته شركات صغيرة أخرى تأسست للغرض نفسه، وكان أشهرها شركة «هانوفر» التي تأسست في العام 1912م. وراج في ذلك الوقت بيع رقائق البطاطس في المحلات في مرطبانات زجاجية بأحجام مختلفة.

في العام 1926م توصلت لورا شادر لفكرة وضع شرائح البطاطس في أكياس من الورق، وهكذا ولد أول كيس لرقائق البطاطس. وفي العام 1932م أسس هيرمان لاي شركة لايز في ولاية تينيسي الأمريكية. وأصبحت رقائق البطاطس خاصته، هي الأولى التي نجحت في كونها تسوق وتباع على نطاق واسع في أرجاء الولايات المتحدة بأكملها. وانتشرت شركات رقائق البطاطس في أنحاء العالم، وكان أشهرها شركة «سميث» الأسترالية، وشركة «واكرز» البريطانية. والآن أصبحت رقائق البطاطس صناعة عالمية ضخمة، تقدَّر مبيعاتها بحوالي 20 بليون دولار سنوياً.

قصة مبتكر

جيمس ماكلوركين
وأسراب الروبوتات



ولد جيمس ماكلوركين في العام 1972م، بمدينة نيويورك الأمريكية. وكان منذ طفولته الأولى يعشق ألعاب التركيب والبناء لدرجة لفتت انتباه والديه ومعلميه. كانت ألعاب «الليجو» هي رفيقه المفضل، ثم تطور الأمر ليشمل بناء نماذج ميكانيكية للدراجات والسيارات، وبرمجة ألعاب الفيديو. يقول كل من يعرفه أن ماكلوركين كان مهندساً صغيراً منذ سنوات عمره الأولى.

التحق ماكلوركين بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، لدراسة الهندسة الكهربائية. وهناك، عرف بالضبط ما الذي كان يقوده إليه شغفه بالبناء.. أن يصبح مهندساً للروبوتات. وخلال سنوات دراسته، بدأ العمل في «معمل الذكاء الاصطناعي» التابع للمعهد، حيث قام بتصميم عدة مشاريع ناجحة للروبوتات، وواصل في الوقت نفسه دراسته العليا، ليحصل على درجة الماجستير، ثم الدكتوراة.

وخلال سنوات بحثه ودراسته، لفتت انتباه ماكلوركين فكرة محددة أكثر من غيرها، هي إمكانية تصميم روبوتات تستطيع أن تعمل ضمن مجموعة. ولأنه كان يؤمن بأن أعظم الإلهام هو ما يأتي من ملاحظة الطبيعة، بدأ ماكلوركين في دراسة سلوك النمل داخل مستعمراته. كان يحتفظ «بمزرعة النمل» على مكتبه، ويراقب كيف تعمل المخلوقات الصغيرة سوياً. ولاحظ كيف تبني الحشرات نظام عملها، وتوزع المهام وتتواصل فيما بينها، بحيث يؤدي كل منها دوراً محدداً يصب في مصلحة المجموعة.

تبلورت الفكرة في عقل ماكلوركين خطوة خطوة، حتى وصلت إلى صورتها النهائية. كان مشروعه الكبير هو بناء أسراب من الروبوتات التي يمكنها أن تنفّذ مهام معقّدة. يتكون كل سرب من مجموعة من الروبوتات الصغيرة التي لا يتجاوز طولها البوصة الواحدة، وتحمل بداخلها جهاز كمبيوتر ومحركاً، وأجهزة استشعار تمكنها من تعرف الأشياء التي تقابلها في طريقها وعليها إما أن تلتقطها أو تتجنبها. كما أن كل روبوت يمكنه أن يحمل جهاز اتصال داخلي يستخدم الأشعة تحت الحمراء. هذه الخواص تعطي الروبوتات «ذكاءً» حقيقياً، يمكنها عن طريقه أن تنسِّق العمل فيما بينها لإنجاز مهام مركبة يتم برمجتها لأدائها، خاصة تلك المهام التي تجري في بيئات على درجة عالية من الصعوبة والاستثنائية. كالبحث عن الألغام، والتنقيب وسط أنقاض الزلازل، واستكشاف الكواكب البعيدة، والتعرف إلى المواد الكيميائية الخطرة.

حصد ماكلوركين الكثير من التقدير في الأوساط العلمية، رغم عمره الصغير نسبياً. وبجانب عمله المستمر على تطوير مشروعه، يحاضر ماكلوركين بصورة منتظمة في العديد من الجامعات والشركات. فقد ألقى محاضراته في جامعة هارفارد الأمريكية العريقة، وفي شركات «آي بي إم»، و«هوندا»، و«إنفوسيس»، لمناقشة الآفاق الواسعة التي يمكن أن تفتحها تكنولوجيا أسراب الروبوتات. كما أن اهتمامه بالعلم، يتعدى النظرة الأكاديمية. فهو يؤمن بالإثارة والمتعة الكامنة خلف المعرفة والإنجاز العلمي، ولذلك فإنه يقوم بالعديد من الجولات للتدريس في الصفوف المدرسية من الابتدائية وحتى الثانوية، ليلهم الجيل الجديد من المهندسين والعلماء.

اطلب العلم

نظيف .. أكثر من اللازم

هل نحن حقاً بحاجة لأن نقضي على 99.999% من البكتيريا والجراثيم المحيطة بنا؟

تنهال علينا هذه الأيام الدعايات الترويجية للمنظفات المضادة للجراثيم. من الصابون العادي، والصابون السائل، إلى معقم الأيدي، وحتى المناديل. ولا ينافس انتشار هذه المنتجات في السوق، إلا إقبال المزيد والمزيد من الناس على شرائها. إذ يرون أنهم بذلك يضمنون الحماية لهم ولأسرهم ضد الأمراض والعدوى.

تعتمد كل هذه المنتجات على كونها تحتوي على مواد قاتلة للبكتيريا. وقد كانت الحاجة الأساسية، والاستخدام الأصلي، لهذه المواد هي الوقاية من انتقال البكتيريا المسببة للأمراض بين المرضى في المستشفيات. وكذلك حماية الطاقم الطبي للمستشفى من العدوى التي يحملها المرضى. أما الآن فقد تمت إضافتها إلى العديد من المنتجات التي يقصد بها الاستعمال في بيئة المنزل الصحية. ومع الاستخدام المكثف لها بصورة غير مسبوقة والذي نشهده الآن، يتصاعد قلق العلماء من الأخطار الهائلة التي يمكن أن تحملها لنا.

فنحن نذهب بعيداً، وبغير ضرورة، حين نحاول أن نقضي على كل البكتيريا في محيطنا. أولاً، لأن النسبة الأكبر من البكتيريا التي نتعامل معها في حياتنا اليومية، هي بكتيريا غير ضارة، تتعايش سلمياً من النظام الحيوي لجسم الإنسان. وثانياً لأن تعاملنا معها ضروري لحمايتنا من الأمراض.

يقول جراهام روك الأستاذ بجامعة لندن، إن جهاز المناعة يحتاج إلى التدريب لكي ينمو بطريقة صحيحة. أي إنه يحتاج للتعرض للبكتيريا غير الضارة والتفاعل مع مادتها الحيوية، حتى يتعلم كيف يضبط آليات دفاعه، ويكون مستعداً لمواجهة الأمراض. ولذلك فإن الأطفال الذين يتواجدون في بيئة محمية أكثر من اللازم، يكونون معرضين أكثر من غيرهم للإصابة بالأمراض، على عكس الاعتقاد السائد. لأن هذه البيئة قد حرمت أجهزة المناعة لديهم من فرصتها في التطور والنمو الطبيعي.

وحين تتعرَّض البكتيريا بصورة مكثفة ومستمرة لهذه المواد، تبدأ سلالات جديدة منها في الظهور. هذه السلالات تكون مسلحة بآليات دفاعية ضد المواد نفسها التي استطاعت أن تبيد «أقاربها» سابقاً. فالبكتيريا كائنات عالية المرونة في تطورها، والبيئة القاسية بصورة أكثر من اللازم، لن تجعلها تنقرض، وإنما ستقوم بحثها على تطوير سلالات مقاومة. وحينئذ نكون قد فقدنا فاعلية هذا السلاح ضدها إلى الأبد.

ولا تتوقف خطورة الأمر عند هذا الحد. إذ اكتشف العلماء مؤخراً أن سلالات البكتيريا المقاومة للمواد المضادة للبكتيريا، قد تكون مقاومة أيضاً للمضادات الحيوية. ففي دراسة أجرتها آليسون آيلو عالمة الأوبئة بجامعة ميتشجن الأمريكية، توصلت إلى أن تعرض البكتيريا على مدى زمني طويل لمادة الترايكلوسان الموجودة في هذه المنظفات، يؤدي إلى حدوث طفرات تجعلها مقاومة لعقار «آيزونيازايد»، وهو المضاد الحيوي المستخدم في علاج مرض السل. كما ظهرت طفرات أخرى أدت إلى حدوث تغيرات في غشاء الخلايا البكتيرية، بحيث لا تسمح بنفاذ جزيئات المضادات الحيوية لداخلها، وبالتالي تصبح محصنة ضدها.

إذن ماذا نفعل لنضمن حماية صحية من الأمراض؟ «الحل الأكيد هو الماء والصابون» .. هكذا ينصح جون جوستافسون الباحث بجامعة نيومكسيكو الأمريكية. فالصابون يقوم بخلخلة طبقة الأوساخ والزيوت والجراثيم الموجودة على الأسطح، وبالتالي تنجرف بسهولة مع الماء. هكذا نحصل على نظافة أكيدة وحماية من الأمراض، لكن من دون عبث بالنظام الحيوي المحيط بأجسامنا، ومن غير أن نغامر عن غير قصد، بإنتاج «وحوش» بكتيرية مقاومة.

أحمد الإمام

عوض الهمزاني



الورقة الخضراء
سقطت سهواً..
فلجأت إلى جذورها.

الحمراء تبتعد.

وأنت وظلّك
واليمام.

لا تصرخ أمام السّور
الشفق وراءك..
لا يرحم.

احمل ورقتك،
وامش.



عوض الهمزاني

مصوِّر سعودي احترف التصوير منذ العام 1997م، أبدع في معظم مجالات التصوير الفوتوغرافي، ما مكنَّه من أن يُصبح أستاذ مادة التصوير الصحفي في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض. وفي هذا المجال الضيِّق هنا، حفنة من أعماله الأخيرة، تهمس بحساسيته الخاصة تجاه الزخارف التي تنسجها الخطوط أولاً، والمساحات ثانياً ضمن المشهد الطبيعي، أياً كان موضع هذا المشهد، على رصيف المدينة، أو سبيل غابة.









المصوِّر عوض الهمزاني... مجلة القافلة - العدد 6 نوفمبر/ديسمبر 2010

حقيبة السفر.. أشياء من حياة وأوطان

تتداعى في حقيبة السفر معاني الانتقال بكلّ اشتقاقاته وشروحاته؛ كما بكلّ ترجماته النفسية والعاطفية، إذ تحيلك بعض الاشتقاقات إلى السفر بمعناه الذي ينطوي على عودة، عاجلة أم آجلة أم مؤجلة أكثر. وقد تتكشّف لك بعض مشتقّات المعنى عن الارتحال بمفهوم التقافز بين أجمات الغيابات، الجزئية أو الدائمة، كما قد تشرع لك ترجمات المعاني باباً عريضاً على الرحيل بمفهوم الوداع، الذي لا عودة بعده مع أننا نتشهّى العودة جداً. ونتحسّر على الغياب المطبوع بالفقد والهجر ردحاً من الذاكرة؛ ذلك أن في الرحيل فصماً في الوجود الحيّ يتبعه انفصام تدريجي بين الأصل والذكرى. ضمن هذه المعاني، وما يستتبع عنها من معان تحتمل «إلباسات» كثيرة وتأويلات تكتسب شرعيّتها من نفسية المؤوِّل -إن جاز وصفه بذلك- فإن حقيبة السفر هي الرمز المعنوي بموازاة التفسير الحسي لانتهاء علاقتنا بجغرافيا بعينها، قيمتها يحدّدها أناس الجغرافيا أنفسهم بقدر حيثيّات البيئة العاطفية فيها، والانتقال إلى جغرافيا مختلفة ورقعة بشرية نفسية أخرى، إمّا مراماً وحبّاً وابتغاءً للجغرافيا المستجدّة وإما قهراً وقسراً ولفظاً من جغرافيتنا الأم أو جغرافيتنا «القديمة».

إن الحقيبة تروينا بطريقتها، وفصول رواياتها في جميع الأحوال لا تقارب تلك الرواية الممجوجة التي دأبت المسلسلات والأفلام العربية على قصّها علينا، فتكون هناك دوماً حقيبة صغيرة فارغة على ظهر الخزانة، لا هوية لها وغالباً ما تكون إطلالتها الرثة متناقضة مع بهرجة غرفة النوم، جاهزة لتلبية مشهد حرد الزوجة أو هروب الرجل من بيت الزوجية، حيث تُنتشل الملابس «المزعومة» من الخزانة وتُلقى في «الشنطة» كيفما اتفق، مع ملاحظة إسقاط المشهد الركيك عناصر لا يستوي توضيب حقيبة السفر، أو حقيبة الحرد، من دونها؛ كالجوارب والملابس الداخلية وفرشاة الأسنان ومعجون الحلاقة، إلى جانب حذاء أو خفّ واحد على الأقل! وبدلاً من أن تنوء المرأة الغاضبة والزوج الساخط بحقيبة ثقيلة، محدّبة، تكاد تنبقر من الانتفاخ، تتهادى الغاضبة كما الساخط بحقيبة خفيفة مُقعّرة، يسهل أن نكتشف في كل مرة أنها فارغة.

وفي كل مرة يصر «رواة» الأفلام غير الشطار على أننا لسنا شطاراً بما يكفي كي نعرف أن الحقيبة التي تكاد تطير من يد صاحبها فارغة. قد لا تكون رواية الحقيبة في الأفلام الأجنبية أكثر قابلية للتصديق من نظيرتها العربية، لكنها تظلّ أكثر أناقة، أكثر إقناعاً، وأكثر مشهدية؛ وفي الذاكرة تبرق صورة لمحطة قطارات، مستلفة من أوراق أزمنة رومانسية شفّافة، غاصّة بالمسافرين والمسافرات الذين يحملون حقائب صندوقية الشكل، صغيرة على نحو لا يليق تماماً بمستلزمات السفر الطويل، لكنها مع ذلك توحي بأن ثمة حياةً ما، وذكريات منتقاة، مصفوفة ومرتبة بعناية داخلة الحقيبة.

نحن مع حقائبنا نكون ما نريد للعالم أن يرانا عليه، تماماً كما لا نريد للعالم أن يفضحنا. ففي حقائبنا أشياؤنا؛ شيءٌ من حياتنا الذاهبة، وشيءٌ من حياتنا الماشين إليها. شيءٌ من فرحنا المدسوس في جيوب الحقيبة السرية عنوة، وشيءٌ من هزائمنا التي تضيف ثقلاً زائداً فوق ثقل الحقيبة، شيءٌ من آمالنا المستكينة، وشيءٌ من شقائنا المستَكن. شيءٌ من عذابنا المنزوي وشيءٌ من ضحكنا المتبقّي. شيءٌ من بكائنا الغافي، وأشياء من وطن.

بين الملابس والهدايا والتذكارات، بين الأوقات العابرة والانكسارات، بين أوراق إثبات الهوية المرتحلة وصور لحظاتنا الزائلة، بين وطن غائب ووطن مُرام، فإن أشدّ ما نخشاه هو أن نختصر الأوطان في حقائبنا. هذا ربما ما جعل شاعرنا محمود درويش ينفي بمرارة أن يكون الوطن حقيبة، في رباعيات «يوميات جرح فلسطيني»، المهداة لسيدة الشعر فدوى طوقان:

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة وأنا لست مسافر
إنني العاشق، والأرض حبيبة

لكن خشيتنا في محلّها، ومحمود درويش نفسه لم يستطع في النهاية إلا أن يحزم الوطن في حقيبة، بل ذهب إلى حد أن الوطن كلّه حقيبة، في تشيىء قاسٍ وموجع للوطن، ومحاكاة تقرص الروح، إذ يتماهى الوطن بالمطلق -رحيلاً وارتحالاً، غربة واغتراباً- مع حقيبة السفر، في قصيدة «مديح الظلّ العالي»:

وطني حقيبة
وحقيبتي وطنُ الغجر.

حزامة حبايب

مستقبل التلفزيون

إعادة حساباتنا مع التلفزيون



لم يخسر التلفزيون حتى اليوم موقعه في كل بيت. ولكن لا بد من الاعتراف بأنه خسر نسبة معيَّنة من الاهتمام بمتابعة برامجه، لصالح جاذبية شبكة الإنترنت وما تقدِّمه لمستخدميها.

غير أن الخطر على التلفزيون يكمن في السرعة الكبيرة التي تنمو بها خدمات الإنترنت وتطورها، مقابل محدودية التطورات البطيئة التي طرأت على التلفزيون كجهاز وكبرامج. فإلى متى ستظل «الإنترنت» تقضم من جمهور مشاهدي التلفزيون؟ فاضل التركي يتناول هنا الآفاق المفتوحة أمام تطور التلفزيون، انطلاقاً من استعراض مسيرة تطوره خلال العقود الأخيرة، وما يمكن للتقنيات الحالية أن توفره في هذا المجال.

Corbis

أنبوب الكاثود هو الذي يشكل «المتلقي» لنوع جديد من التلفزيون التي اخترعها الدكتور «فلادمير زواركين»

Corbis

Corbis



لو تأملنا الطريقة التي نشاهد بها التلفزيون، فسنلاحظ أنها رغم اعتيادنا عليها، غريبة جداً. فكيف لنا أن نرضى بترتيب يومنا وأجندتنا ومواعيدنا وقائمة أشغالنا لتتماشى مع مواعيد بث البرامج التي يختارها معدّوها في كل قناة تلفزيونية؟ ماذا نفعل مع برنامجين نحب أن نتابعهما، يبثان في الوقت نفسه؟

نعم، لقد اخترعنا أساليب حياة وتقنيات جيّدة لحل مثل هذه المشكلات، مثل أجهزة التسجيل التي نستطيع برمجتها لتسجل وقتما نريد. لكن، هل نحتاج فعلاً أن يكون التلفزيون هكذا بمشكلاته والعادات التي رسخت عندنا معه وما لنا إلا أن نجتهد بالتقنية وتبديل مواعيدنا من أجل حلها؟

ربما كان هذا هو الحال، لو لم تنتشر الإنترنت وأجهزة الحاسوب وتصل إلى أراضي التلفزيون المنيعة. فقد أصبح بالإمكان البحث عن المادة، ومشاهدتها وقتما نريد، ونتفاعل معها ونقرأ عنها ونتشارك مع الآخرين في تبادل الآراء عنها ونقيّمها. ومن حيث لم نشعر، مع هذه الميزات الجديدة، وجدنا أنفسنا تنأى عن التلفزيون يوماً بعد يوم. وأصبحنا نوصل الحواسب بأجهزة التلفزيون، نحاول بها تطوير استخدامنا له، وتراءى لنا أن مصيره ليس بالبعيد عن مصير الراديو.

يمين: صورة «لجوان كروفورد» كما بدا على أنبوب أشعة الكاثود بعد بثه من غرفة مجاورة عبر التلفزيون «فيلو فارنسورث» في معهد فرانكلين في فيلادلفيا، بنسلفانيا، الولايات المتحدة الأمريكية

إن التلفزيون لم يبق في مكانه. هناك بوادر انتقام واستعادة لمكانته عند الناس. ربما كانت هذه مراوحة لبعض الوقت، وقد آن الأوان للتغيير. في الصفحات التالية، سنلقي نظرة قريبة من طبيعة التلفزيون، ما هو، كيف كانت البدايات، ثم نتجاوز اليوم إلى الغد، نجول في ملامح بدت تظهر وأفكار أصبحت محل جدل في أنسب الطرق إلى المستقبل. لنحاول أن نتقرب من تقنياته، وكيفية تطورها، والعادات والانطباعات التي كان يحملها الناس عنه منذ بزوغه، والعادات التي اكتسبناها، ونجول بعدها في الإمكانات المتاحة اليوم وبوادر الثورة التلفزيونية الجديدة والتصورات المستقبلية.

كيف ظهر التلفزيون وكيف استقبله الناس؟

ظهرت تجربة التلفزيون عام 1928م في أمريكا. وحين ظهر في بريطانيا حوالي العام 1935م، لم يكترث مؤسس إذاعة البي بي سي، جون ريث به كثيراً، إذ رحل غير مهتم بتقديم البي بي سي للتلفزيون، فكان يجدول إجازات عمله لتكون في فترات ذروة مواسم التغطية التلفزيونية لبعض المناسبات مما كان يقدَّم في تلك الأيام الأولى.

بدأ انتشار التلفزيون في بريطانيا بنحو 100 جهاز تلفزيون يتلقى إشارة البث من على تلة عالية فوق

قصر الكريستال، ليتمكّن هؤلاء المشاهدون الكثر من استقبال الإشارة. كانت تلفزيونات صغيرة الشاشة، ذات لون واحد، وبرامج قليلة، وأوقات محددة. ولم يكن لأحد أن يتخيل تحول التلفزيون، إلى فرد من العائلة يتحلق حوله الجميع ويأخذهم جميعاً عن بعضهم البعض، وعن كل وسائل الاتصال، ويصبح الأداة التي توصل الأفكار والأخبار والتسلية والمشاركة في الاهتمامات في كل صعيد. لقد تبدَّل كل شيء، وتبدَّلت العادات وأصبح الناس يجلسون في بيوتهم، يشاهدون فيها مرحلة بعد مرحلة، ما مرَّ به التلفزيون الذي كان بلا صوت وبلا ألوان، ثم صار بالصوت والألوان، والبرامج المتنوعة، وسهل التواصل معه، وانتقل من البث المحدود الوقت إلى أن أصبح يقدِّم المقابلات والمباريات والمسرحيات ويلتقي عبره الناس بالمشاهير الذين يحبون، ويتابعون الأحداث أينما كانت، وقرّب لهم كل شيء، حتى أوجد انطباعاً ألاَّ شيء بعد ذلك غير تطور هذا الجهاز تقنياً، وتطور البرامج التي تعدّ وحسب. ولم يستغرق وقتاً طويلاً بعد هذه البدايات الأولية، حتى تحوَّل إلى إدمان عام وسلطة تصل إلى كل مكان.

> هل ستبقى وتيرة تطور التلفزيون كما هي عليه أم ستتسارع وتيرته كما هي في الإنترنت الآن؟

فكرة التلفزيون

ربما نتفاجأ إذا عرفنا أن أول خطوة على طريق اختراع التلفزيون كانت عام 1817م. لقد كان ذلك مبكراً جداً إذا قارنا ذلك بظهور التلفزيون بعد ذلك بكثير (عام 1928م) أو في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين فعلياً.

كانت تلك أول خطوة عندما اكتشف جونز جاكوب برزيليوس مادة السلنيوم، وقد عرفنا بعدها أن هذه المادة تنقل كمية مختلفة من التيار الكهربائي اعتماداً على كمية الضوء التي تتعرَّض له. كان ذلك في عام 1872م عندما لاحظ بالصدفة عامل التلغراف جوزف مي، أن خاصية السلك في توصيل الكهرباء تختلف عندما يتعرَّض لضوء الشمس، والسبب هو تحول الضوء إلى إشارة كهربائية. لقد مهَّد ذلك إلى فكرة جاء بها المهندس الفرنسي موريس لوبلان لاستخدام هذه الخاصية. كان ذلك عام 1880م، عندما كتب ورقته العلمية الشهيرة التي تقترح طريقة لقراءة صورة بطريقة ميكانيكية كنص في صفحة، سطراً سطراً وبث هذه الإشارات تباعاً لتكون مثل صورة تعرض جزءاً جزءاً حتى تكتمل. وهي عملية تشبه تصفحنا لورقة تحمل نصاً أمامنا، نجول عليه سطراً سطراً من اليمين إلى اليسار. وببساطة، فإننا نستفيد من الصورة التي تبقى في جدار العين -الشبكية- بشكل مؤقت ولكن متواصل ومتدرج، وبذلك نحصل على صورة كاملة، ثابتة أو متحركة! لم يتمكن هذا المهندس من صنع هذه الآلة حتى جاء بعده بول نبكو، الألماني الذي صنع قرصاً دوَّاراً يسهِّل تلك العملية. كانت هذه إذن البداية: تلفزيون ميكانيكي. نديـر القرص الذي يعكس الضوء ويحوي خطوطاً رسمت لولبياً من مركز القرص إلى محيطه الخارجي، فتتحرك هذه الخطوط لتعكس الصورة التي نريدها بتمرير الخطوط عليها لتسقط على عين المشاهد.

إن ما نلمسه في بدايات التلفزيون، مازال يستحق أن نلقي عليه نظرة الآن، لأنه لم يتبدل كثيراً في الفكرة حتى في أكثر تلفزيونات اليوم تطوراً. إننا ننقل الصورة سطراً سطراً بعد أن استبدلنا بالأقراص الدوارة تقنيات جديدة،

وأصبح التلفزيون عادياً في كل بيت


Corbis
shutterstock


Corbis

مكاتب ومحطة إرسال الـ «بي. بي.سي.» حتى سنين متقدِّمة من القرن العشرين

ونصنـع كل الحركـة بكل ما تقدَّمنا في مجال الرسـم وآلات التصوير والإضاءة وما يصاحبها من تقنيات.

فبعـد القرص الدوار، جاءت التقنيات المختلفة التي حسـنت التلفزيون وجعلته أكثر انتشـاراً، بدءاً بتقنية اسـتخدام أنبوب الكاثـود وتحـول الجهـاز إلـى تلفزيـون كهربائـي بعـد أن كان ميكانيكيـاً. لقد كان ذلـك تجريبياً، وتبع التلفزيون الصامت، دخـول الصـوت. وحيـن جـاءت الخمسـينيات مـن القـرن العشـرين، بـدأت توضـع المقاييـس بخصوص عـدد شـرائح الصـور التـي تتبدل كل ثانية لتصل إلى مقياس 30 صورة في الثانيـة وجاء بعد ذلك دور دخول الألوان الطبيعية التي تظهر بها الصور، وكان السـبيل إلى ذلـك في البداية ترميز الألوان ضمن نظام اللونين الأبيض والأسـود. في البدايات هذه، كان البث حياً مباشراً على الهواء، على عكس التوقعات، إذ لم تكن هناك إمكانات للتسـجيل وإعـادة البث فيما بعد. لقد احتجنا بعض الوقت لنتمكَّن من بث برنامج مسجل، أو دبلجة برنامج وإضافة لمسات وترتيبات عليه قبل أن يراه المشاهدون.

ثم أصبح التلفزيون «عادياً» في كل بيت

فـي العـام 1950م، بلـغ عـدد التلفزيونات في أمريكا، على سـبيل المثـال، قرابـة العشـرة ملاييـن، بعـد أن كان قبلهـا بسـنوات أربـع لا يتجـاوز السـبعة آلاف جهـاز تلفزيون. وقد تقدَّمت أمريكا في ذلك، لأن الحرب العالمية الثانية، كانت ذات أثـر فـي تقليل انتشـاره والاهتمـام به. وكانـت البي بي سـي قـد أوقفـت الخدمـة فـي بريطانيـا، ولم تعـاود البث إلا بعـد مدة من التفكير بعـد أن انتهت الحرب وألقت أوزارها. ومنـذ ذلك الحيـن، أصبح التلفزيـون قطعة أثـاث ضرورية فـي كل بيـت. ومـع الهدوء والصعـود الاقتصادي والتنافس


Corbis
shutterstock

أولى كاميرات التسجيل والبث التلفزيوني وتطورها في عصرنا اليوم

الشـديد بيـن شـركات التلفزيون، تم توحيد نظـام البث في أمريـكا، وتكـررت الحكايـة فـي بقية أرجـاء العالـم. وحين توحَّـدت المقاييـس وتوسـعت شـبكات البـث، كانـت هنـاك حاجـة ماسـة لتحويل طاقـات وخبـرات ومهـارات العاملين فـي مجـال الراديـو، إلـى الموضـة الجديدة. ولكـم كان من الصعـب الانتقـال مـن خبـرات تقديـم برامـج الراديـو إلى تقديـم برامج تلفزيونية لمن لا عهدة له بها سـابقاً، وإيجاد ممثليـن يعتمـدون علـى الصوت والصـورة ومقدمـي برامج خيالهـم أبعد مـن البث الصوتي. حينئذ، كان على الممثلين والمهرجيـن التقـدم لوظائـف التلفزيـون. لقـد انتقـل كل شـيء إلى مجال التلفزيون ليغطـي كافة الأخبار والفعاليات والتمثيليـات والمباريـات الرياضيـة. وكان أكثـر البرامـج إدراراً لشـركات التلفزيون، أن تحضر شـهيراً من الهزليين ليظهـر تكـراراً على الشاشـة بحكاية جديدة كل حين. كما كانـت برامـج المسـابقات فكـرة مدهشـة ومحبوبـة، جعلت المشـاهدين يتخيلون أنفسهم يكسبون المال بحلهم للأسئلة المطروحـة. لقـد جلب ذلـك الدعايـة النـاجحـة للتلفزيون.



التطور التقني: يكفي.. لا يكفي

وأصبح هناك راعٍ رسمي للبرامج الكبرى هذه. ومن اللافت أن المنتجات التي كان يسوقها الراعي الرسمي، كانت تباع بأسرها بعد انتهاء البرنامج. لقد كان ذلك مثاراً للعجب، إذ إن ردة فعل المشاهدين وتأثير التلفزيون على تسويق المنتجات فاق كل التوقعات.

لم يكن يتصور مديرو شركات التلفزيون أن الأخبار ستكون محل اهتمام الناس. لقد بدأت قصيرة وغير مهمة، لمدة دقائق في المساءات، وكانت غير مفضلة عندهم لكونها مكلِّفة ومتعبة التحضير. ولم تبدأ الأخبار تلقى الاهتمام الذي أقنع مديري الشركات بها إلا في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

مع مرور الوقت، لم يكن ممكناً للشركات الراعية للبرامج أن ترعى برامج كاملة. ولقد فطن المشاهدون إلى أنهم يريدون مواد أرفع مستوى مما يشاهدون، وبسبب هذا وذاك، تحوَّلت الدعاية إلى دعاية قصيرة ومقتصرة كما نراها هذه الأيام.

هكذا تطورت البرامج وتوسَّعت الاهتمامات، الجادة منها والمسلية. وتطورت الأفكار إلى ما نحن عليه اليوم. كل ما حدث منذ نهايات الستينيات من القرن العشرين حتى اليوم، ليس مختلفاً إلا في ما يخص تطور التقنية والأجهزة وأدوات التسجيل والبرامج والمونتاج والإخراج وما إلى ذلك. لكن التلفزيون أصبح بلا منازع.

shutterstock

شاهد واسمع.. أينما كنت

متى بدأ البريق يخفت؟

لم يكن التلفزيون محط اهتمام الجميع، بشكل كلي، منذ بداية ظهوره. فقد كانت دائماً هناك حركات وتوجهات تدعو لإزالته من البيوت وإبعاده عن الأطفال وباقي أفراد الأسرة الذين يفرقهم عن الحديث مع بعضهم بعضاً. وحذرت هذه الحركات والتوجهات، بكثير من المبررات والأسباب، من أفضل البرامج جودة وفائدة، ودعت في أكثر الحالات تسامحاً، إلى تقليل عدد ساعات المشاهدة، والاختيار الصارم لما يمكن مشاهدته. لكن، لم يكن لهذه الجماعات من تأثير مهم أمام النسبة العظمى من سكان العالم الذين ينعمون بالمتعة والتسلية والفائدة وقضاء الوقت أفراداً وجماعات أمام الشاشة. ربما أخذهم عن التلفزيون بعض الاهتمامات الأخرى، مثل القراءة والعمل والرياضة ووصول الحاسب الشخصي إلى كل بيت وتوافر البرامج التفاعلية والموسوعات وبرامج الإنتاج والمكتبات العامة والفعاليات والمهرجانات والألعاب والتسلية. وسبق ذلك بالطبع وصول أجهزة الألعاب الإلكترونية التي تربط بالتلفزيون ويستمتع بها الكبار والصغار.

ظهر أول تهديد للتلفزيون، بظهور الإنترنت. ولم يكن هذا التهديد واضحاً جلياً للمستخدم والمهتم الدارس للحالة، إلا بعد أن انتشرت الإنترنت، وتدنى سعر الخدمات لتتوافر لشريحة كبيرة من مستخدمي الحواسيب عالية السرعة المرتبطة بإنترنت ذي نطاق واسع وسريع. فقد ازداد عدد المواقع وتقدَّمت برمجياً، ولم يَعُد التصميم والنشر والبرمجة حكراً على المبرمجين والمختصين، مع ظهور إمكانية رفع الفيديوهات والأفلام التي كانت قصيرة ومقطعة إلى أجزاء في البداية. ثم ظهرت إمكانية رفعها

وتصفحها أو تنزيلها، وتوفر ميزات وصفها بكلمات مفتاحية تصف المادة المعروضة بدقة، وبجوار ذلك مراجعات المتصفحين وتعليقاتهم. أصبح التلفزيون جهازاً متقدماً في التقنية البصرية والصوتية، ولكنه متأخرٌ، وليس بالعملي بتاتاً. لقد بات جلياً للمشاهد، أنه ملزم بوقت البرنامج، وباختيارات القنوات التي يتابعها، دفع لها اشتراكاً أم لم يدفع. وأصبح عليه أن يُعنى بتوفير تقنيات وأجهزة التسجيل التي يبرمجها ويربطها بجهاز التلفزيون حتى يتسنى له متابعة ما يفضل في وقت يناسبه آخر.

بعد ظهور «يوتيوب» وتسهيل النشر الإلكتروني للجميع دخل التلفزيون في مرحلة جديدة

هذا من جانب؛ ومن جانب آخر، فطن المشاهد، كما فطن آباؤه لنوعية البرامج ومستواها، إلى أنه ليس من الضروري أن يعتمد على الشركات الكبرى المنتجة لمواد المشاهدة. أصبح بإمكان كل فرد يستخدم الإنترنت؛ أن يصمم مادته من أي شكل كانت وضمن أي اهتمام، ويقدِّمها على الإنترنت بكل الكلمات المفتاحية وقدرات محركات البحث، ويسهِّل على هذا المشاهد أن يتحصل عليها فوراً دون أدنى حاجة لأجهزة وتقنيات غير برامج الحاسوب المتوافرة مجاناً بكثرة كماً ونوعاً.

في هذه الحال، بدأ الإنترنت يشكِّل تهديداً، إذ ازدادت فاعلية الإعلانات على الإنترنت وظهرت جدواها أكثر من تلك التي كانت محصورة بالشريحة التي تفضل التلفزيون. ومن ظواهر هذه الحالة، تبدَّلت الطريقة التي تُقدَّم بها البرامج ورسوميات القنوات وألوانها وترتيب برامجها لتشابه المواقع لوناً وشكلاً وترتيباً، إضافة إلى فتح هذه القنوات التلفزيونية مواقع مكمّلة لها تعرض ساعات البث والبرامج وتسجيلات مما تبث، وتعرض ملامح من الإنترنت في ساعات بثها على التلفزيون.

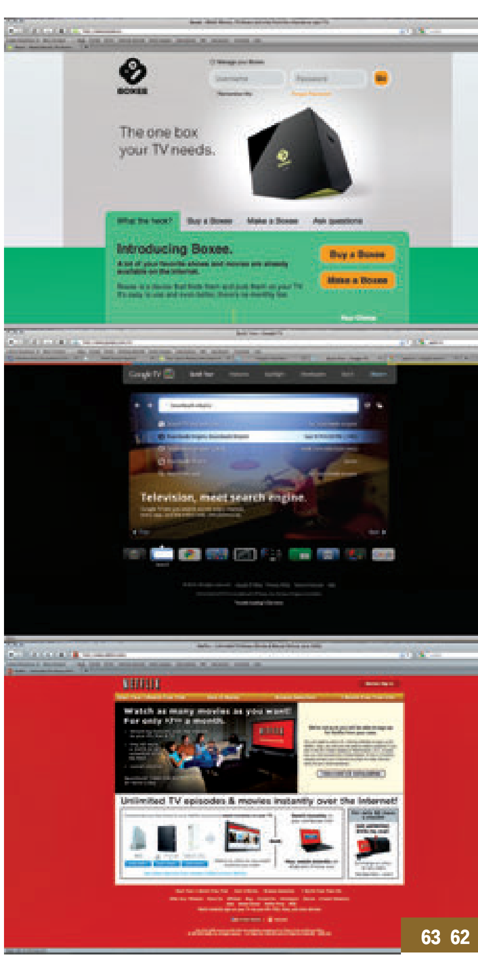

«اليوتيوب» قناة مرئية ومسموعة في الجيب

هذا فضلاً عن المواقع المستقلة التي أصبحت تعيد بث القنوات التلفزيونية على الإنترنت، مصنفة تحت تصنيفات مختلفة، بثاً مباشراً لما يعرض على شاشات التلفزيون، ليصل بالقنوات إلى بلدان لا تخدمها وخارج حدود التغطية.

ومع ظهور «Youtube»، أصبح التلفزيون في وضع حرج للغاية. أصبح كل شخص يستخدم الإنترنت، ناشراً لمواد مرئية من أي نوع بنفسه. ليس كل فرد وحسب، بل أيضاً شركات إنتاج الأفلام والمشاهير والشركات والجامعات والمدارس التي فتحت لها قنواتها الخاصة. ومع «يوتيوب»، وفيديو شركة «جوجل»، التي دعمت يوتيوب واشترته وضمته إلى قائمة خدماتها، وطورته أكثر وسوقته، ومع مواقع أخرى كثيرة، كانت التسهيلات كلها متوافرة للرحيل عن هذا الجهاز وبرامج البث التلفزيوني.

ما الحاجة لمشاهد أن يتجه إلى تلك التقنية ما دام يتابع ما يحب وهو محيط بكل جديد وقديم، يطلع على الأخبار بكل الأشكال نصاً وصوتاً وصورة وبشكل تفاعلي حسبما





بوكسي، موقع هولو وتلفزيون جوجل

يريد رهن ضغطة زر؟ وزيادة في سوء حظ التلفزيون، أصبحت التقنية تتقدَّم وارتفعت الجودة وسرعة الإنترنت، وازدادت الصورة نقاءً ودقة، وتوافرت موصلات الحاسوب بالتلفزيون، وأصبح أفضل ما في التلفزيون من جودة الشاشة والصوت في صالح الحاسوب وتحت أمره.

في هذا الوقت، ظهرت برامج البرودكاست، وهي برامج صوتية ترفع على الإنترنت، يرفعها من لديه مادة، سواء أكان تابعاً لمؤسسة، أو راديو، أو يقدِّمها بنفسه في أي مجال من مجالات التقنية والعلوم والترفيه والأخبار والفن وغير ذلك. ملف صوتي يرفع مع وصف نصي وكلمات مفتاحية على مواقع وبرامج خاصة بالبحث والتنزيل، ويشترك فيها المستخدمون ويتابعونها أولاً بأول، إذ تُعلِمُهم البرامج بوصول أية حلقات جديدة، ليستمعوا إلى ما يشاءون أينما يشاءون وقتما يشاءون، على أجهزة الأيبود أو الأقراص المدمجة أو حواسيبهم، في البيت أو في السيارة أو المكتب. لم يكن هناك أي مانع من توافر مواد مصورة تلفزيونية أطلق عليها اسم فيديوكاست بالطريقة نفسها. وهذا جعل برامج التلفزيون في جيب المشاهد. قد اختارها واشترك في قائمة مفضلة لديه، تصله التحديثات فوراً، ويبحث عنها ويستمتع في اللحظة نفسها. إضافة إلى كل هذه الميزات، فإنه يستطيع اختيار خيارات المشاهدة؟ ويتجاوز فقرات الدعاية ويمكنه تسريع صوت المتحدث أو اللقطات كما يشاء. إن كل هذا أصبح ممكناً وأكثر.

حدث كل هذا، والتلفزيون مازال على الطريق التقليدي الذي سار عليه منذ الستينيات، تقريباً، ما عدا إضافة بعض الجماليات والتقنيات الإخراجية والجودة التقنية. لقد كانت ردة الفعل باردة عندما قدَّمت الشركات الكبرى فكرة تقديم البرامج حسب الطلب في قنوات التلفزيون الموصلة للمنازل والتلفزيونات التي تعمل بالاشتراك عبر الأقمار الصناعية. فمشكلة البرامج المدفوعة هي أولاً في أنها مدفوعة، بينما بديلها المجاني متوافر، إن لم تسعف المشاهدين القرصنة وطرق المشاهدة التي تصبح شرعية بطريقة أو أخرى، مثل أن توفرها القنوات على الإنترنت بعد حين من بثها الأول، أو أن يشتريها المشاهدون من السوق في أقراص مدمجة. أما المشكلة الأخرى في خدمة «حسب الطلب»، فهي قلة التنوع، وعدم إمكانية البحث التي توفرها لوحة المفاتيح والإنترنت ومتابعة مستخدمي الإنترنت وتقييمهم.

زيادة على كل هذه التحديات، قدَّمت شركات مثل «أبل»، تلفزيون أبل، وهو عبارة عن صندوق يرتبط بتلفزيونك ليمنحك القدرة على البحث والترتيب واختيار الوقت والمادة التي ترغب في مشاهدتها. وليست هذه الشركة وحدها التي توفر هذه الخدمة. فهناك خدمة «بوكسي» (Boxee) وتلفزيون شركة «جوجل» وخيارات أخرى شتى. وقد ظهر مؤخراً موقع «هولو» (Hulu.com) الذي أسسه مالك قناة فوكس وقناة إن بي سي، ليوفر خدمة على مستوى العالم باشتراكات أو مجاناً، وتقدم برامج تلفزيونية على الإنترنت.

هل يستعيد التلفزيون مكانته؟

ميزة التلفزيون الأولى، أنه أعرق تقنياً وأسرع في توفير مادته دونما انتظار. إذ يضغط المشاهد زر التشغيل فيكون جاهزاً فوراً. وزيادة على ذلك، فإن البث فيه عالي الجودة على مستوى الصورة والصوت أكثر بكثير من الذي توفره الإنترنت في أغلب الأحيان، ولا ينقطع. ورغم اقتراب التقنية الحاسوبية بشتى أنواعها من المكتبية إلى المحمول، إلى الدفتري إلى الكفي، فإنه مازالت هناك هوة بينهما على هذين الصعيدين: الحضور المباشر والجودة.

فكيف نصلح من حال التلفزيون؟ هل ننقل إليه ميزات الإنترنت، أم ننقل ميزات التلفزيون إلى الحاسوب؟

هناك تذبذب في الآراء بين هذا وذاك؛ لعل أوضح مثال على ذلك، توجه قناة «سي بي إس» إلى عرض برامجها لتكون حسب الطلب للمشاهدين على الإنترنت. هذا ما يراه بعض الملاحظين خطأ كبيراً، ويقترحون مقابل ذلك توفير الخدمة عن طريق التلفزيون نفسه، وليس عبر شاشات الحاسوب مهما كانت كبيرة. إن ذلك ممكن مع توافر خدمات الاشتراك وتوصيل المادة عالية الجودة مثل تلك التي على أقراص مضغوطة عن طريق خط التلفون أو خطوط أخرى مماثلة، مع خدمات جديدة بدأت في الظهور مثل خدمة «Netflix» التي تمكِّن المشاهدون من تنزيل ما يريدون على أجهزة تخزين خاصة بهم في منازلهم، ويشاهدون ما يريدون وقتما يريدون.

يقترح آخرون أن نوصل حواسيبنا وأجهزة التخزين الحديثة الرقمية بالتلفزيون، لنتمكن من تنزيل برامج عالية الجودة إليها لمشاهدتها بعد ذلك، مع توافر كافة الإمكانات الخاصة بالبحث والاختيار والطلب والدفع أو الحصول على البرامج مجاناً.



لـن يكون هناك ما نعرفه اليوم باسـم قنوات التلفزيون التي تسيطر علينـا أكثـر ممـا نيسـطر عليهـا. سنشـاهد مـا نريـد مـن دون أن نتمسـك بقنـاة مـا. سـيختفي مـا يعـرف اليـوم بالقنـوات وشـبكات التلفزيـون، لتتكـون لدينـا مكتبـات صوتيـة ومرئيـة مع مسارد وتصنيفات ومحركات بحـث متقدمـة تجعلهـا رهـن الإشارة.

إن هنـاك ارتفاعـاً سـريعاً فـي كميـة ما يشـاهد النـاس من تلفزيـون علـى الإنترنـت، بشـكل ينبـئ بزحـف سـريع نحـو تلفزيـون آخر غيـر الذي نعـرف، والذي بقي على ما هو عليه لمـن لا يملـك التقنية ولا المعرفـة بالإنترنت. سـنحتاج إلى أنظمة جديدة في تسـويق هذه المنتجات وتوفير رخصة لما هو مدفوع الثمن وما هو مجاني.

من المؤكد أن تلفزيون المستقبل سيكون متفاعلاً بدرجة أكبر مع المشاهد، مما سيجعله أكثر من مجرد متلقٍ سلبي

تلفزيون المستقبل؟

إن التصـور المحتمل لتلفزيون المستقبل، هـو تلفزيـون يقـدم كل شـيء حسـب الطلب، ومفصل حسـبما يريد المشاهد تمامـاً. ويجب أن تتبدل الدعاية مما هي عليـه اليـوم إلى تلـك التي ترتبـط تماماً باهتمامات المشـاهد وما يفضله وتظهر له بشـكل لائق مناسب. سيكون كل شيء ذي طابع شـخصي لكل فرد مشـاهد، وسيكون من حق المشـاهد ألاَّ يكون مستقبلاً سلبياً يُفرض عليه كلُّ شيء، بل سيتحكم ويتفاعل مع من يتحدث معه أو يعرض عليه المادة. نعم، «يتفاعل»، وهي الكلمة التي نطلق بها على مـا يعرف بالتلفزيون التفاعلي الذي شـرع في الظهور، وبـدأ يثير اهتماماً جديداً غير معهود. سـيكون بإمكان المشـاهد أن يجيـب عـن الأسـئلة ويطلـب مـن المذيع شـيئاً، أن يبـدل منظـور المشـاهدة حسـبما يشـاء وهو يشـاهد حدثاً أو مبـاراة رياضية. ولقد ظهرت بـوادر مـن هـذا التلفزيـون التفاعلـي عـن طريق بعض المشـاريع الجديدة وشـركات التلفزيـون التي تقـدِّم مسـتوىً مختلفاً من التفاعلية على صعيـد اختيار البرامج والشـراء وتقديـم بعض الطلبـات، لكنه لم يصل بعد إلى ما وصفنا من توجهـات مسـتقبلية. إن هنـاك الكثير مـن التجريـب والمحـاولات فـي توحيـد التقنيـة التـي تضمن أفضل الحلول وأسـهل الوسائل.

إن شركة «جوجل» تعد بالكثير. وهي التي قدَّمت الكثير من الخدمات للإنترنت، وسهَّلت حياة الإنسـانية. إن تلفزيون جوجـل حسـبما يصـف قـادة المشـروع هـذا، سـيجلب كل ميـزات التلفزيـون مـع كل ميـزات ومحتـوى الإنترنـت معاً إلى مكان واحد هو «تلفزيون جوجل». سـيتمكن المشـاهد، بضغطـات زر قليلـة مـن جهـاز التحكـم عن بعـد الذي في يـده، أن يتجول بين البرامج ويشـارك بها الآخرين ويبحث ويتابـع بريـده الإلكترونـي ويتصفـح الإنترنـت ويسـتخدم «فيسبوك» و«تويتر» والبرامج الاجتماعية ويتسلى بالألعاب الإلكترونيـة، كل ذلـك فـي غرفـة المعيشـة التـي فيها هذا التلفزيون.

إن تلفزيـون «جوجـل» وتلفزيـون «أبـل» الـذي يوفِّـر مـادة المشـاهدات وخدمـات الصـور والملفـات الموسـيقية، وتلفزيـون «أمـازون» و«نتفلكس» كلهـا تعـد بالكثيـر مـن أجل تلفزيـون تفاعلي وذكي وسـهل الاسـتخدام، حاضر، عالـي الجـودة. وسـيذهب بنـا ذلـك التلفزيـون فـي طريق جديـد وثورة تلفزيونية جديدة، قد نسـميها اليوم، انتقام التلفزيون.



«آبل تي. في.» ثورة في عالم مشاهدة التلفزيون

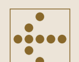
صورة شخصية



علي جامديد، معروف أكثر باسم العم علي عند آلاف التلامذة الذين كان يصحبهم يومياً، ولأكثر من ثلاثين سنة. من البيت إلى المدرسة، حتى أصبح جزءاً من الذاكرة الاجتماعية الحية في مدينة الخبر. عمر يوسف الذي يعمل اليوم محاسباً، يرسم صورة الرجل الذي عرفه جيداً، وحكاية النجاح العلمي والأبوي والاجتماعي الذي حققه «سائق الباص رقم 12».

رسم: المحترف السعودي - عمر صبير

العم علي..
سائق الباص رقم 12!!



هذه المدينة قدري ..
وهذه المدرسة بيتي ..
وهذه الحافلة رفيقتي ..

والحياة رحلةٌ طويلةٌ في حافلة كثيرة المقاعد .. يجلس كل منا ليؤدي دوره وعندما يصل إلى نهاية مشهده يترجل بكل هدوء، وهذه الحياة لاتقف طويلاً في محطة واحدة فغذاؤها الحركة والترحال.

بسنواته الخمسين، وشعره الأسود القصير وسمرته الحانية يطوف العم علي بيوت الخبر وشوارع الظهران منذ ثلاثين عاماً، ينقل الطلاب من بيوتهم إلى مدارسهم ويعيدهم إليها في نهاية كل يوم دراسي.

حتى في صباحات الشتاء الباردة وأيام الإجازات والعطل الأسبوعية لا يستطيع النوم بعد طلوع الشمس، فقد درج منذ ثلاثة عقود على الاستيقاظ كل صباح قبل أن تفتح المدينة عيونها، ليبدأ رحلة تجميع الأطفال باكراً، حتى يتمكن من الوصول قبل الطابور المدرسي بربع ساعة.

يعرف العم علي سكان المدينة كما يحفظ كل دروبها، في كل تقاطع بالخبر قصة طالب رافقه في رحلة الصباح لعام أو عامين في أقصر الأحوال.

لستة أعوام خلت، كنت أقف بانتظاره كسولاً نصف نائم كل صباح. وفي تمام السادسة والربع أجدني على مقعدي السادس من اليسار بقرب النافذة، وابتسامة العم علي لاتفارق وجهه حتى أستقر تماماً في مكاني. وعندها يغلق الباب بإحكام ثم يطلق صوت القارئ عبدالباسط عبدالصمد ليملأ الزمان والمكان. ولم أكن الأول في رحلة النور تلك. فقد سبقني أخي ماجد الذي يعمل مرشداً مدرسياً منذ خمسة أعوام، وقبله أخونا البكر خالد الذي يعمل اليوم محاسباً. ولأن العم علي إرث عائلي، لم يطمئن قلب أخي خالد على بكره وحفيد والدي الأول يوسف حين سجله في الصف الأول الابتدائي في المدرسة نفسها حتى حجز لصغيره مقعداً في حافلة العم علي..

هكذا يروي المحاسب عمر يوسف قصته العائلية مع الباص رقم 12..

لا وقت متأخر على التعلم

العم علي، واسمه الكامل علي جامديد، ذاكرة شرقية بامتياز. فهو يذكر الخليج العربي عندما كان ينام على سور الخبر القديم. وقلما وجد بيت لايعرف صاحبه أو

جاراً لصاحبه. فقد كانت المساجد معدودةً والمدارس معروفة ومحصورةً تلك الأيام. كما يعرف المطاعم القديمة وما زال يذهب كل عيد إلى محلات تجار الخبر القديمة التي بدأت منها رحلة الألف ميل. وهناك وسط الخبر ترتسم الابتسامات على وجوه الباعة، فالناس يعرفونه ويبتسمون له كمن يشاهد مقطعاً قديماً من فلم جميل يذكِّره بشيء من شبابه!

قربه من التعليم والمعلمين غرس حب التعلم في قلب العم علي، فهو يحكي عن نفسه أنه عمل في عدة شركات مختلفة خلال سنوات الطفرة. وحين قادته الأقدار لكي يكون سائق الحافلة رقم 12، اكتشف أن بإمكانه مجاراة الطلاب الذين ينقلهم كل صباح.. وبتوجيه من أصدقائه المعلمين وتحقيقاً لأمنية قديمة بقراءة اللوحات الإرشادية على الطرقات السريعة، انتسب إلى مدرسة عمر ابن الخطاب لمحو الأمية وفيها أكمل دراسته الابتدائية، ومن ثم انتقل إلى المدرسة المحمدية بحي البايونية ومنها نال شهادته المتوسطه بتقدير جيد جداً!

انعكس تعليمه المتأخر على حياته فنذر نفسه لتعليم أبنائه الثمانية. وقد احتفل قبل عام بتخرج بكره من كلية الطب، وينتظر تخرج ابنته كفنية مساعدة لطبيب الأسنان هذا الصيف. ويقول عن نفسه إنه سعيد جداً لأن الأحلام التي لم يستطع إكمالها قد أصبحت واقعاً بفضل التعلم والتعليم في المملكة العربية السعودية .

ويحكي المهندس وائل بوشه حكايته الطريفة مع العم علي في مطار الملك فهد الدولي رمضان العام الماضي. فقد كان وائل بصحبة طفليه أسامه وزياد عندما لمح رجلاً بطول العم علي ومشيته السريعة ورأسه المرفوع يمشي بجواره على عجل فلم يتمالك إلا أن يحضنه من الخلف، وحين التفت إليه العم علي ابتسم ابتسامة عميقة وضحك من أعماق قلبه قائلاً: «ماكل هذا ياوائل .. لقد أصبحت عجوزاً مثلي!!».

فلم يكن من وائل إلا أن عاتب العم علي على عدم حضوره عقيقة ابن أخيه الأصغر الذي كان أيضاً من أبناء العم علي وأحد مشاكسي الباص رقم 12..

في الخبر.. كالسمك في بحره

يعتقد العم علي أنه رجل محظوظ.. فهو لم يواجه أية صعوبات في السنوات العشر الأخيرة من عمره عندما كان يحتاج إلى إنهاء أية معاملة له في الدوائر الحكومية أو حتى عندما يكون في زيارة خاطفة لإدارة المرور أو المطار وحتى في البنوك.. فهناك على الدوام طفل أصبح كبيراً، ولم ينس مقعده خلف العم علي في الباص العتيق رقم 12.

إنني أتنفس البحر.. وكل الناس يتنفسونه في هذه المدينة الصغيرة الهادئة النائمة على كتف الخليج. فالخبر في عين العم علي لم تزل بكراً صغيرةً مقارنةً بالرياض العريضة جداً وبالعجوز الغارقة في التاريخ والحضارات المدعوة جدة.

وحول مدينته الخبر، يقول العم علي: «الناس هنا شأنهم شأن سكان كل المدن الساحلية خليط من هذا البلد الكبير المترامي الأطراف. ولأن المدينة حديثة العمر نسبياً فإن هويتها الكاملة لم تتبين بعد ولا توجد تلك العادات التي تصهر أهل المدينة جميعاً ولا تلك اللهجة الواحدة التي تميزهم عن أهل المدن الأخرى. إن إيقاع الحياة هنا سريع جداً فلا يبدأ النهار حتى تجد نفسك عائداً إلى العمل في الصباح الذي يليه. إنها مدينة لكسب العيش والتعايش والانفتاح على الآخرين».

ويكمل: «لقد زرت هذا البلد من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، فقد اصطحبت الأطفال إلى معرض أرامكو السعودية لأكثر من ثلاثين مرة. وكنا في كل رمضان نذهب إلى العمرة مع أوجه النشاط اللامنهجية، ورافقت بعثات الحج حتى زمن قريب، وقد زرنا جبل قارة في الأحساء ومدائن صالح ومزارع القصيم ومهد الذهب، وطفنا الحجاز ونجد».

لقد شكَّل العم علي بكاريزما السائق المربِّي والصديق لأكثر من جيل في العائلة الواحدة، قيمة جمالية لا يمكن لأحد من طلاب مدرسته أن ينساها أو يتناساها. لقد كان حنوناً عليهم وكان معروفاً بأنه السائق الذي لايتحرك من أمام الباب حتى يدخل الابن ويغلق باب بيتهم بالكامل، لذا كان يستأمنه الآباء على أبنائهم جيلاً بعد جيل..

لم تكن تلك صفته الوحيدة، فقد كان حاضراً دائماً في الأفراح والأتراح. وقَلَّ عُرْسٌ لطالب من طلاب الباص رقم 12 لا يتواجد فيه العم علي ناشراً الابتسامة والسرور.

يقضي العم علي إجازته السنوية بين مسجده الذي بناه في قريته، ومدرسة التحفيظ التي يشرف على تخريج أبنائها كل عام. فقد كان قدره أن يولد في هذه القرية البعيدة عن البحر وأن تختطفه مدينة أخرى لتلبسه لبوسها في كل الفصول.

فالحياة كما قال ويقول لأبنائه: «رحلة كبيرة في حافلة كثيرة المقاعد، يجلس كل منا ليؤدي دوره فيها، وعندما يصل إلى نهاية مشهده.. فإن عليه أن يترجل من الحياة بكل هدوء»!!



الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير



حمزة شحاتة

قامة مديدة في أغوار مجهولة



شاعر مُجيد ذو نظرةِ رهافة وشمول، وأديب ناثر نسج عالماً من سحر البيان، وحاك ألواناً من الثقافة بحضور بهيّ فريد، وفيلسوف مشحون بأسى الفكر وتباريح الحياة، تعروه مسوح نور يجبر العثرات. تفجّرتْ من عباراته ينابيع الحكمة والمنطق، فأخذتْ تسيل أدباً نميراً غنياً بومضات فكر النهضة والالتزام الأخلاقي. إنه حمزة شحاتة، الذي كثيراً ما نُعت بالقمّة الفكرية التي عُرفتْ ولم تُكتشف، وعُزي ذلك إلى غرابة الجوهر، ونفاسته بما اجتمع له من خصائص عبقرية الفنان، وسعة الفيلسوف، ونقاء الإنسان، وشرف المثقف. ولمناسبة مرور مئة عام على ولادة هذا الأديب الحجازي، الفذ، يصحبنا حذيفة أحمد الخراط في جولة بانورامية على عالم حمزة شحاتة الواسع سعة مجالات الفلسفة، والحميم حميمية الشعر والأحاسيس الشخصية.

قليلة هي تلك الدراسات الجادة التي تناولت ظاهرة «حمزة شحاتة». إذ لم ينل الرجل ما يستحقه من البحث الذي يليق به في سياقنا الثقافيّ. ولا بدّ من مسح غبار النسيان، وتقديم الأبحاث في صورة متكاملة عن فكر أديبنا وإبداعاته.

ولعل المقبل من الأيام يتيح للدارسين أن يضيفوا إلى القليل الذي عُرف عنه، الكثير الذي لا بد أن يقع في دائرة الضوء. فما كُتب عنه قليل من الوفاء لدَين رجل وهب بإخلاص كلّ ما يملك، وعلّق في بيوتات الأدب فوانيس التنوير والذوق الرفيع.

ابن جدة المظلوم

كان والد حمزة شحاتة سمّاكاً في سوق خضار القشاشية. وكان حمزة يساعده في البيع. وشاءت الأقدار أن يراه الشيخ عبد الرؤوف جمجوم، فعَرف فيه فراسته وفطنته، وعرض عليه ترك العمل، والالتحاق بمدرسة الفلاح في جدة. وإذا بالناشئ يصبح أحد أقطابها الذين أسسوا نواتها العلمية، وحملوا على عاتقهم عبء النهضة الفكرية والأدبية للبلاد.

وفي جدة، يتضح تأثير أجوائها المفتوحة في شخصية الفتى وفكره. فهناك أخذ يقرأ بشغف لكبار كتّاب التيارات التجديدية والرومانسية العربية في الحاضر والمهجر. وتلى ذلك رحلته الطويلة إلى الهند، مبعوثاً لمباشرة الأعمال التجارية لأسرة معروفة في جدة. وكانت هذه محطة مهمة في حياته، إذ انكبّ فيها على تعلّم الإنجليزية، والتزود بالمعارف، والاطلاع على روائع النتاج الأدبي الإنجليزي.

وأتيح لحمزة شحاتة ما لم يتح لكثير غيره من الأدباء، فقد نهل من الثقافة العصرية قدراً كبيراً، إلى جانب تمرسه بأساليب العربية العريقة، وتضلّعه بها، واطلاعه على المدارس الشعرية المستحدثة.

وعاد فارسنا بفكره المستنير إلى الحجاز قادماً من بلاد الغربة، ولم ينل في وطنه حظوته من الاهتمام، فتجرَّع كؤوساً مرّة من مظاهر إهمال المجتمع له. وبدأت في حياته الجديدة سلسلة طويلة من القصص الآسية تحمل المأساة والملهاة، وتزيد يقيننا بظلم هذه الحياة وعدم إنصافها، وتجعلنا نتساءل دائماً: كيف تجاهل الزمان رجلاً كحمزة شحاتة؟.

لقد تجاذبتْ الرجلَ وظائفُ لا تليق بما يحمله من فكر وقدرات، وليت الأمر وقف هنا، بل تجاوزه إلى ما هو أدهى وأمرّ، فكتب شحاتة في إحدى رسائله حروفاً تقطر أسى: «نحن الآن في الحجاز، وقد ضاق بعض المهتمين بحالي، فرشَّحني أحدهم مراقباً لُغوياً للإذاعة، فقالوا له استوثق مِن رضاه أولاً فأعلنتُ رضاي، فخرجوا من الموضوع بقولهم: إنّه يسخر منك، إنه لا يمكن أن يقبل». ويضيف حمزة في مرارة أشد: «إننا لا نزال هنا في الحجاز حيث لا يصدّق شيء، ولا يصدّق حتى إنّك في حاجة إلى عمل».

وعندما رفضه مجتمع مكة الثقافيّ، أسرّها حمزة في نفسه ولم يُبدها لهم. وآثر الهجرة بصمت، وقرر الرحيل عن الزمان الذي أنكره والأهل الذين تجاهلوه. فاختار القاهرة ورحل إليها ساخطاً، وهو يرى بأمّ عينه مَن هو دونه قيمة وقامة وقد ارتقى أعلى الوظائف حينئذ. وعندما سئل بعد حين: ألن تعود إلى الحجاز؟ ردّ بصوت زادته الأيام لوعة وعتاباً:

قالت الضفدع قولاً رددته الحكماء
في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء

ثم استشهد بقصة القائد العسكري الذي خسر المعركة لأسباب عشرة، ذكر أولها نفاد الذخيرة، فأعفي من ذكر باقي الأسباب، فقد شعر حمزة بنفاد ذخيرة نفسه، وأدرك أنه ما عادت بعدها تنفعه العودة إلى الحجاز.

عزلته في مصر

وأمام نيل مصر، وتحت ظلال مآذن القاهرة، وبالقرب من أصداء أوجه نشاطها الثقافية الخصبة، عاش حمزة شحاتة غريباً في كلّ شيء، في حياته، وفي فقهه للواقع، وإدراكه لكنه الحياة وما حوته من أشياء وكائنات، وفي بحثه الدؤوب عن جوهر الأفكار.

اختار حمزة الاعتزال، وقرر أن ينفرد بنفسه، وخاف الأضواء التي نفر منها، وتوقف عن نشر أيّ نتاج أو أدب، ولم يشأ قطّ أن يتواصل مع أدباء مصر رغم عز أدبها في تلك الفترة.

تقول مخبرة عن ذلك ابنته السيدة شيرين: «نشرتْ صحيفة الأهرام عن والدي ريبورتاجاً مصوّراً، ذكرتْ خلاله كلمات مستفيضة تمدح شخصيته وأدبه وشعره. وأذكر يومها أن صعد أحد جيران العمارة، وجاء بكلّ شغف وإعجاب ليقول لأبي وهو ممسك بالجريدة: أنت هذا الأديب العظيم والشاعر العملاق تسكن بيننا كلّ هذه الأعوام ولا نعلم عنك أي شيء من هذا؟، فردّ عليه أبي بمنتهى الأدب والتواضع وهو ينظر إلى الأرض: لستُ يا سيدي المقصود بهذا

الكلام، لشدّ ما كان يسعدني ذلك، ولكنه تشابه أسماء، فهناك حقاً أديب اسمه حمزة شحاتة، أما حمزة شحاتة الذي أمامك فهو إنسان عادي يعمل مربية لخمس بنات، فانصرف الجار وهو يعتذر لوالدي عن اللبس الذي حدث، وأخذ لسان حاله يقول في سره: يخلق من الشبه أربعين، وسارع حمزة شحاتة بعدها فأوصد باب داره خلفه».

لقد ترجم حمزة شعوره بكلمات أفعمتْ بحزن دفين: «بدأ الخريف وبدأتْ الأوراق تتساقط كما تتساقط أحلامنا في الفراغ الرهيب، لم أعد أقوى على احتمال هذا الشقاء وحدي بلا معين، وفي الليل عندما يهدأ كلّ شيء وينام، أظلّ أنا كالآلة تدور إلى غير نهاية. يا له من سجن رهيب هذا الذي أنا فيه، وسيجيء اليوم الذي أعتاد فيه على الظلام الدامس الذي فرضتْه الأقدار عليّ».



كان في غربته شبيه أبي العلاء المعري، أشقاه البعد عن الوطن، فزهد في مباهج الحياة

وتصل عزلة حمزة شحاتة ذروتها، فلا يجد حوله مَن يفهمه أو يشاطره الهموم والأحزان، فيعبِّر بعبارة تقطر أسى: «إنها ساعة حرجة أن تدور بعينيك محملقاً في جميع الوجوه والعيون، فلا تجد مَن يفهمك».

ويكتبها شعراً معاناته تلك:

«وسمعتُ صدى صوتي مبحوحاً..
يلهث.. يتقطع..
أأنا حرّ..
أأنا حقاً حرّ؟
أتثاءب.. أتسكّع..
أمشي.. أنظر..
أضحك.. وأنام..
ولكن أين أنام ...».

غدا حمزة شحاتة في غربته تلك شبيه أبي العلاء المعري. إذ تأثر الاثنان بالعزلة عن الوطن، وأشقاهما البُعد عن الأهل، وأظهرا زهدهما في مباهج الحياة. ونرى ذلك ينعكس بعمق ووضوح في الكثير من كتابات حمزة: «تمّتْ عزلتي الآن، ولم تعد لي علاقة بأحد إلا بالمقدار الذي لا يزيد عما يتهيأ لأي نزيل في فندق صغير. وكما يتهيأ لتلميذ يستأجر غرفة في بنسيون ولا يدفع الإيجار بانتظام».

«إنني أشعر بضغط الوحدة شعوراً مخيفاً، أراني غريقاً أتخبّط وأرسل صرخات الهلع، وأسمع أصوات ضحكات السخرية ممّن يتظاهرون بإنقاذي، إنها أقدارنا التي تدع لنا حريتنا في أن نسير ولكن إلى حيث تريد».



جروح قلبه

ويُقدّر لزواج حمزة أن يفشل، فإذا به يوصد باب قلبه أمام المرأة، ويعلنها مدوّية هروبه منها، واختار العزوف عن الغزل الذي لم يجد له حظاً بين صفوف ما نظمه.

لا تطرقي بابي.. فقد أوصدتْه الرياح..
ووهبتُ عمري للطبيعة بين ليلي والصباح..
وهربتُ من أسر الحياة ..
ورحتُ منطلق الجناح ..
وأفقتُ من حلمي الجميل على الحقيقة ..
وتسللتُ من حاضري أوهامُ ماضيك الحفيل ..
وفرغتُ من وصب الخيال ..
فلا اشتياق ولا غليل ..
وطرحتُ أعباء الشعور بكلّ ما قد كان منك .. وما يكون ..
وخلصتُ من تلك السفاسف والقشور ..
ومن فجاءات الجنون ..
ونعمتُ بعدك بالسكون .. فلا صراع .. ولا دموع ولا ظنون ..

ويسلخ حمزة من عمره سنين قضاها في تعليم بناته الخمس وتنشئتهنّ، وبخاصة بعد أن فقدتْ الفتيات والدتهنّ، فخلا البيت من الأم التي تدير شؤونه. فألقت حينئذ الأقدار على عاتق الوالد مسؤوليات جديدة، كان عليه خلالها أن يقوم مقام الأب والأم معاً، فكان يذهب بفتياته إلى المدرسة، ويعود بهنّ منها كل يوم، وفرض على بيته سياجاً يصون البنات من كل سوء، ولم يكن ليزوره أحد إلا أصدق الأصدقاء، بعد ترتيب موعد سابق يتمّ قبله تنظيم أمور المنزل.

يقول حمزة: «لقد اضطررتُ بعد عناد طويل امتدّ على غير جدوى، أن أكنس الغرفة الكبيرة بعد أن غدتْ غرفة نومي، وغرفة الجلوس والممر الضخم والحمام والمطبخ، واضطررتُ أمس لغسل سبع وعشرين قطعة ملابس».

«العمل المتواصل هو الذي يصنع الشخصية، ويبني الاعتماد على النفس ويضفّر عضلات العقل ويطرد سموم التفكير..»

ويقول أيضاً: « إنّ وضعي هنا على ما تَعْهده من انقطاعي عن الناس، وكفالة هذا المجتمع الصغير الذي أنزل من أفراده منزلة الأب والأم والمعلم والرقيب والخادم والمهرج أحياناً».

وتوجّه الأقدار مزيداً من ابتلاءاتها نحو حمزة، الذي أظهر من إيمان المؤمن وثبات الرجال الشيء الكثير، وما عُهد عنه إلا شموخه ورفعة رأسه، وأخذتْ ظروف الحياة الحالكة تتناوشه بين مدّ وجزر، ومن المحطات المؤلمة في حياته ما كان حين أجريت له عملية جراحية في عينيه، أخطأ الجراح بها، فإذا بضياء العين يخفت شيئاً فشيئاً.

ويسافر حمزة إلى إسبانيا لاستشارة أطبائها، وهناك فوجئ بأنّ الخطأ الطبي لا يمكن تداركه أو إصلاحه، وأيقن بأنّ العلم لا يملك له من الأمر شيئاً، فاستمرّ ضعف بصره، واحتاج إلى من يقرأ له ويسير معه، وكلّما ذكر أمامه خطأ الطبيب قال بإيمان صادق: «أخطأ الطبيب إصابة الأقدار».

لقد خلّفتْ تلك الظروف القاهرة في حياة حمزة وراءها أخاديد غائرة وجروحاً لمّا تلتئم. فالحرمان الأسَري، والاهتزازات الصحية، وقسوة الوحدة، وحنينه الدائم إلى الاستقرار المفقود، كلّها عوامل تركتْ فيه بصماتها الواضحات، ومع ذلك لم تنجح في تغيير رموز عمق الفكر، وعبق أصالة النفس، والعاطفة الجياشة، والرجولة المتماسكة التي لا يعيبها أن تبكي في وقت يجدر فيه البكاء.

يقول حمزة في لحظة صفاء يخاطب فيها قلبه، في أبيات طغتْ عليها أجواء قاتمة، حنّتْ إلى الماضي، وتخوفتْ من المستقبل:

حنانيك حدثني ولا تُخف ما وشى
به صمتك الآسي هوى متدفّقا
ويا قلب إن يعصف بك الحزن فاتئد
فما زلتُ ألقاك السمير الموفّقا
وقل كنتُ أهواه هواك ألم تكن
تنافثه نجواك غيران شيِّقا
أما كان بدراً فاق بدرك بهجة
أما كان أسنى منه وجهاً ومفرقا
ويا قلب إن يعصف بك الحزن فاتئد
فكم ضاع مسعى للقلوب وأخفقا

نظرته الفلسفية إلى العمل

وتركتْ كتابات شحاتة النثرية، الكثير من بصمات فكره الفلسفي، وظهر من خلالها حرصه على العمل الدؤوب وإتقان ما كان يكتبه ويقوله، وعن ذلك يعبّر: «العمل المتواصل هو الذي يصنع الشخصية، ويبني الاعتماد على النفس، وينمّي قوى الذهن والنفس، ويضفّر عضلات العقل، ويطرد سموم التفكير والتفاهات الذهنية والعاطفية، إنّ الحياة نشاط، والموت يوقف هذا النشاط».

ويقول في مقام آخر: «ليس هاماً أن يبدأ إنسان من أي مستوى، فالسفح هو أول المستويات، ويمكن أن يظلّ الإنسان مرتبطاً به ارتباطاً أفقياً، والصعود يقتضي الانتباه والتفكير، والسؤال هنا ليس كيف أصعد، وإنما ماذا ينبغي أن أفعل كي أحتفظ بمستواي الجديد، لكيلا أتدحرج؟».

ومن أجمل ما يعكس رؤية حمزة شحاتة الفلسفية في الحياة أبياته:

أيها الكادح الذي اتخذ الوعر سبيلاً إلى السعادة رفقا
هي وهم مجدد أنت منه في نضال تنوء وتشقى
وهي لغز تمضي الحياة ولا تكشف عنه الظنون خرقاً ورتقا
كم سرينا على سناياها حيارى نركب الوعر والعواصف خرقا
فإذا نحن في كفاح مرير بين سار على الكلال وملقى

حنينه إلى جدة

وكثيراً ما تغنى حمزة بشوقه إلى وطنه الذي كواه بُعده عنه، وكان يجد في قلمه متنفّساً لما يدور في صدره من مشاعر دافئة، تجاه تلك السنين التي قضاها في ربوع حبيبته (جدة)، التي عشق بحرها وبرها وذرات رمالها،



وها هو يتغنى بشطآنها، ويبثّ همومه وأحزانه إلى لياليها الدافئة:

النهى بين شاطئيك غريق
والهوى فيك حالم ما يفيق
ورؤى الحب في رحابك شتى
يستفزّ الأسير منها الطليق
ومعانيك في النفوس الصديات
إلى ريها المنيع رحيق
ويذوب الجمال في هيكل الحب
إذا آب وهو فيك غريق

الخطيب التنويري

وبزغ نجم حمزة شحاتة أيضاً في فنّ الخطابة. فإذا به المحاضر المفوّه الذي يتكلّم فينصت له حضور أحبّه، وأسرَه الانسياب السلس للكلمات، والترابط الأنيق للأفكار.

ومن أروع محاضراته التي هزّتْ واقع الأندية الثقافية في تلك الحقبة: «الرجولة عماد الخلق الفاضل»، التي ألقيتْ في جمعية الإسعاف بمكة، وأثار فيها الفتى ذو الثلاثين ربيعاً، فضول شيوخ مكة ومثقفيها، إذ سطعتْ قوة بلاغته، ونمط تفكيره الفذ. ففي تلك الليلة صفّق الحضور أكثر من ثلاثين مرة، وهم يعبّرون عن إعجابهم بخطاب شحاتة، وما ضمّه من أبعاد فكرية عميقة ومضامين فلسفية بنّاءة.

لقد كان تنوير المجتمع وإصلاحه هدفَين رئيسين، سعى حمزة شحاتة بقوة إلى تحقيقهما. وكثيراً ما دعا في خطبه إلى النهوض بالمجتمع، ونادى برفع شأن الوطن، وعبّر عن تضامنه مع كفاح الدول العربية آنذاك، ومناصرته لقضايا الشعوب المستضعفة.

ونرى شحاتة وهو يرقى هنا بمشروعه الإصلاحيّ إلى درجة سامية، حرص فيها على الدعوة إلى توخّي الحياء، عماد الدين والإنسانية، الذي يبني الحياة الفاضلة.

يقول شحاتة في خطبته البديعة تلك: «أيها الخطيب الذي يُضلّل الضمائر ويقول ما لا يعتقد، استحِ. أيها المتحدّث الذي يخدع أخاه بما يضمر ضدّه، استحِ. أيها الكاتب الذي يئد الحقّ والجمال والقوة ليظهر، استحِ. أيها الشاعر الذي يصنع الكذب والباطل والملق في شعره، فيسجّل به عاراً على أمّته، استحِ. أيها الكريم الذي يقيم المآدب ينفق عليها المئات في مأتم أمّته، استحِ. أيتها المَدرسة التي تدفع إلى الحياة شباباً حائراً لا يعرف سبيله في الحياة، استحِ. أيتها الأمة التي لا تبني مَدرسة تصنع الرجال الأقوياء، يقيمون مجد الوطن، استحِ. أيها المتعلّم المترفّع عن غشيان معترك الحياة، استحِ».

«أيها الوطني الصادق، إنّ أعجزك الجهاد لأنك ضعيف، فجهادك أن تأخذ بيد الضعيف تواسيه، وبيد الحائر تهديه، وبيد المصاب تعزّيه، وبيد العاثر تنهضه، وجهادك أن تنفخ في الضمائر حتى تحيا».

رسائله إلى ابنته

ونرى أيضاً أنّ لحمزة شحاتة حضوراً قوياً بين صفوف أدباء الرسائل، وبين أيدينا مجموعة من رسائله الأثيرة، خصّ بها ابنته شيرين، التي أعادت إلى والدها حنينه

القديم إلى الكتابة. إذ شجّعه على ذلك شوقه إليها بعد أن عادت إلى وطنها برفقة زوجها، وما هي إلا أيام حتى غدتْ شيرين ملهمة أفكار رسائل حمزة شحاتة.

كان حمزة قد رفض بحزم مقترح ابنته في نشر تلكم الرسائل، ونجح الأصدقاء لاحقاً في إقناع شيرين بالعدول عن تلك الفكرة بعد رحيل والدها، حتى لا تُحرم مكتبات الأدب العربي من كنز نفيس كهذا.

وفي رسالات شحاتة إلى ابنته، تدفقتْ مشاعر صادقة من الأبوة الحنون، وترقرقتْ شلالاً من الضوء والألوان البديعة. وقد ترك لريشته العنان، فشعّتْ بذلك لمسات الجمال والفن والذوق الرفيع. وارتفعتْ رسائله إلى مصافّ الأعمال الأدبية الفريدة، التي لم تضطرب فيها عبارة، أو يضعف خلالها سبك أو ترابط لتسلسل الجمل والأفكار.

بعد عزلته في حياته، أصبح الحاضر دائماً في الحديث عن رموز التنوير في القرن العشرين

«ابنتي شيرين، لا تزالين بيننا، وأظنك في غير حاجة إلى البرهان، فصوتك وضحكاتك تملأ أرجاء البيت، إنّ الفراغ الذي خلّفه لنا بعادك عنا سيتسع ويكبر، وهذا يعني لي مزيداً من القلق والعذاب. إنك دائماً أمامي وصوتك ينساب إلى أذني وقلبي رقيقاً حانياً، وأنفاسك تتردّد على وجهي، فتلطّف حرارة إحساسي بالضنك والمرارة والعذاب».

«تشجعي ولا تقلقي ولا تخافي، وتذكري أنّ الحياة سلسلة من الصدمات لا نتغلب عليها إلا بالمزيد من الصبر والقدرة على التكيف، ولا شيء في الحياة يتحقق بغير جهد وصبر وعراك دائم مع متناقضاتها».

«نعم أنتِ هنا ملء فكري وبصري ونفسي وشعوري وخيالي، وملء أملي واعتزازي، لا تدعيني أقلق عليك، وهذا رجاء أيتها الحبيبة الغالية».

«إنّ قلبي يا صغيرتي يتابع خطواتك وأنفاسك، يرفرف حولك سعيداً بما يحسّه من فرحتك بالحياة، شقياً تعساً بما يخشاه عليكِ حتى من حرارة الجو وبرده، ومن قلق لحظة يعرضك له عارض عابر أو خيال بارق. إلى اللقاء يا حلمي البهيج، يا كل شيء لي».

ولحمزة شحاتة فلسفته الخاصة في فهم فقه الجمال، تستند إلى رؤية شاملة لمحيطه الخارجي بكلّ ما فيه. كما أنّ له رؤية جمالية ثاقبة، يرتبط فيها السبب بالمسبّب ارتباطاً وثيقاً، ومن أقواله في ذلك: «والجمال في ذاته ما هو؟ أهو تجاوب القسمات، واتساق الملامح، واكتمال الانسجام، أم هو معانٍ مكنونة ودواعٍ تعبِّر عنها ظواهره البادية؟».

«فالجمال ليس في صور الأشياء، بل في الشعور بتلك الصور، وإذابة بواعث الفتنة التي تتحوّل إلى حطام من المعاني الفاترة السخيفة، ولهذا يتفاوت الموقف لدى المتأمّلين باختلاف شعورهم وتلون أحاسيسهم. إنّ الجدول المترقرق، والحقل المهتز، والنسمة الطليقة، والبدر المشرق، والليل الساجي، مظاهر جمالية، لكنّ جمالها ليس في ذاتها، وإنما فيما تولّده في النفوس من معاني تلك المظاهر المتجددة التي تقاوم الثبات».

«إنّ الزمن لو كان ربيعاً كلّه، لفقد الربيع معنى سحره وألقه وروائه الأخاذ. ولذلك، كان تعاقب الصور وتجددها شرطاً لازماً لضمان تأثير الجمال وتأثير معانيه. فالماء يظلّ ماءً بعد أن يروي العاطش منه، وما يفنى هي تلك الخطرات التي نجدها عند من بلغ به الظمأ مبلغه، فإذا ما ارتوى تلاشت، وظلّ الماء على حقيقته».

إذن فعماد الجمال لدى حمزة يقوم على الرفع من قيمته المستترة، والبحث عن معاني الحبّ السامية، واستنطاق أسرارها الخبيئة، والتنقيب عنها بالغوص في أعماقها، وللجمال في نظر هذا العاشق معنى لا تحدّه النظرة، ولا تقيّده الفكرة.

غياب الفارس

وفي القاهرة في أواخر سنة 1390هـ، رحل الفارس النبيل عن دنيانا بهدوء. وترك في أعماق مَن عرفه شجوناً، أنّى تنتهي، وغدا حمزة شحاتة الغائب الحاضر، إذا ما ذكر الشعراء ورموز التنوير والقيم الفاضلة. ولم يتمالك نفسه محمد صالح باخطمة صديق الشاعر الأثير ورفيق دربه في القاهرة، فأخذ يرثيه بأبيات مليئة بالنظرات والعبرات، جاء فيها:

الفارس غاب ..
ركب الفرس المغسول بضوء الفجر ..
وسار ومضى لا يلوي ..
ترك الفانية وليس لحيّ في الأمر خيار ..
ومضى في دنيا باقية ..
لا يُسمع فيها صوت الأشرار ..
سكت الصوت المجلو بلون الصبح فما ثَمّ هزار ..
بقيتْ بسمته للإنسان ..
بقي الفكر الصافي ..
يعطي الحكمة إن الدنيا ليل ونهار ..

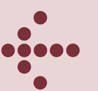




يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.. أو قد تختار القافلة قصيدة لشاعر معاصر.

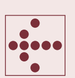


جنون العظمة عند الشعراء.. جميل



يستضيف «ديوان الأمس.. ديوان اليوم» في هذا العدد الشاعر السعودي محمد رضي الشماسي، الذي يقدِّم لنا مختارات من أبرز ما قيل في الشعر العربي في فن الفخر والاعتداد بالذات قديماً وحديثاً، إضافة إلى قصيدة له بعنوان «أيها الشاعر» لديوان اليوم.

الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير



النرجسية كلمة حديثة معربة، وما تحتها من اشتقاقات معنوية متعددة مثل الاعتداد بالنفس، وجنون العظمة، الكبرياء، التكبر والمرح، والاختيال؛ كل هذه الكلمات تعبّر عن ظاهرة بشرية، غالباً ما تكون عند الموهوبين وأصحاب الفنون الراقية كالعلماء والأدباء والشعراء والرسامين وغيرهم ممن هم على هذا النمط.

تظهر هذه السمة بوضوح لدى المثرثرين بكلمة (أنا) فتكاد لا تسمع منهم إلا عبارة (أنا كتبت) أو (أنا نظمت) أو (أنا ألّفت) و(أنا عملت وأنا فعلت...). وهذه ظاهرة غير محمودة، ينفر منها السامع والقارئ. ولعلها ثرثرة يريد منها صاحبها أن يبني منها مجداً كاذباً. أما الأثر المحمود من هذه الظاهرة فهو ما يأتي أدباً وشعراً، تفيض به قرائح الشعراء تعبيراً عن مكنونهم الفني الراقي الذي قد لا يرون له أثراً في محيطهم وبين بني سحنتهم، أو لأنهم يعيشون النرجسية مظهراً سلوكياً يفرضه عليهم إحساسهم بالفوقية والتفوق؛ فأبو العتاهية مثلاً عندما سئل: أتعرف العروض؟ قال: «أنا أكبر من العروض»، كما قال عن نفسه: «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت».

وقد جاء في تاريخ الشاعر أبي تمام أنه قيل له: لماذا لا تقول ما يفهم الناس؟ فكان جوابه: «ولماذا لا يفهم الناس ما أقول». وقد جاءت هذه العبارة مرة أخرى على لسان المرحوم عباس محمود العقاد عندما وُجِّه إليه السؤال نفسه. أما في ذلك الخليط من الشعراء فإن ظاهرة النرجسية أو الاعتداد بالنفس؛ فإنها تكون أكثر بروزاً، ولعلها تصل لدى بعضهم إلى حد الجنون (جنون العظمة).

وبنظرة شاملة في ديوان الشعر العربي؛ ابتداءً من العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث؛ نرى عدداً من الشعراء تكبر في نظرهم نفوسهم، وتشمخ في مفاهيمهم مواهبهم، فهذا عنترة بن شداد، فارس بني عبس يقول مفتخراً بنفسه: (جواهر الأدب لأحمد الهاشمي)

ولو أرسلت رمحي مع جبان ... لكان بهيبتي يلقى السباعا
ملأت الأرض خوفاً من حسامي ... وخصمي لم يجد فيها اتساعا
إذا الأبطال فرت خوف بأسي ... ترى الأقطار باعاً أو ذراعا

وفي قصيدة أخرى يقول:

ورمحي ما طعنت به طعيناً ... فعاد بعينه نَظَرَ الرشادا
ولولا صارمي وسنان رمحي ... لما رفعت بنو عبسٍ عمادا

لا أريد الاسترسال في هذا الموضوع فأقوم بعملية مسح زمني ماراً على جميع العصور الأدبية عصراً فعصراً أو شاعراً فشاعراً، وإنما هي أمثلة أسوقها على هذه الظاهرة النفسية لدى الشعراء، وقد أتخطى بعض العصور كالعصر الأموي مثلاً، وهو عصر زاخر بالفخر، وهو عصر أصحاب النقائض (الأخطل والفرزدق وجرير) الذين ملأوا الساحة الأدبية حينئذ بفخرهم ومدحهم وهجائهم.

ثم إن الشعراء الماضين -في عامتهم- كانوا يفتخرون بالقبيلة أو العشيرة، وإن كان الواحد منهم يدخل ضمناً في مجموع القبيلة أو العشيرة، حتى إن مفهوم الفخر في فحواه التاريخي لم يعد من أدبيات العصور المتأخرة، شأنه شأن الهجاء كباب من أبواب الشعر العربي القديم، فنحن اليوم لا نقرأ □ غالباً □ شاعراً يفتخر وآخر يهجو، أو ديواناً يُبوّب في الفخر، وآخر يُبوب في الهجاء. وإنما الذي نجده ونقرأه هو الفخر بالنفس، الذي نطلق عليه الاعتداد بالنفس، أو جنون العظمة، أو الكبرياء، أو التكبر أو المرح (من قوله تعالى: ولا تمش في الأرض مرحاً)، أو حسب التعبير الحديث (النرجسية) وهذا اللفظ هو جُماع كل تلك الألفاظ التي جاءت على نسق واحد من المعنى.

أكتفي بذكر شواهد من شاعرين قديمين هما المعري والمتنبي، ومن العصر الحديث: الجواهري وبدوي الجبل وأبي ريشة، ثم صاحب هذا الموضوع وإن كنت أنا خارج سربهم، ومتطفلاً على موائدهم.

مع أبي العلاء المعري

يقول أبو العلاء المعري:

وإني وإن كنت الأخيرَ زمانُه ... لآت بما لمْ تستطعه الأوائل
ولي منطقٌ لم يرض لي كنه منزلي ... على أنني بين السماكين نازل
لدى موطن يشتاقه كل سيد ... ويقصر عن إدراكه المتناول
ينافس يومي فيَّ أمسي تشرفا ... وتحسد أسحاري عليَّ الأصائل

ولكن هذا الشاعر المعتد بنفسه وبمنطقه، والذي امتلأ غروراً وكبرياء وحتى أمام أكابر عصره وعظماء فنه وفلسفته كالشريفيين الكبيرين في علمهما وأدبهما: الشريف المرتضى والشريف الرضي، أعجزه غلام عندما قال له: ألست القائل: وإني وإن كنت الأخير زمانُه / لآت بما لمْ تستطعه الأوائل قال المعري: بلىً .. قال الغلام. حروف الهجاء 28 حرفاً فأت لنا بالحرف التاسع والعشرين. أجاب المعرِي: لقد أعجزني هذا الغلام.

ومع المتنبي

أما الشاعر الذي فاق المتقدمين والمتأخرين في الاعتداد والشموخ والنرجسية بكل ما لهذه الكلمات من ظلال معنوية وإيحاء نفسي، فهو الشاعر الفذ المتنبي، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ملأ الدنيا بشهرته، وشغل الناس بشعره. لقد تعددت أقواله الاستعلائية بتعدد مواقفه، فلا يكاد يقول قصيدة، إلا وتجد (الأنا) إحدى نغمات شعره وبنات أفكاره. يصدح بها حتى في مجالس الحُكَّام وبين العلماء وأرباب الشعر ونقاده.

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي



وأسمعت كلماتي من به صمم
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم

هذه الأبيات من قصيدة قالها بين يدي سيف الدولة الحمداني، وفي حضرة جمع من العلماء والشعراء، فلم يهب مقام سيف الدولة، ولم ترعه هيبة المجلس، حتى وقف بشموخ ليقول:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم

وفي موقف آخر مع سيف الدولة، يقول وهو يهنئه بعيد الأضحى:

وما أنا إلا سمهري حملته
فَزَيَّنَ معروضاً وراع مسددا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغني مغردا
أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما
بشعري أتاك المادحون مردَّدَا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

وهذا البيت الأخير يأخذ بذاكرة مستقرئ ديوان المتنبي إلى قوله:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطاول

واستعلاء المتنبي لا ينتهي في شعره، وكأنه هو المعلم الأول لهذا الضرب من القول، لكل من جاء بعده من الشعراء أصحاب النزعة النرجسية.

وأختم قولي في نرجسية هذا الشاعر الفذ بقوله في شعره:

إن هذا الشعر في الشعر مَلَك
سار فهو الشمس والدنيا فلك

وفي العصر الحديث.. مع الجواهري

وتخف حدة النرجسية أو تكاد لدى الشعراء المتأخرين، بلغت ذروة توهجها لدى المتنبي، وخبت عند المتأخرين، حتى لا نكاد نراها في مضامين أشعارهم، وخصوصاً الكبار منهم، فهذا الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري، لم أجد في مطولاته وفي شعره الكثير إلا القليل النزر من نرجسياته، كمثل قوله في قصيدة «يا ابن الفراتين» التي ألقاها في مهرجان الشعر العربي ببغداد عام 1969م:

يا شاتميَّ وفي كفي غلاصمهم
كموسع الليث شتماً وهو يُزدرد
أتلطمون جبين الشمس إن قذيت
عيونكم فبها من ضوئها رمد

وفي قصيدته (هاشم الوتري) وهي مطولة (131 بيتاً) تبرز نرجسيته في قوله:

وتقول كيف يظل «نجم» ساطع
ملء العيون عن المحافل غائبا
كذبوا فملء فم الزمان قصائدي
أبداً تجوب مشارقاً ومغاربا
تستل من أظفارهم وتحط من
أقدارهم وتثُل مجدا كاذبا
أنا حتفهم ألج البيوت عليهم
أغري الوليد بشتمهم والحاجبا

وما قول هذا الشاعر الجواهري: «كذبوا فملء فم الزمان قصائدي» إلا صدى من قول المتنبي:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وإن قلت الشواهد الشعرية على كبرياء هذا الشاعر وجنون عظمته، فإن تقريظه لنفسه يوفر علينا كثيراً من الجهد في استقراء نرجسيته من خلال ديوانه الضخم ومطولاته الشائكة الشائقة، يقول (رحمه الله): (أكبر شاعر في هذا العصر بدوي الجبل وشاعر آخر). وما هذا الشاعر الآخر الذي لم يَفُه باسمه إلا الجواهري نفسه.

ومع بدوي الجبل

بدوي الجبل هو الآخر شاعر معاصر توفي عام 1981م. شاعر سوريا الكبير، ومن أبرز الشعراء العرب في العصر الحديث.

لم يستطع هذا الشاعر العملاق التفلُّت من جنون العظمة والاستعلاء. وكيف يتفلت وهو يرى نفسه محاصراً بسياج من المعجبين والمصفقين، فهو مثل ذينك الشاعرين الجواهري وأبي ريشة اللذين تسبقهما شهرتهما إلى المحافل الأدبية الكبيرة.

يقول البدوي:

الخالدان ولا أعد الشمس شعري
والزمان

ويقول في قصيدة أخرى:

كل مجد يفنى ويبقى لشعري
شرف باذخ ومجد أثيل

وفي قصيدة ثالثة يقول:

فمن مبلغ عني الشباب قصيدة
يُجلي بها مُلك ويُحمى بها ثغر
تطوِّف في الدنيا الوساع كأنما
هي الخضر أو يروي شواردها الخضر

استعلاء الشاعر بشعره كاستعلائه بنفسه وكلاهما من وحي آلام العبقرية التي يحس بها هؤلاء الأفذاذ فتظهر على فلتات أشعارهم بعد معاناة تنصهر في داخل وجدانهم. والمحيط الخارجي هو المسؤول عن هذا الفيض الوجداني، إيجاباً كأن يرى الشاعر مدى أهميته في وسطه الذي يعيش فيه، أو سلباً كأن يرى نفسه يعيش في قاع المحيط وليس في أعاليه.

فشاعرنا بدوي الجبل من شعراء الصنف الأول طبعاً فإذا استعلى، أو (تنرجس) فهو حري وجدير بهما، لا أحد يستطيع أن يقول له: أنت من أدعياء النرجسية. وفي هذه الأدبيات صدى من قول المتنبي:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي....
فسار به من لا يسير مشمراً .....

ذلك نموذج من استعلائه الشعري أما استعلاؤه النفسي فظاهر في قوله:

وما حاجتي للنور والنور كامن
بنفسي لا ظلٌ عليه ولا ستر
وما حاجتي للأفق ضحيان مشرقاً
ونفسي الضحى والأفق والشمس والبدر

ويكفي بدوي الجبل في عظيم شأنه قولة الجواهري: «أكبر شاعر في هذا العصر بدوي الجبل وشاعر آخر» ..

ومع عمر أبو ريشة

عمر أبوريشة ثالث الثلاثة الذين تألق بهم الشعر العربي الحديث. وهو ممن شمخوا بالشعر وشمخ الشعر بهم. يقول أبوريشة معتداً بنفسه:

رب ما زلت ضاربا
من زماني تمرده
صغر اليأس لن يرى
بينَ جفنيَّ مقصده

ويقول في قصيدة «عنفوان»:

لم ترتشف دمعي شفاه الهوانْ
ولم يناد المجد هذا جبان
فاعصف فإني صخرة يا زمان

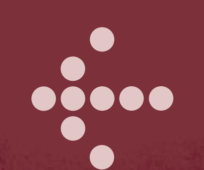
طلعت في دنياي عفَّ الرداء
وملء جنبيَّ انتفاض الإباء
أمشي ويمشي في ركابي الرجاء

وقال في قصيدة «هذه أمتي» بعد خروجه من السجن:

شاعر لو شكا الحياة لكانت
سروات الملوك من ندمانه
أقسم المجد أن يمر على الأرض
ونجوى الإباء خلف لسانه
عاد للروح عندليبك يا شعر
ومات النعيب في غربانه

وقال في قصيدة «عرس المجد»:

يا عروس المجد حسبي عزة
أن أرى المجد انثنى يعتز بي
رب لحنٍ سال عن قيثارتي
هز أعطاف الجهاد الأشيب



أيها الشاعر..!

شِعر: محمد رضي الشماسي

أيها الشاعر الذي نفض الصمت   وألقى غباره في يديا

وأزاح الستار عن مخمل الشّعر   وأورى زناده العبقريا

وأماط المساء عن فلق الصبح   وأوحى من الشعاع النديا

وأفاض الضياء شعرًا وأسدى   من عطاياه ومضة للثريا

وأراق الدجى مداد يراع   مثلما يسكب الحبيب الحميا

أسرج الليل بالضحى فتهادت   سكرات المنى على راحتيا

فانتشى مضجعي ورقّت وسادي   (واستراح الغرام في مقلتيا)[1]

ومشى طائف من الشعرِ حولي   مَلَكًا تارةً وطورًا رئيًّا

ينزل الشعر من منازله البكر   ويُضفي سحر البيان عليا

نبوي الهوى نجيّ فؤاد   أريحي المنى شفيفا نقيّا

غزليًا إن شاء شيطان شعري   ماجنًا يعشق الملاح غويا

ينفث السحر من مضارب ليلى   ويذيب الهوى على شفتيا

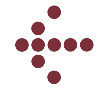
ويرش الرؤى بعطر الغواني   حالماتٍ وسحرها البابليا

ويموج الهوى بحلم الصبايا   حيث يستاف حلمها العذريا

والعذارى على مهب نسيم   لغدٍ تجتلي الهوى الورديا

بجوى شادنٍ ورنة كأس   وصدى مزهر يقول: إليا

(1) هذا الشطر تضمين من بيت للشاعر بولس سلامة.



منذ سنوات ثلاث وحتى الآن، لا تزال «ثلاثية الألفية»، للكاتب والصحافي السويدي ستينغ لارسن، ضمن قوائم الكتب الأكثر مبيعاً في أوروبا. وستبقى موضع قراءة وتحليل للعامين المقبلين على أقل تقدير، مع بدء السينما الأمريكية بتصوير هذه الثلاثية سينمائياً، بعدما صورتها السينما السويدية.
الدكتورة مرام عبدالرحمن مكاوي*، قرأت الترجمة الإنجليزية لهذه الثلاثية، وتعرض مواضع الفرادة والتميز فيها، بدءاً بنوعية «الأبطال» الذين لا عهدة لنا بمثلهم في الروايات البوليسية، وصولاً إلى القضايا الاجتماعية التي قد يدهش الكثيرون لطبيعتها والمسارات التي يمكن أن تسلكها في بلد مثل السويد.

«ثلاثية الألفية»

فتح سويدي في رواية الجريمة



ليس بالمستغرب أبداً أن تكون جالساً تتناول قهوتك المفضلة في مقهى ما في أية مدينة أوروبية، فإذا بالزبون الجالس أمامك يمسك برواية يظهر من غلافها أنها إحدى روايات ثلاثية الكاتب السويدي ستينغ لارسن، والمعروفة بـ «ثلاثية الألفية» (The Millennium Trilogy).

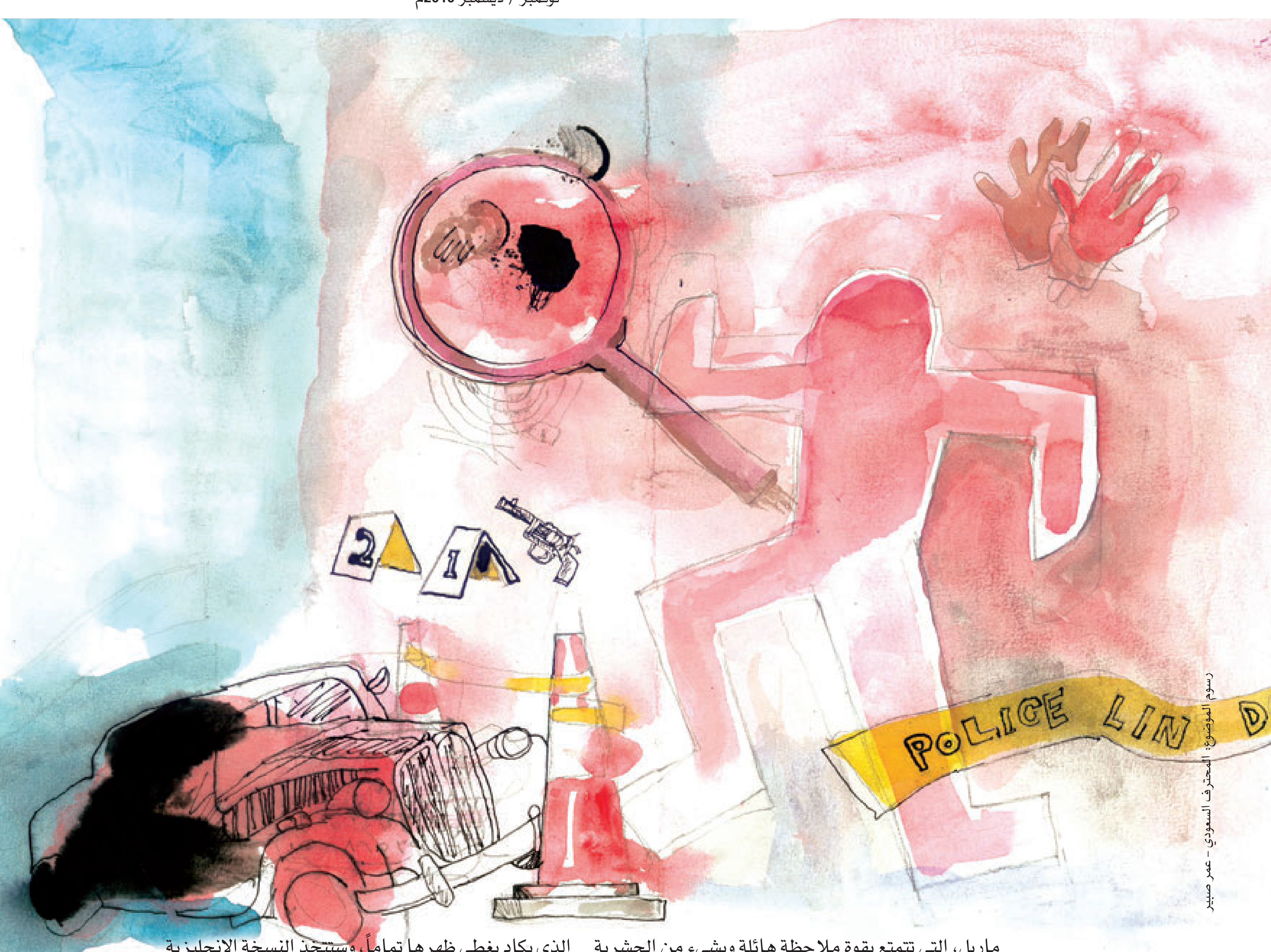
فهل تمكّنت الروايةُ من إماطة اللثام عن حقائق قادرة على حمايةِ نفسها مهما خبّأتها عباءات الزيف وتسترت عليها؟

وسيتكرر الأمر نفسه إن كنت مسافراً.. فستلمحها في أيدي القُرَّاء في الطائرات والقطارات وعربات المترو والباصات.. ستشاهد بعضهم يقرؤها في نسختها الورقية وآخرين يقرأونها على أجهزة الآيباد أو الكندل وغيرها من المتصفحات الآلية. فهذه السلسلة تُعد إحدى أكثر الروايات مبيعاً منذ سنوات ثلاث. وازدادت شعبيتها مع ظهورها كأفلام تعرض على الشاشة الفضية. فليس بمستغرب إذن أن تنال الرواية كما الأفلام التي جسدتها وأبطالها العديد من الجوائز المحلية والعالمية.

بطلة من نوعية جديدة

في معظم الروايات والقصص البوليسية التي عرفناها، كان البطل هو المحقق العبقري.. وهو في العادة رجل مهذب، (جنتلمان كما في التعبير الإنجليزي)، يعاني من شيء من غرابة الأطوار، وله شيء محدَّد يميزه كما في شارب المحقق الخاص هيركول بوارو أو في غليون شرلوك هولمز. ومن النادر جداً أن تكون امرأة هي البطلة الرئيسة في روايات كهذه، باستثناء عجوز القرية اللطيفة مس

* كاتبة سعودية مقيمة في لندن



رسوم الموضوع: المحترف السعودي - عمر صبير

ماربل، التي تتمتع بقوة ملاحظة هائلة وبشيء من الحشرية أو حب الاستطلاع كذلك، كما أن لديها معرفة بطبائع النفس البشرية عبر تجربتها العمرية. أما لارسن، فقد اختط لنفسه خطاً مخالفاً تماماً، فقد غيَّر وجه البطلات الجميلات اللاتي هن عليه في معظم الروايات والأفلام. فبطلته فتاة شابة في أواخر العشرينيات من العمر، ضئيلة البنية وملامحها الأنثوية الجسدية شبه معدومة، ومهاراتها في التواصل الاجتماعي صفر، بينما مهاراتها الحاسوبية لا تُقدَّر بثمن.. فهي مخترقة أنظمة «هاكر» محترفة، وتتمتع بذاكرة تصويرية مذهلة، ولذلك تدور شكوك حول إصابتها بمرض التوحد أو بأحد أطيافه، وهي فوق ذلك مدخنة شرهة، وتبدو هيئتها الخارجية وكأنها من أعضاء جماعات الهيبيز الذين ذاع صيتهم في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. إذ ترتدي سراويل ومعاطف الجلد الضيقة والكعوب العالية، وتنتشر في وجهها وجسمها الحلقات الفضية، ولها ذوق صارخ مخيف قليلاً في الماكياج، وثمة وشوم في أرجاء مختلفة من جسمها.. أشهرها وشم التنين الذي يكاد يغطي ظهرها تماماً، وستتخذ النسخة الإنجليزية من الرواية عنوانها منه. فإذا كانت هذه هي مواصفات بطلتنا.. فأية بيئة أحداث تلك التي ستؤدي دورها ببراعة فيها؟

الجزء الأول: فتاة وشم التنين

الاسم الحقيقي لهذه الرواية في النسخة السويدية هو «الرجال الذين يكرهون النساء». ولعلي أميل أكثر إلى العنوان الإنجليزي الذي جعلها أكثر إثارة وتشويقاً.

هناك ثلاثة خطوط رئيسة تدور حولها القصة حتى يبدو للوهلة الأولى أنه من الصعب أن تلتقي خطوط أبطالها وعقدهم الدرامية، فهناك الصحافي الشهير ميخائيل بلومكفست، المقيم في العاصمة السويدية ستوكهلم ويُحاكم بتهمة التشهير بفساد رجل أعمال متنفذ وذائع الصيت يدعى وينستروم عبر مجلته الشهرية المشهورة «ملينيوم»، الذي هو أحد مؤسسيها مع زميلته وصديقته

إيريكا بيرغر. فيصدر عليه منذ البداية حكم بالسجن. وهناك الفتاة غريبة الأطوار ليزبيت سالندر، التي تعمل في شركة «ميلتون سيكورتي» الأمنية، وتقوم بأبحاث تقصي وبحث عن الأشخاص الذين توكل إليها مهمة التنقيب عن تاريخهم وحياتهم، وتتعرض لبعض المتاعب الشخصية والتحرشات من محامٍ يؤدي دوره كوصي عليها. وهناك رجل الصناعة الشهير والثري هنريك فانغر، الذي يعيش في إحدى قرى السويد الباردة المعزولة مع عدد كبير من أقاربه، ويتلقى منذ أربعين عاماً في يوم عيد ميلاده الهدية العجيبة نفسها وهي عبارة عن زهرة مجففة موضوعة في إطار صورة أنيق ومن دون عنوان ولا اسم المرسل. وهي هدية تثير الشجن والجنون لأنه كان قد تلقاها للمرة الأولى من حفيدة أخيه المفضلة هاريت.. تلك المراهقة الجميلة التي اختفت ذات صيف في ستينيات

ثمة خيوط تجمع الأجزاء الثلاثة من هذا العمل، ولكن من الممكن قراءة الجزء الأول كرواية مستقلة، وهو الأجمل



القرن العشرين من دون أن تترك خلفها أي أثر.. فكيف جمع لارسن كل هؤلاء معاً؟

يقرر بلومكفست المحبط من الحكم بالإدانة أن يأخذ إجازة لمدة عام. وفي الوقت نفسه يأتيه عرض معنوي ومادي مغرٍ من العجوز فانغر يرجوه أن يقوم بالتحقيق في اختفاء هاريت لأنه يرغب في معرفة مصيرها قبل أن يفارق الحياة. يقبل الصحافي بالمهمة بعد تردد ويسافر إلى جزيرة «هيدبي»، وسيحتاج لاحقاً إلى مساعدة باحث متمكن لينقِّب عن بعض المعلومات التاريخية في ملفات شركة فانغر، فيتصل العجوز الثري بشركة «ميلتون سيكورتي» والتي ترشح لهم أفضل باحث لديها.. ليزبيت سالندر. وهكذا سيلتقي الأبطال الثلاثة، وستبدأ تفاصيل مغامرة مشوقة نقرأ فيها عن تاريخ بعض أفراد العائلة العريقة مع النازية وعن قصص الاختطاف والاغتصاب التي تحدث في أجزاء مختلفة من السويد، وتسجل غالباً ضد مجهول لأن الضحايا عادة فقيرات لا بواكي لهن. وسنكتشف من خلال الأحداث المتسارعة وحتى النهاية أن بطلتنا لها مهارات أخرى عديدة وليس ذهنية وحاسوبية فقط.

الجزء الثاني: الفتاة التي لعبت بالنار

إذا كان الجزء الأول يصلح أن يُقرأ مستقلاً بذاته، فإن الجزء الثاني التقط بذكاء بعض الخطوط من الجزء الأول، خاصة ما يتعلق بليزبيت، وبالعنف الذي تتعرَّض له النساء على وجه الخصوص. وبنى عليها حبكات متداخلة مثيرة. وقدَّم العديد من الشخصيات الجديدة. ويُعد همزة الوصل ما بين الكتابين الأول والثالث، وأشك في أن تكون قراءته منفرداً تحقق القدر نفسه من المتعة أو حتى القدرة على استيعاب أحداث الحكاية التي تحققها قراءة الأجزاء الثلاثة متسلسلة.

في هذا الجزء سيعود التركيز على علاقة لزبيث بالمحامي نيلز بيورمان الذي سيلقى نهاية مأساوية. وسيلقى أيضاً صحافي مستقل -كان يعد تقريراً لملينيوم- وخطيبته طالبة الدكتوراة مصرعهما، وكلاهما كانا يعدان أبحاثاً صحافية وأكاديمية عن تجارة الرقيق الأبيض من دول أوروبا الشرقية في السويد وأوروبا الغربية.

تتناول مادة الصحافي خصوصاً بعض المتورطين في بيع هؤلاء النسوة، وبعض هؤلاء السماسرة أو الزبائن

أشخاصاً متنفذين يشغلون مناصب مهمة في البلاد. فمن بينهم رجال شرطة أو أمن خاص أو محامين أو صحافيين معروفين أو حتى قضاة.

هي رواية درامية وبوليسية محبوكة بعناية فائقة، وفي الوقت نفسه تسلِّط الضوء على قضايا اجتماعية في غاية الخطورة

تجد ليزبيت سالندر نفسها فجأة متهمة بقتل ثلاثة أشخاص دفعة واحدة! وستنطلق حملة وطنية للبحث عنها، يقودها إعلام معاد لهذه الفتاة الغريبة الأطوار، التي يتم «شيطنتها» بشكل غير مسبوق، بدعم من بعض رجال الشرطة العنصريين ضد النساء. ولكن عبثاً يجدها أحد! فيتحرك بلومكفست من جديد في مهمة شبه مستحيلة يحاول فيها بمهارات الصحافي الاستقصائي أن يجد قتلة زميله الصحافي وخطيبته. وفي الوقت نفسه يبحث عن أدلة تبرئ صديقته ليزبيت سالندر التي لها عليه دينٌ لابد أن يُوفى. وفي أثناء عملية البحث هذه.. سنعرف من هي ليزبيت سالندر، وسنعرف أيضاً عن تنظيم سري تشكل منذ عقود داخل جهاز الأمن السويدي الخاص «سابو». وفي هذا الجزء، ستظهر شخصيات جديدة مثل عميل المخابرات الروسية السابق الكسندر زالاشنكو، والعملاق رونالد نايدرمان، وصديقة لزبيت مريام وو، والملاكم الشهير بابلو روبيرتو، وهذا الأخير شخصية حقيقية وسيلعب دوره بنفسه في الفلم، وسنحبس أنفاسنا في هذا الجزء بانتظار معرفة مصير ليزبيت والتعرف إلى القاتل الحقيقي.

الجزء الثالث: الفتاة التي ركلت عش الدبابير

الاسم الأصلي لهذه الرواية بالسويدية هو «قلعة الهواء التي انفجرت». وفي هذا الجزء الأخير، ستقفل كل العقد المفتوحة في الثلاثية، فليزبيت ستقدم للمحاكمة، وستكون محاميتها شقيقة بومكوفست أنيكا غيناني، وسنشعر بأننا أمام محاكمة غير عادية. فقد أرادها المتنفذون محاكمة لفتاة مريضة وشاذة وخارجة على القانون، فحولها أنصارها وأصدقاؤها إلى محاكمة استثنائية لمن يستغلون سلطاتهم ومناصبهم الحساسة سواء في أجهزة الشرطة أو الأمن الخاص أو حتى من الأطباء الذين خانوا شرف مهنتهم.

وهذا الجزء طويل بالفعل، وتظهر في أحداثه العديد من الشخصيات القديمة والجديدة إلى الدرجة التي تجعلنا أحياناً نشعر بالدوار، فأسماء الأماكن والأشخاص غريبة على القارئ بالإنجليزية لكونها اسكندنافية صرفة. وبالرغم من أن هذا الجو الاسكندنافي السويدي يشكل جزءاً أساسياً من سحرها وتميزها، لكن كثرة هذه الأسماء أحياناً تؤدي إلى تشتيت القارئ، إلا أن النهاية ستكون مرضية ومشوقة إلى الحد الذي يجعل القارئ يغفر للكاتب لحظات الدوار هذه.

وبالرغم من أن أجزاء الرواية الثلاثة ممتعة جداً وذات إيقاع متسارع، إلا أن الجزء الأول يظل الأجمل والأكثر تشويقاً في نظري، ربما لمحدودية شخوصه مقارنة بما تليه، وربما أيضاً لأن إيقاعها السريع كان ملائماً جداً ولايحس القارئ فيهما أبداً بأن هناك تطويلاً غير مبرر.

لماذا نجحت؟

نستطيع أن نضع عدة أسباب حين نتحدث عن أسباب نجاح هذه الثلاثية. فابتداء، هي رواية بوليسية ودرامية محبوكة بعناية فائقة. وهي أيضاً رواية سياسية تسلِّط الضوء على الفساد في واحدة من أعرق وأنجح الديمقراطيات الغربية الحديثة، سواء أكان فساداً اقتصادياً كما في قصة الملياردير وينستروم أو سياسياً وأمنياً كما في قضية «سابو».

كما تسلِّط الضوء على المشكلات الخطيرة التي تتعرَّض لها المرأة طفلة أو شابة أو أم حتى في بلد يحترم حقوق الإنسان ويضع القوانين الصارمة من أجل تحقيق ذلك كالسويد. فهناك دائماً أولئك النفعيون الذين يعملون من أجل مصالحهم الخاصة، فيخونون الأمانة ويتخطون القانون بمساعدة آخرين تتقاطع مصالحهم معهم. ومن أهم هذه القضايا النسائية التي يثيرها الكتاب هي قضايا تجارة الرقيق الأبيض في أوروبا، التي تكاثرت بشكل غير مسبوق بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وانهيار الكتلة الشيوعية.

لكن أحد أهم أسباب نجاح هذه الرواية أيضاً قد يعود إلى شخصية البطلة غير المسبوقة التي استطاع أن يرسمها المؤلف لليزبيت سالندر، فهي تجمع كل الصفات الشكلية والسلوكية التي يرفضها عامة الناس، ليس في البلدان المحافظة وحسب بل حتى في قلب أوروبا، ومع ذلك استطاع أن يجعلنا نتعاطف بشكل كلي مع بطلته الشابة، ولا نصدق للحظة كل تلك الصفات الشريرة عنها. فالمؤلف

لارسن بذلك يكون قد نجح في أن يجعلنا نتخلى قليلاً عن قناعاتنا وقوالبنا المسبقة حول الأشخاص، ونسعى للنظر لما تحت الجلد لنتعرف إليهم بشكل أفضل، عندها سنكتشف الإنسان القابع خلف ذلك القناع الغريب بالنسبة لنا. ذلك الإنسان الذي يناضل من أجل العدالة كما يراها ويؤمن بها حتى وإن خالف قوانيننا المكتوبة ونظرة الآخرين العامة لها.

«إن قلوب بعض الناس الذين نعتبرهم غريبي الأطوار، قد تكون في المكان الصحيح أكثر من أي شخص آخر يتخفى بقناع النزاهة الزائف»

إن قلوب هؤلاء الناس الذي نعتبرهم غريبي الأطوار قد تكون في المكان الصحيح، أكثر من أي شخص آخر يتخفى تحت قناع النزاهة الزائف. فليزبيت سالندر كما يقول عنها وصيها القديم هولغر بالمغرن «لديها تعريفها الخاص للعدالة وللثواب والعقاب الذي قد لا يتفق مع ما يراه بقية الناس في مجتمع اليوم.. لكن ضميرها حيث ينبغي أن يكون».

لارسن.. وحظه السيء

لعل المحزن في الأمر أن الصحافي الشهير والمثير للجدل ستيغ لارسن توفي بأزمة قلبية مفاجأة في نوفمبر 2004م، عن عمر بلغ خمسين عاماً، بعد أن سلَّم مخطوطات رواياته الثلاث للناشر. وبهذا لم يشهد النجاح الكاسح التي حققته عالمياً، كما لن نسعد نحن أيضاً بقراءة إبداعات أخرى له. وهكذا يأبى لارسن إلا أن يكون مثيراً بعد وفاته كما كان في حياته علماً من أعلام الصحافة السويدية ومصوراً ومصمماً وناشطاً سياسياً يعمل لمحاربة التيارات اليمينية والعنصرية المتطرفة في الساحة السياسية السويدية. فنحن إذن أمام كاتب غير عادي وشخص متعدد المواهب، وبالتالي يصبح من المنطقي جداً أن يعطينا أدباً غيرعادي مثل «ثلاثية الألفية» الممتعة.

الروايات.. في مقابل الأفلام

ليس من المستغرب أن تتحوَّل روايات لارسن إلى أفلام ممتعة على الشاشة الفضية. وحتى الآن تمكنا من مشاهدة الروايتين الأولى والثانية كأفلام مدبلجة في حين مازلنا بانتظار الجزء الثالث.

لا شك في أن السينما السويدية قد سبقت الأمريكية هذه المرة في تمثيل روايات «الألفية». فشاهدنا فلمين سويديين استثنائيين وباللغة الأم، مما أتاح لنا سماع النطق الصحيح للأسماء الصعبة، وأعطانا هذا الشعور الحقيقي بأننا أمام حكاية من السويد، حتى لو كان معظمنا قد قرأ الرواية بالإنجليزية أو بلغة أخرى. ولم تؤثر لغة الفلم على فهمنا له، فالترجمة المكتوبة بالإنجليزية كانت تفي بالغرض.

وبالنسبة للجزء الأول فإن الفلم كان رائعاً للغاية، ولكنه كان عنيفاً أيضاً. ولهذا، لم يكن مستغرباً أن يصنف في دور السينما البريطانية لمن هم فوق سن الثامنة عشرة. وقد استطاع الفلم أن يقدِّم القصة بشكل مناسب للشاشة الفضية فاضطر لاختصار كثير من الأحداث. وإذا ما قارنا الفلم بالرواية فسيكون العلو للكلمة المكتوبة، لكن إذا ما عدنا وتذكرنا بأن الفلم يمثل نوعاً آخر مستقلاً من الفنون البصرية، فسيكون حكمنا أكثر موضوعية ويصب في مصلحة الفلم.

في الجزء الثاني شاهدنا الممثلين أنفسهم يواصلون إمتاعنا بأدائهم المتميز، وفي هذا الجزء تم أيضاً اختصار تلك الأحداث الجانبية في الرواية لكن من دون تغييرات كثيرة كالتي شاهدناها في الفلم الأول. وبمقارنة الفلم مع الرواية من جديد نجد أنهما يتساويان في هذا الجزء تقريباً في درجة الإمتاع والتشويق. هذا الجزء صنف رقابياً في بريطانيا لمن هم فوق سن الخامسة عشرة، ولكنني مازلت أرى بأن بعض مشاهده عنيفة أو غير مناسبة.

هوليوود تدخل على الخط.. لكن!

النجاح الكبير الذي حققته الأفلام السويدية يجعلنا نتساءل عن السبب الذي جعل هوليوود تصر على إعادة إنتاج هذه الأفلام بطريقتها الخاصة. إذ سيصدر أحدها في العام 2011م كما أُعلن. وسيقوم ببطولة هذا الجزء نخبة من نجوم السينما الأمريكية المعروفين.

وبالرغم من الإمكانات الإنتاجية والسينمائية الهائلة التي تملكها هوليوود، فإن الكثيرين يشكّون بأنها ستكون قادرة على أن تتغلب هي وممثلوها على النسخة السويدية من «الألفية». إذ ليس باستطاعة ممثل أمريكي يؤدي دوراً سويدياً أن يعطينا الإحساس بصدق وواقعية الجو الاسكندنافي والبيئة الأوروبية التي أحسسنا بها ونحن نشاهد الأفلام الصادرة من الوطن الأم. ولكن لا يجب أن ننسى أننا نتحدث هنا عن هوليوود المليئة بالمفاجآت، فلننتظر إذن الأفلام الأمريكية ونرى.

مقتطفات

مقطع من الجزء الأول من الثلاثية

فتاة وشم التنين



ظلَّت ليزبيت سالندر لعشر دقائق في الردهة الفارغة تنظر إلى الاسم المطبوع على اللوحة :المحامي إن. إي بيورمان. وقبل أن تقرع الجرس.. كان قفل الباب قد تحرَّك.

اليوم هو الثلاثاء.. إنه لقاؤهما الثاني وليزبيت تساورها مشاعر سيئة عن هذا اللقاء حتى قبل أن يبدأ. لم تكن تشعر بالخوف من المحامي بيورمان لكنها ما زالت تشعر بعدم الراحة مع هذا الوصي الجديد. كان سلفه المحامي هولغر بالمغرن مختلفاً عنه كل الاختلاف.. كان دمثاً كريماً. لكنه أصيب قبل ثلاثة أشهر بجلطة، وأصبح نيلز إريك بيورمان هو خليفته فيما يتعلق بها.

عندما كانت ليزبيت سالندر في الثالثة عشرة من العمر قررت المحكمة أن تضعها في مصح «سانت ستيفنز» النفسي للأطفال في مدينة أبسولا. كان القرار مبنياً بشكل رئيس على اعتبار أنها مضطربة اجتماعياً وعنيفة بشكل خطر. كل المحاولات من قِبَل المعلمين أو أية سلطة رسمية لبدء حوار مع هذه الطفلة عن مشاعرها أو حياتها العاطفية أو صحتها، كانت تُقابل بصمت مطبق وتحديق صارم في الأرضية أو السقف أو الجدران، مما كان يزيد في انزعاجهم وغضبهم. كانت تعقد يديها وترفض أن تشارك أو تخضع لأي اختبار نفسي، فصعب التوصل إلى تشخيص صحيح ودقيق لحالتها العقلية والنفسية.

ومع دخولها المصحّ، صدر قرار آخر يقضي بوجوب تولي أحدهم أمر الوصاية على ممتلكاتها وحقوقها المالية حتى تبلغ سن الرشد. ولم يكن هذا الوصي غير المحامي هولغر بالمغرن، الذي بالرغم من بدايته المتعثرة معها، إلا أنه نجح في النهاية بشكل كبير، حيث أخفق الأطباء والمدرسون وكافة المسؤولين الذين كانوا يحاولون اختراق جدار الصمت والعزلة التي بنته هذه الصغيرة حول نفسها. فقد استطاع أن يكسب ليس فقط ثقة الفتاة، بل وناله شيء من حبها أيضاً.

حين بلغت ليزبيت سالندر الخامسة عشرة، قرر الأطباء في المصح أنها لا تشكِّل في حقيقة الأمر خطراً على الآخرين ولا على نفسها. وبما أنه تم تصنيف عائلتها على أنها غير مؤهلة للقيام برعايتها، وليس لديها أقارب يتولون هذه المهمة، فقد تقرر بأن تغادر ليزبيت المصح في أبسولا ويعاد تأهليها اجتماعياً عبر عائلة بديلة حتى تبلغ سن الرشد. ولكن تلك الرحلة لم تكن سهلة، فقد هربت من العائلة الأولى بعد مرور أسبوعين فقط. ولم تكن العائلتان الثانية والثالثة أوفر حظاً معها. هنا، أخبرها وصيها بصراحة بأنه في حال واصلت سلوكها غير المسؤول هذا، فسينتهي بها الأمر سجينة في مصحة أبسولا من جديد. وقد كان لكلامه تأثير عظيم عليها بحيث أنها تقبلت العيش مع العائلة المضيفة الرابعة.

لكن ذلك لا يعني بأن ليزبيت قد تصرَّفت بشكل سليم بعد عودتها إلى المجتمع. فمع بلوغها السابعة عشرة، كان سجلها الاجتماعي يشير إلى كونها اعتقلت أربع مرات: مرَّتان لأنها كانت تحت تأثير قوي للكحول انتهتا بها في



غرفة العناية المركزة، ومرة ثالثة لأنها كانت تحت تأثر المخدرات.

أما في الحالة الرابعة، فقد تم اعتقالها قبل ثلاثة أسابيع فقط من بلوغها الثامنة عشرة، هذه المرة لم تكن ليزبيت سالندر تحت تأثير المخدرات أو الكحول، بل كانت واعية تماماً، وقد اعتقلت لقيامها بركل شاب عند بوابة إحدى محطات مترو الأنفاق. فوُجهت إليها تهمتي الاعتداء والضرب. دافعت ليزبيت عن نفسها مؤكدة بأن الشاب هو من بدأ بالاعتداء، فقد أمسك بها وجذبها نحوه، وكان هناك شهود دعموا أقوالها، فاضطر ممثل الادعاء إلى إسقاط القضية.

ولكن، نتيجة لهذه الحادثة الأخيرة فقد أصدرت المحكمة المحلية أمراً يقضي بإجراء تقييم نفسي لليزبيت سالندر عشية بلوغها سن الرشد. وهذا ما كان سيخولها التحرر من الوصاية المفروضة عليها منذ الثالثة عشرة. وكعادتها رفضت ليزبيت الإجابة عن أسئلة الفحص أو التعاون مع الأطباء، وبالتالي قام هؤلاء بإصدار تقريرهم المبني على ملاحظات عن المريضة، بدلاً من أن يكون مبنياً على فحص طبي متكامل لها.

ولما كان من المستحيل ملاحظة أي شيء على شابة صامتة كل الصمت، وتجلس لساعات عاقدة يديها بلا حراك، فقد خلص هؤلاء إلى نتيجة مفادها أن ليزبيت سالندر غريبة الأطوار، وتعاني من نوع من الاضطراب العاطفي الذي لا يجب أن يترك مصدره دون علاج، فأصدروا تقريراً طبياً وقانونياً، يوصي بأن توضع في مصح نفسي من جديد.

لم يكن ملفها الشخصي الذي تكوَّن عبر السنوات في صالحها أيضاً. فقد كان من الواضح أنها تعاني من حالات إفراط في استخدام الكحول والمخدرات. وبضم تقرير الأطباء الأخير إليه، فقد صار ملف القضية التي تنظر في أمر أهليتها فائضاً بكل الصفات السلبية: فهي منطوية، وغير متكيفة اجتماعياً، ولا تتعاطف مع الآخرين، ومضطربة عقلياً، وأنانية، وغير متعاونة أبداً، وغير قادرة على التعلم. وكل من يقرأ ما جاء في هذا

الملف الضخم سيعتقد بأن ليزبيت سالندر هي من دون شك مواطنة معاقة عقلياً.

وتحت وطأة كل هذه الأدلة والشهادات والتقارير، كان واضحاً أمام المحكمة بأن هذه الفتاة تعاني من الكثير من المشكلات المستعصية. وبالتالي، لا يبقى أمام قاضيها من خيار سوى القبول بالتوصية الطبية والقانونية التي تدفع باتجاه حبسها في مصح نفسي.

في صبيحة اليوم المحدد للنطق بالحكم، تم إحضار ليزبيت سالندر إلى المحكمة من مصح نفسي، كان قد تم إيداعها فيه حتى تبت المحكمة في أمرها. كانت ليزبيت تشعر بأنها سجينة في أحد معتقلات النازية، ولم يكن لديها أدنى أمل بأنها ستفلت من مصيرها المظلم. المحامي هولغر بالمغرن كان أول شخص قابلته في المحكمة يومها. وقد أخذها بعض الوقت لتستوعب بأنه ليس هنا ليلعب دوره كوصي عليها ويدلي بشهادته حول قواها العقلية والنفسية، وإنما ليمثلها قانونياً كمحاميها.

تفاجأت حين وجدته بلا تردد يقف إلى صفها ويقدم دفاعاً قوياً ومقنعاً ضد فكرة حبسها. وبالرغم من أنها لم تظهر مشاعرها سوى بحركة تعجب من حاجبيها، لكنها كانت مصغية بتركيز شديد لكل كلمة قالها.

كان المحامي مدهشاً خلال الساعتين اللتين استجوب فيهما الطبيب جاسبر لوديرمان الذي وقع على التقرير الموصي بحبس ليزبيت سالندر في المصح لاختلال قواها العقلية. فكل كلمة في تقرير الطبيب تعرضت للنقد والمساءلة، واضطر هذا الأخير إلى أن يشرح الأسس العلمية التي تبرر استنتاجاته بشكل دقيق ومفصل. وفي ختام الجلسة، أدرك الجميع بأن المريضة قد رفضت المشاركة في إجراء أي اختبار أو فحص لقواها العقلية والنفسية، والتزمت الصمت المطلق. ولهذا فإن استنتاجات الطبيب، التي بنى عليها حكمه وأصدر توصياته، ليست سوى تخمينات مبنية على الظن، وبالتالي هي غير كافية لتسلب سالندر حريتها.

أنهى المحامي مرافعته بالقول إنه في حال صدر قرار بإعادة سالندر إلى المصح النفسي من دون وجود أدلة علمية وطبية تبرِّر هذا الأمر، فإن قضيتها ستأخذ نصيبها من الإثارة الإعلامية والسياسية. فمن مصلحة الجميع إذن البحث عن بدائل مرضية لكافة الأطراف. كانت تلك لغة تهديد غير معهودة في مثل هذه الحالات في المحكمة.. فساد التوتر أعضاءها.

وفي النهاية كان الحل بالفعل وسطياً. فالمحكمة تعتقد بأن الصبية ليزبيت سالندر تعاني من اضطرابات نفسية وعاطفية، ولكن حالتها لا تستوجب إيداعها في مصح نفسي. وبالمقابل، فإن طلب مدير الرعاية الاجتماعية بأن يُعين للشابة وصي يتولى أمورها قد أُخذ في الحسبان. وهنا التفت رئيس المحكمة إلى المحامي العجوز هولغر بالمغرن بابتسامة حقودة، ثم عرض عليه أن يتولى هو هذه المهمة الشاقة، وهو موقن بأن الرجل الذي استمات في الدفاع عن سالندر قبل قليل سيتهرب من المهمة ويوكلها إلى غيره. إلا أن المحامي تقبل الفكرة بصدر رحب. وأبدى استعداداً تاماً لأن يكون الوصي الشرعي لليزبيت سالندر، ولكن بشرط واحد: أن تقبل الآنسة ليزبيت سالندر به من دون ضغوط. ثم التفت إليها متسائلاً.

كانت ليزبيت مرتبكة من تأثير ما دار خلال هذه الجلسة الطويلة المتعبة، ومتفاجئة أيضاً.. فحتى هذه اللحظة، لم يسألها أحد عن رأيها حول كل ما دار عنها. حدقت ليزبيت سالندر في المحامي هولغر بالمغرن لمدة طويلة قبل أن تهز رأسها موافقة. وكان ذلك واحداً من أهم القرارات التي اتخذتها في حياتها. ■

قول آخر

«تيدكس» العربية.. الإبداع والقبض على الهواء

بات معروفاً أن مؤتمر «تيد» (TED) مؤتمر سنوي دولي بدأ في العام 1984م، ويُقام في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل منتظم، ويهتم بنشر الأفكار التي تستحق التقدير والاهتمام في مجالات متعددة، من ضمنها موضوعات في العلوم، الفنون، العمارة، التقنية،الترفيه والتصميم الغرافيكي والديكور الداخلي، والقضايا العالمية على نحو عام، وغيرها من حقول الحراك الإنساني المعرفي الفاعل. وفي الغالب، يأتي المتحدثون في هذا المؤتمر من أماكن متعددة في العالم، ومنهم من له مناصب عليا على الصعيد العالمي، كرؤساء الدول والإعلاميين والحاصلين على جوائز نوبل وغيرهم، وكان من أشهر من تحدث في «تيد» الرئيس السابق للولايات المتحدة بيل كلينتون ومؤسس شركة مايكروسوفت بيل غيتس.

ورغم الأهمية المتصاعدة التي يتخذها المؤتمر فإنه من الصعب التصور أن يأتي شبان -في عالمنا العربي- من الساعة الرابعة عصراً، ويجلسون في قاعة مؤتمرات حتى العاشرة ليلاً، ليستمعوا إلى محاضرات وخطب وأحاديث، حتى لو كان ذلك لحضور مؤتمر «تيد (إكس)» العربي، حيث تشير «إكس» (x) إلى أنه يقام مستقلاً عن (TED) العالمي.. وهكذا أقيم «تيدكس» العربي في جدة مطلع ديسمبر الماضي. (وكان أقيم المؤتمر خلال السنوات الماضية في الدوحة والقاهرة ودبي والخرطوم).

وقد يتساءل المرء عن مفارقة إقامته في دول متقدمة تحت مظلة عالمية بمحتوى متقدم، وإقامته في دول نامية بمحتوى ساعٍ إلى التنمية. مع الأخذ في الحسبان الاستقلالية وما يمكن أن يقدَّم هناك وهنا. إذ يحتمل المعنى المبطن بأن ما يصلح هناك لا يصلح هنا، وهي حقيقة، فلا زلنا في طور السعي نحو التنمية. ورغم ذلك كان في جدة طرح جديد لم يُتناول من قبل، حيث ابتدأت الفعاليات بعرض فيديو خاص بـ«تيد» عرَّف الجمهور بالمؤتمر العالمي الشهير وبعض مقاطع المؤتمر في موطنه الأمريكي. وتحدث نحو خمسة عشر متحدثاً عن تجاربهم، من بينهم مجموعة من الأسماء السعودية التي «أبدعت» وحققت السبق، وهي تقف أمام الملأ لتعرض تفاصيل فكرتها «الإبداعية»، لا سيما أن العنوان الذي حمله «تيدكس العربي» موجه للإجابة عن سؤال «ماهو الإبداع؟».

انصبت الكلمات، وكانت جيدة. وإن كانت في جزئية منها تنطق بلسان حال مستتر لتدفع بالشباب الحاضر نحو الإبداع، وكأن الإبداع فعل إرادي يتقصده الفرد فيصله. هذا المفهوم بدا طاغياً ومسيطراً في الخلفية الذهنية لدى المحاضرين، وإن كانت الواجهة الأساسية لدى المتكلم هي الفخر بما أنجز والمباهاة بما تحقق -رغم محدوديته-، ربما ذلك من حقه إن لم يكن متواضعاً، ولكن ليس من المنطقي أن يعلي عمله إلى مرتبة الإبداع، وليس المجال للدخول في تعريف للإبداع حتى وإن كان المؤتمر كرس عنوانه تحت السؤال عن هويته.

إذن تشكل مفهوم مضطرب في الثقافة العامة ورسخه المؤتمر، بأن ما قام به المتحدثون هو إبداع، في حين أن ما فعلوه لا يخرج عن نطاق الأعمال المألوفة في الثقافة العالمية. والمؤتمر ذو طابع ومنشأ عالمي حتى لو أخذ من كلمة «العربية» مخرجاً له يهرب به من مواجهة العالم المتقدم، ويبني تحته قبة التميز الإقليمي.. فقد غاب عن المتحدثين أن الإبداع قد يأتي أو لا يأتي بعد مجهودات مضنية وعمل دؤوب وتجارب لا حصر لها، وأنه إذا أتى فإنما يأتي مباغتاً نتيجة التواصل في التجريب والخطأ، فبدوا وكأنهم يقولون للشباب (أبدعوا) أو كمن يطالب بالقبض على الهواء.

حري بالأهمية أن يتحدث مبدع حقيقي عن الخطوات التي قادته إلى لحظة الإبداع. ففي ذلك تحريض للشباب على البحث والعمل والاطلاع والتفكير والتجريب. وبكل تأكيد، لا يفعل ذلك من لا يمتلك أدوات البحث ومعرفة أساسيات ما يبحث فيه وعنه.. كان حرياً بالمؤتمر أن يبث رسالة يغلفها التحفيز إلى صقل الذات والعمل والتفاني في الجهد، لا الإيهام بمقولة: أبدعوا.


خالد ربيع السيد

القلب

له منطق لا يعرفه المنطق



في الشعر والأدب هو أكثر الأعضاء شاعرية ورمزية، حتى إنه لا يكاد يمت بصلة إلى طبيعته الحقيقية.
وفي طبيعته الحقيقية هو نبض الحياة، وخفقانه هو الحد الفاصل ما بين الحياة والموت.
وفي كل ثقافات العالم، هو مصدر العاطفة ومستقرها، سواءً أكانت هذه العاطفة حباً أم حقداً، أملاً أم ألماً، فرحاً أم حزناً.
محمد الجلواح و**هدى صالح** يفتحان هنا ملف القلب، بدءاً بالهموم التي حملها في الأدب والشعر وصولاً إلى تحوله هو نفسه إلى همّ في حياتنا المعاصرة.

الملف



منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، تطلّعت معظم ثقافات العالم إلى القلب على أنه مركز الحياة والفرق بينها وبين الموت. وبشكل أو بآخر، يوافق الطب الحديث على هذه النظرة. إذ لا يزال توقف القلب عن الخفقان شرطاً لا بد منه لإعلان موت صاحبه.

ونظراً لهذه الصلة الوثيقة بالحياة وبالموت، لا غرابة في أن يصبح القلب ملخصاً للنفس البشرية. فثمة وثائق مكتوبة باللغة السومرية وتعود إلى بلاد ما بين النهرين خلال الألف الثالث قبل الميلاد، تتحدث عن القلب باعتباره «المركز في كل شيء». وقد اشتركت قديماً حضارات عديدة في هذه النظرة إلى القلب على الرغم من أنها لم تكن على اتصال فيما بينها، وزجت به في صميم طقوسها الوثنية. ففي مصر الفرعونية، كان القلب العضو الوحيد الذي يُرد إلى الجسد خلال تحنيط الموتى للاعتقاد بأنه سيتم وضعه على ميزان في الحياة الثانية مقابل «ريشة الحقيقة». وإذا كان القلب أثقل من الريشة، فإن ذلك يدل على أن صاحبه قد صرف حياته في المنكرات ووجب عقابه.

ومن الطقوس الوثنية المرعبة التي دخل القلب في صميمها، تلك التي كان يمارسها شعب الأزتيك في أمريكا الجنوبية ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين. إذ كانوا يشقون صدور أبنائهم ليحملوا قلوبهم التي لا تزال تنبض بالحياة قرباناً إلى الأصنام، وكانوا يَعدُّون تضحيتهم هذه «أسمى» درجات الموت!!

من موطن للعقل إلى موطن للعاطفة

كان الفيلسوف اليوناني أرسطو يعتبر أن القلب هو بيت العقل والمنطق والأحاسيس. وكان يقول إن القلب يمر بحالتين: إما الجفاف وإما الحرارة. وفي حالة الحرارة التي يصفها الفيلسوف اليوناني بأنها كثيراً ما تكون متقدة وكأنما شبت في القلب ناراً، تتولد المشاعر والأحاسيس والشغف. وهو في هذا، يشبه بقية الفلاسفة والعلماء حتى وقت قريب نسبياً من تاريخ البشرية. إذ ظل هذا الاعتقاد سائداً في أوروبا حتى القرون الوسطى، وظل العلماء يرفضون الاعتراف بدور كبير للدماغ مقارنة بدور القلب.

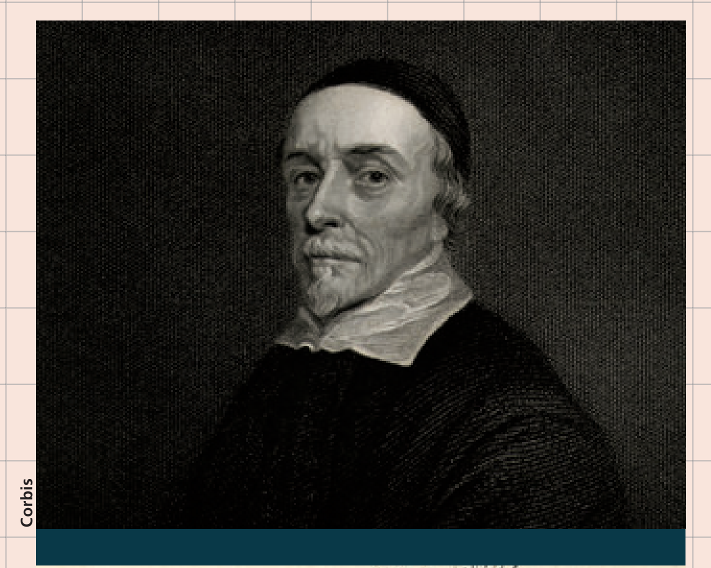
أرسطو: القلب هو بيت العقل

Corbis

ومن المفاهيم التي شاعت قديماً حول وظيفة القلب، نذكر الطبيب الروماني جالينوس الذي كان يعتبر القلب مصدر الانفعالات جمعاء، لكنه خص الكبد، ويا للعجب، بموطن العاطفة. وربما لهذا السبب لا يزال الإسكندينافيون يقولون حتى اليوم: «أقول الحقيقة من كبدي».

العلم البارد ونظرته إلى القلب الدافئ

ظل العلم لقرون طويلة يأخذ بنظريات الطبيب اليوناني أبقراط القائلة إن الأوردة تحمل الدم، بينما تحمل الشرايين الهواء. ثم أتى بعده جالينوس ليقول إن عملية امتزاج الدم بالهواء تتم في القلب، وأن وظيفة القلب هي تدفئة الدم والحفاظ على دفء انفعالات الإنسان. وبعد ألف سنة أو أكثر، أتى ابن النفيس، العالِم العربي المسلم، ليقول إن عملية تنقية الدم تتم في الرئتين وليس في القلب، وإن القلب عندما يتقلَّص، يدفع الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين بواسطة الشريان الرئوي، وهناك يتماس الهواء بالدم وينقيه، لتعود به الأوردة الرئوية إلى البطين الأيسر الذي يوزعه على الجسم ليؤمن له التغذية اللازمة. وقد صحح ابن النفيس بذلك نظرية خاطئة، كان من بين واضعيها



Corbis



Corbis

من الطقوس الوثنية عند شعب الأزتيك: انتزاع قلوب الأحياء



Corbis

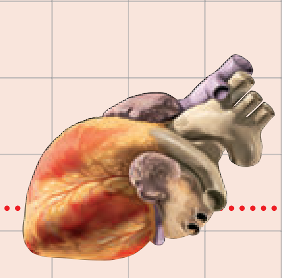


Corbis

الدكتور كريستيان برنارد نون من جنوب إفريقيا (إلى اليسار)، يتحدث إلى الدكتور مايكل دبغي والدكتور كانتروتز أدرن، قبل ظهورهم على التلفزيون في برنامج «واجه الأمة» لمناقشة الإنجازات في تنفيذ أول عملية زرع ناجحة قلب الإنسان

Corbis

ويليام إنثوفن العالم الهولندي الذي قدَّم جهاز تخطيط القلب الابتكاري عام 1903م



ابن سينا، وتقول إن للقلب بطينين، أحدهما يملؤه الدم وهو البطين الأيمن، في حين أن البطين الأيسر تملؤه الروح، وأنه لا منفذ بين هذين البطينين. وبذلك يكون ابن النفيس هو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى. وبعده بثلاثة قرون، وتحديداً في بدايات القرن السابع عشر، اكتشف الطبيب الإنجليزي وليم هارفي الدورة الدموية الكبرى، ونشر عام 1628م كتاباً في 72 صفحة بعنوان «حول حركة القلب والدم»، وكشف فيه أن الدم يسري في دورة مغلقة داخل الجسم، مبدؤها القلب فالشرايين فالأوردة التي تعود إلى القلب من جديد، وهذه الدورة لا تكل ولا تمل ولا تتوقف إلا بتوقف حياة الجسم.

واليوم، أو بالأحرى منذ عدة عقود، صارت صورة القلب ووظيفته محددة بدقة على المستوى العلمي. وتقول إن القلب عضو عضلي يقع في منتصف الصدر بين الرئتين، وهو أقرب إلى الصدر منه إلى الظهر، ويميل قليلاً إلى الجهة اليسرى.

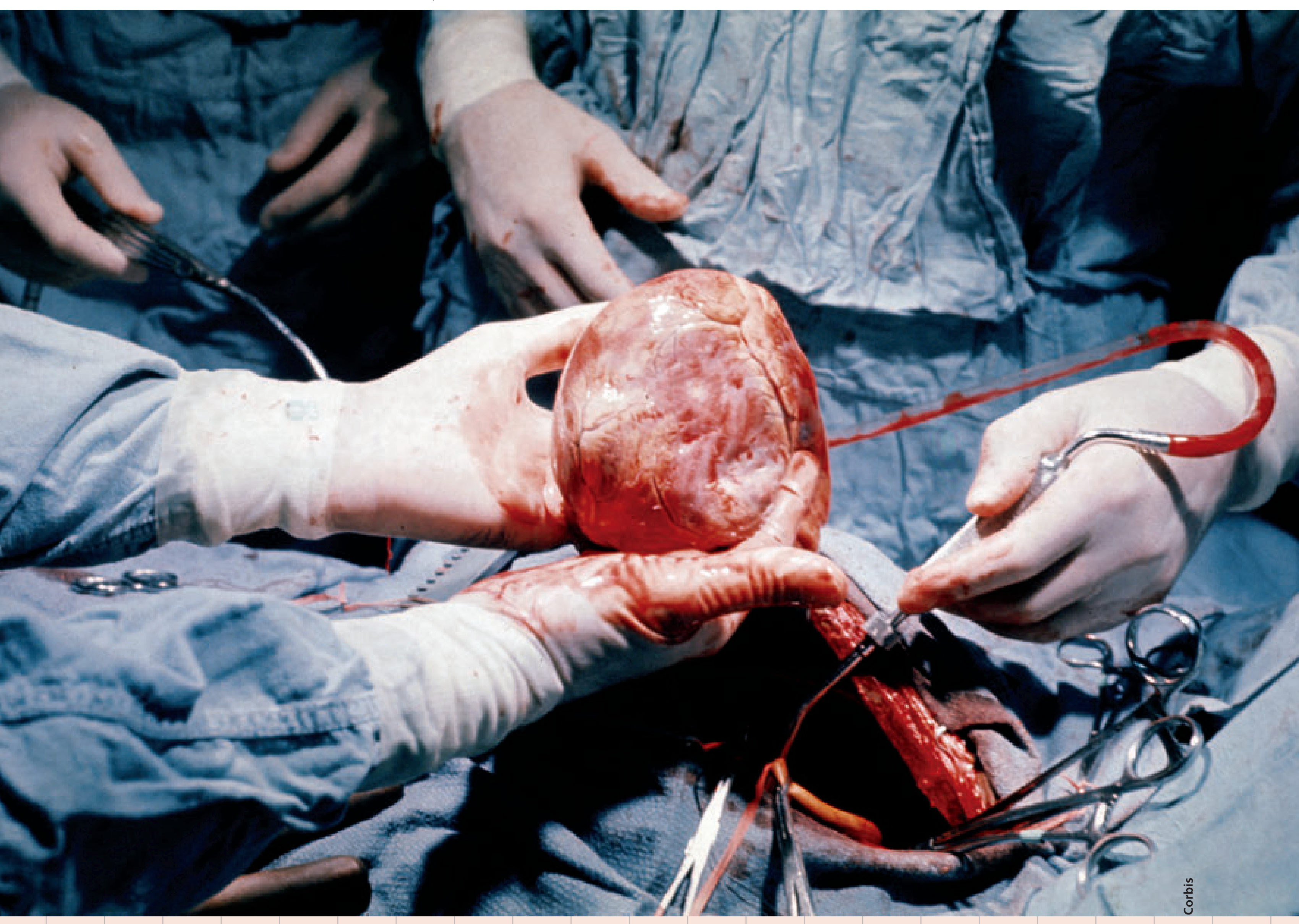
ويتألف هذا العضو العضلي في الواقع من عضلتين، الأولى التي تشكِّل جدار القلب، وتسمى «عضلة القلب»، والثانية تسمى «الحاجز» لأنها تفصل بين الجهتين اليسرى واليمنى داخل القلب. وفيما يقسم الحاجز القلب طولياً، تقسم الصمامات القلب عرضياً، ليصبح بذلك مؤلفاً من أربع «غرف» داخلية، تعرف الغرفتان العلويتان منهما باسم الأذين الأيمن والأذين الأيسر، في حين أن الغرفتين السفليتين تعرفان باسم البطين الأيمن والبطين الأيسر.

وتنقل الأوردة الدموية الدم من أنحاء الجسم إلى الجهة اليمنى من القلب التي ترسله إلى الرئتين ليتزود بالأكسجين، ومن ثم يعود إلى الجهة اليسرى من القلب ليدفعه البطين الأيسر إلى أجزاء الجسم المختلفة عبر الشرايين.

ويبدأ القلب بالخفقان عندما يكون الجنين في أواخر شهره الثاني، وعندما يولد الطفل، يكون وزن قلبه نحو 20 غراماً فقط، وينمو بنمو صاحبه ليصل وزنه إلى ما يتراوح بين 250 و350 غراماً عند الإنسان المكتمل النمو. وبشكل عام، يقاس حجم قلب الإنسان بحجم قبضة يده المغلقة.

ينبض القلب ما بين 60 و100 مرة في الدقيقة الواحدة، وفي كل نبضة، يدفع نحو سبعين سنتيمتراً مكعباً من الدم، أي أكثر من سبعين ألف لتر من الدم خلال اليوم الواحد إلى كل أنحاء الجسم.

ولمعرفة قوة عضلة القلب، يمكننا أن نقارنها بسعينا إلى ضغط كرة بلاستيكية بأصابع اليد مرة كل ثانية لمدة دقيقة. وقبل مرور دقيقتين



أثناء عملية زرع قلب

نشعر أن أصابعنا تعبت وقد شقَّ عليها هذا المجهود. أما عضلة القلب فتنقبض كل ثانية، وفي السنة الواحدة تنبض أكثر من ثلاثين مليون مرة، وفي متوسط حياة الإنسان تنبض أكثر من ألفي مليون مرة. فالقلب يعمل بإخلاص بينما ننام ونسترخي، ويعمل بجهد أكبر بينما نعمل أو عندما نتعب. بعبارة أخرى «القلب قوي» فعلاً وعلى المستوى العلمي، وليس فقط من باب الاستعارة للدلالة على الشجاعة.

أبرز المحطات في تاريخ القلب من استكشافه إلى زراعته

منذ أن استطاع العالم الإنجليزي هارفي أن يصف الدورة الدموية بشكل مفصل ودور القلب الأساسي فيها، قدم العديد من العلماء والدارسون كثيراً من الإنجازات الباهرة التي ساعدت البشرية على فهم أفضل وأعمق للقلب. ومن أبرز المحطات التي مرت بها هذه الدراسات كانت عام 1706م حين وصف رايموند دي فيوسنز، عالم التشريح الفرنسي، حجرات القلب الأربع وأوعيته الدموية. وفي العام 1733م قاس ستيفن هالز، العالم البريطاني، ضغط الدم لأول مرة. وفي العام 1816م ابتكر ريني تي. اتش. ليانس سماعة الطبيب التي تقيس ضربات القلب. تلاه في الموجة الابتكارية، وإن كان فصل بينهما قرن أو أقل بقليل، ويليام إنثوفن العالم الهولندي الذي اخترع جهاز تخطيط القلب عام 1903م. وفي العام 1912م وضع جايمس بي. هريك، الطبيب الأمريكي، أول وصف لمرض قلب، بينما قام مواطنه روبرت إي. جروس في عام 1938م بأول جراحة قلب.

وفي العام 1951م طور تشارلز هفنجل الأمريكي أول صمام بلاستيكي لاستبداله بصمام مسدود. تليه الجراح ف. جون لويس في العام 1952م الذي قام بأداء أول جراحة قلب مفتوح ناجحة. وفي السنة التالية لها مباشرة قام جون إتش. جيبون باستخدام أول مصفي قلب ودم ميكانيكي بنجاح.

Corbis

المصمم الدكتور روبرت جارفيك يبين القلب المكون من البوليوريثين والداكرون قام بتطويره لزرعه في جسم الإنسان.



Corbis

ابراهام ماسلو في مكتبه في كلية بروكلين



وفي العام 1961م، تمكن فريق طبي أمريكي من النجاح في تدليك قلب مريض توقف عن العمل. وبعد ذلك بأربع سنوات استخدم الطبيبان ميشيل ديبيكري وأدريان كانترovيتز أجهزة ميكانيكية لمساعدة قلب مريض على النبض.

غير أن العام 1967م، شهد حدثاً على صعيد جراحة القلب أصبح رمزاً لتطور الطب والعلوم بشكل عام، وذلك عندما قام الطبيب الجراح كريستيان برنارد، ولأول مرة في التاريخ، بإجراء أول عملية زرع قلب حي، نُقل بنجاح من شخص متوفى إلى شخص حي. وقد لقي هذا النجاح أصداء واسعة في كافة أرجاء العالم. وما هي إلا سنوات حتى راجت عمليات زرع القلب التي صارت تُجرى اليوم في كافة أنحاء العالم. أما التطور الأخير والكبير في هذا الحقل، فكان عام 1982م، عندما تمكن الطبيب وليم ديفرايس بالتعاون مع المهندس روبرت جارفيك من زراعة أول قلب اصطناعي في جسم إنسان، وهو عبارة عن مضخة تقلد عمل القلب الطبيعي بشكل آلي ومنتظم.

على مستوى الثقافات القلب «شخص» آخر

على الرغم من النجاحات الكبيرة التي حققها الطب في العصر الحديث والتأكيدات العلمية حول القلب ووظيفته التي تنتزع اعتراف الجميع بصحتها، لا يزال القلب في الوجدان الثقافي عند كل شعوب العالم غير «القلب العلمي». إنه مركز العاطفة والمشاعر ورمز للأغلى، للأوسط، للمركز المحاط بما يحميه.. ولذا تحول في وجدان الأدباء والشعراء وحتى على ألسنة العامة إلى «شخص» آخر، يتحدثون عنه بالضمير الغائب. فهو يقول ويدل ويحار ويحب ويكره وينتظر ويأمل وييأس. إنه ملخص للنفس بكل ما فيها من مشاعر وآلام وآمال.

هل الأدرينالين هو الجسر؟

قبل الغوص في مكانة القلب وطبيعته المختلفة في عالم الثقافة، لا بد وأن نتساءل لماذا ربط الإنسان هذا العضو العضلي بكل انفعالاته وأحاسيسه النفسية واعتبره مسؤولاً عنها، وحمَّله تبعة المهام التي يقوم بها الدماغ؟

القلب التعب من الحداثة واعتلاله الذي أصبح قضية عالمية

لم تكن أمراض القلب عدواً حقيقياً للبشرية قبل القرن العشرين، أو قبل الثورة الصناعية على أبعد تقدير. فالحياة اليومية كانت حافلة بالأعمال اليدوية، ومعظم الأعمال كانت تتطلب جهوداً جسمانية ملحوظة، أو الانتقال مشياً على الأقدام من مكان إلى آخر. ولكن القرن العشرين شهد آلاف الاختراعات والابتكارات التي سهَّلت على الإنسان

حياتـه اليوميـة، أو بالأحرى، تحمَّلت عنه عناء القيام بها، بدءاً بوسـائل النقـل وصولاً إلـى أجهزة التنظيف الكهربائية. وبمـوازاة ما غيَّرته هذه المبتكـرات، ارتفعـت قـدرات الناس في معظـم دول العالـم خاصة بعد الحـرب العالميـة الثانيـة على اسـتهلاك المواد الغذائيـة بوفرة لم تكن مألوفـة سـابقاً. فشـاع تناول اللحوم أكثـر من ذي قبل، وظهـرت أطعمة جديـدة راجـت كالنـار فـي الهشـيم مثـل «الشـوكولاتة» و«الآيس كريم» ووجبات المطاعم السريعة المقلية بالزيوت والغنية بالشحوم الحيوانية، وراح الـكل يغـرف مـن هـذه الطيبـات الجديـدة مـن دون تقديـر لعواقب الإفـراط. وممـا زاد الطيـن بلة تصنيع التبغ على شـكل سـجائر صغيرة موضبـة وجاهزة للاسـتهلاك في أي وقت ومكان، فـراج التدخين أينما كان فـي العالـم ليصبح آفة خاصة بالقرن العشـرين.. كل ذلك أدى إلى ارتفـاع نسـبة أمراض القلب والوفيات النـاجمة عنهـا ارتفـاعاً مرعباً في الفتـرة الواقعة بيـن العامين 1940 و1960م، ممـا حمل منظمة الصحة العالمية منذ آنذاك على وصف أمراض القلب بأكثر الأوبئة التي يمر بها العالم المعاصر خطورة.

مرض القلب

ثمة أمراض ومشـكلات كثيرة قد تعتري القلب وتهدد سـلامته وبالتالي حياة صاحبه. ومنها على سـبيل المثال التشـوهات الخلقية (الولادية)،

القلب والفؤاد

القلب في اللغة هو التحويل، وتغيير وُجْهَة الشيء إلى وجهة مغايرة، أو معاكسة لأصلها، وقَـلَـبَ الشيء: أي جعله مقلوباً وأبان ظهره وأخفى بطنه، وجعل عاليه أسفله.. وسمي بالقلب لتقلبه، وعدم ثبات حاله في الجسم من انقباض وانبساط وغير ذلك.. ومن هذا التعريف اللغوي البسيط للكلمة.. يمكن فهم معنى الدعاء الذي يبتهل به الإنسان لله تعالى فيقول: «اللهم يا مُـقَـلِّـبَ القلوب.. ثبّت قلبي على دينك».

وثمة مرادف لغوي للقلب، هو الفؤاد. لكن الفؤاد يطلق أحياناً على العقل أيضاً أو على الروح. ولكلمة «فؤاد» دلالة خاصة في تأكيد الأمر المتعلق بالقلب في النصوص الأدبية شعراً ونثراً. فكلمة القلب في الإبداع الأدبي قد تكون عامة وشاملة. لكن تخصيصها وتأكيدها يكون في كلمة فؤاد. ومن المفردات والتعابير المشتقة من القلب وتقلبات أحواله نذكر بعضها:

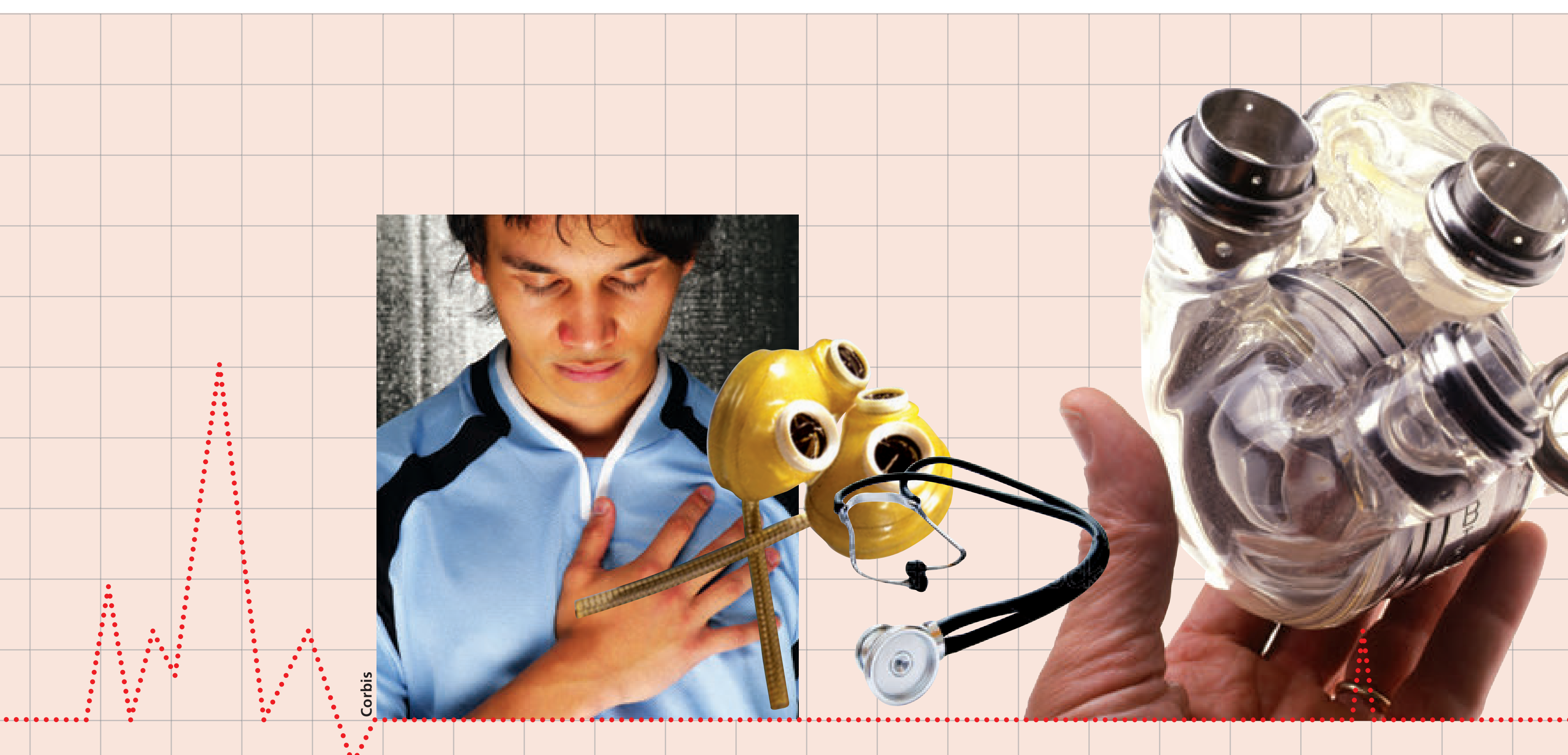
- القولبة: تشكيل الشيء أو تأطيره في شكل أو نمط أو أسلوب معين. فالقلب هنا تشكيل وتصنيع.
- قلب الحقائق: الكذب عمداً.
- قلب الحدث: تعبير إعلامي يشير إلى المكان الذي يجري فيه حدث ما.
- قلب الصفحة: طي صفحة والانصراف إلى أخرى، ويستخدم التعبير مجازاً للإشارة إلى تناسي الماضي وبدء مرحلة جديدة.

ويمكن تعداد عشرات المشتقات التي تبتعد كثيراً في معانيها الحقيقية عن معنى المصدر. ولكن لا بد من الإشارة إلى أن كلمة «قلب» تطلق على كل ما هو في صميم شيء ما، أو في وسطه، خاصة عندما يكون هذا الوسط هو أفضل ما فيه.



Corbis

Corbis



نموذج لآخر ابتكارات القلب الصناعي الحديث إلى جانب سماعة نبض القلب

التـي يولـد الطفل بهـا، وأكثرها شـيوعاً هي الفتحات الشـاذة في القلب مثل التشـوهات الحاجزية والعيب الحاجـزي الأذيني والعيب الحاجزي البطينـي، ويقـدِّر الأطبـاء أن 8 أطفـال مـن كل ألف، يولدون بتشـوهات خلقيـة فـي القلـب، بعضهـا يُشـفى بمـرور الوقت وبعضها يـودي بحياة صاحبه في مرحلة ما من عمره.

وهنـاك أيضاً عدم انتظام دقات القلـب، والمرض الصمامي وروماتيزم القلب، واعتلال عضلة القلب (وهو أنواع)، إضافة إلى النوبة القلبية التي يعرفها الجميع، والتي تحصل عندما تسـد جلطة دموية الشريان التاجي بشـكل كامـل، فتـؤدي إلـى تعطل العضلـة التي تغذي الشـريان المسـدود لتلقيهـا كميـة غير كافيـة مـن الأكسـجين. وإذا لم يعد الـدم إلى جريانه خلال دقائق، تتفاقم المشكلة، وتبدأ خلايا القلب بالموت بعد مرور ست ساعات إذا لم يصلها الدم، وعندما يموت عدد كبير من الخلايا تضعف قدرة القلب على ضخ الدم ويؤدي الأمر إلى وفاة المصاب.

وعلـى الرغـم مـن تعـدد الأمراض والمشـكلات التـي يمكنهـا أن تهدِّد سلامة القلب، يتحدث النـاس عن «مرض القلب» للإشارة إلى نوع محدد من أكثر المشكلات شيوعاً وأخطرها.

فالمقصـود بـ «مرض القلـب» هو «مرض الشـرايين التاجية» التي تغذي القلـب نفسـه بالـدم المحمـل بالأكسـجين. فالقلـب لا يسـتطيع تخزين الأكسـجين، ويستهلك هو نفسه 5 في المئة من نسبة الدم الذي يضخه، وبالتالي فهو بحاجة إلى تغذية مستمرة ولإمداد دائم ومستمر. وملخص مرض الشرايين التاجية هو في ازدياد ضيقها لسبب أو لأسباب مختلفة، مما يجعلها تغذي القلب بكميات من الدم أقل من اللازم. وكلما ازدادت هذه الشرايين ضيقاً، ازدادت الخطورة على المصاب.

يعود ازدياد ضيق الشـرايين التاجية إلى عوامل عديدة، بعضها لا يمكن التحكـم بـه، مثـل العامـل الوراثـي والتقـدم فـي السـن، وبعضهـا يمكن التحكم به مثل ارتفاع ضغط الدم، ونسـبة مادة «الكولسـترول» في الدم الناجمة عن استهلاك الدهون الحيوانية بشكل خاص، وأيضاً التدخين. إذ يمكـن للكوليسـترول وقطـران السـجائر أن يترسـبا حـول الجـدران الداخليـة للشـرايين التاجيـة بحيث تضيق أكثر فأكثـر الأمر الذي يؤدي إلى إرهاق القلب، وبدء التلف في عضلته. كما يمكن في حالة الشرايين الضيقة أن تتسبب جلطة دموية صغيرة بانسداده بشكل كامل.

وكمـا أصبحـت معالجة انسـداد الشـرايين التاجية ممكنـة، خاصة إذا مـا كشـف عن المرض في وقت مبكر، فإن وسـائل الوقاية منه أصبحت جزءاً من الثقافة العامة الشـائعة فـي كل المجتمعات، ويعرف الكثيرون عناوينهـا العريضـة مثل الإقـلال من المأكولات الدهنيـة، والامتناع عن التدخين، وممارسة الرياضة، أو شيء من الحركة مثل المشي لمسافات متوسطة وما شابه ذلك.

ثمـة غدتان في جسـم الإنسـان تسـميان «الغدتـان الكظريتـان» تفرزان هرموناً يعرف باسم «الأدرينالين» وظيفته مساعدة الجسم على التكيف مـع الإجهـاد المفاجئ. فعندما يشـعر الإنسـان بغضـب أو بخوف (حتى



حكاية قلب طببه ابن سينا

أصيب أحد أمراء فارس بمرض عضال، وعجز الأطباء آنذاك عن مداواته، فمرت الأيام ولم يشف الفتى، ولم يجد الأطباء جواباً لأسئلة أهله، الذين قصدوا الطبيب المسلم ابن سينا يرجونه زيارة ابنهم الشاب ومعرفة سبب علته. وبالفعل، زاره ابن سينا، وسأل أهله عن أعراض المرض، ثم دخل على الفتى وفحصه بعناية، وجلس بجانب سريره ووضع أصبعه على نبضه، ثم طلب من أحد الخدم أن يعدد جميع أحياء تلك المدنية. فلما وصل الخادم إلى ذكر حيٍ ما، لاحظ الطبيب أن نبض الفتى قد تسارع. وقتها طلب الطبيب من الخادم التوقف، ثم سأله عن العائلات التي تسكن ذلك الحي، وبالفعل، سرد الخادم أسماء العائلات فلما أتى على ذكر اسم معين من تلك الأسماء شعر بنبض الفتى وقد تسارع أكثر. هنا سأل ابن سينا إن كان لتلك العائلة من بنات، فأجابه أهل الفتى بالإيجاب، فقال لهم أن ابنهم عاشقٌ لإحدى بنات تلك العائلة، وشفاء مرضه هو الزواج بها!

وبالفعل فقد كان قدماء الأطباء يعتبرون الحب مرضاً يحل بالقلب، لا بالدماغ. ففي دراسة للدكتور عبدالناصر كعدان المدرس في معهد التراث العلمي العربي يورد مقولة للطبيب اليوناني أبقراط حيث يقول واصفاً الحب بالمرض: «العشق طمع يتولد في القلب وتجتمع فيه مواد من الحس...»، أما جالينوس فذكر عنه أنه قال «العشق استحسان يضاف إليه طمع، والعشق من قِبَل النفس، وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد...»، أما ابن سيناَ نفسه فقد قال عنه في رسالته التي أرسلها إلى عبدالله الفقيه: «...ويكون نبضه نبضاً مختلفاً بلا نظام البتة، كنبض أصحاب الهموم. ويتغير نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصة وعند لقائه بغتة. ويمكن من ذلك أن يستدل على المعشوق أنه هو إذا لم يعترف به، فإن معرفة معشوقه أحد سبل علاجه. والحيلة في ذلك أن تذكر أسماء كثيرة تعاد مراراً وتكون اليد على نبضه. فإذا اختلف بذلك اختلافاً عظيماً وصار شبه المنقطع ثم عاود وجرب ذلك مراراً علمت منه اسم المعشوق. ثم يذكر كذلك السكن والمساكن والحرف والصناعات والبلدان، وتضيف كلاً منها إلى اسم المعشوق ويحفظ النبض، حتى إذا كان يتغير عند ذكر شيء واحد مراراً جمعت من ذلك خواص معشوقه من الاسم والحرفة ما عرفته. فإنا قد جربنا هذا واستخرجنا به ما كان الوقوف عليه منفعة».



مهابة حدث مفرح مقبل)، فإن هاتين الغدتين تفرزان الأدرينالين في الدم، ويسبب هذا الهرمون تغيرات في الجسم تجعله أقدر على المواجهة أو الانسحاب، ومن ضمن هذه التغيرات تسارع نبضات القلب وارتفاع ضغط الدم.

فهل خفقان القلب بشدة نتيجة الأدرينالين المفروز أمام الأوضاع التي تتطلب استنفاراً عصبياً ونفسياً قوياً، هو ما جعل الإنسان ينظر إلى قلبه على أنه مركز العاطفة؟

الكثيرون يكتفون بهذا التفسير، ولكن العلماء اليوم، وفي اتجاه جديد لم يتجاوز عمره ثلاثة عقود من الزمن، يلاحظون أن هناك علاقة قوية لا شك فيها بين ما يفهمه ويشعر به المرء وبين معدل ضربات القلب وضغط الدم. ويشيرون إلى أن للقلب نظاماً عصبياً خاصاً به يتلقى عبره المعلومات من كافة أنحاء الجسم، وكأن هناك «دماغاً» شديد التعقيد موجود داخل كل خلية من خلايا القلب التي يبلغ عدد العصبية منها أكثر من أربعين ألف خلية.

تعمل هذه الخلايا بدقة فائقة على تنظيم معدل ضربات القلب وتخزين المعلومات ثم إرسالها إلى الدماغ، كي توجه خلاياه على أساسها وتلعب بالتالي دوراً مهماً في الفهم والإدراك. ونتيجةً لهذه الدراسات تقوم بعض المؤسسات بتأسيس مراكز لدراسة العلاقة بين القلب والدماغ، وعلاقة القلب بالعمليات النفسية والإدراكية. فطبيعة العلماء تمنعهم من الاعتراف بأهمية القلب المطلقة في ما يتعلق بالذاكرة والعاطفة والمشاعر من دون دليل مفصل، إلا أن البشر منذ بداية التاريخ كلما واجهتهم مواقف تستثير مشاعرهم وضعوا أيديهم بشكل غير إرادي على صدورهم ليهدئوا من روع قلوبهم. وفي هذا دليل..

ولكن، ومهما كانت نتائج هذه الدراسات، فإنها لن تغير الكثير في نظرة الإنسان أدبياً ووجدانياً إلى القلب.

الجهاز العضلي والأدرينالين:
يسرعان نبض القلب



القلب في القرآن الكريم



تناول القرآن الكريم القلب ووظائفه وأسراره وخصائصه، وورد ذكره -من الناحية اللغوية- في صيغه النحوية الثلاث: فجاء بلفظ المفرد في قوله تعالى: ﴿إلاّ مَن أُكْرِهَ، وقلبه مطمئنٌ بالإيمان﴾ (النحل/106)، وبلفظ المثنّى، في قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه..﴾ (الأحزاب/4)، أما صيغة الجمع فهي الصيغة التي وردت في أغلب الآيات، كقوله تعالى: ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ (الحج/32) وغيرها كثير.

وقوله تعالى في الآية 179، من سورة الأعراف: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد/28)، وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ (الزمر: 22).

أما في السنة النبوية فقد ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) القلب في مواضع عديدة، وأشار بيده الشريفة إلى صدره مراراً أمام صحابته (رضي الله عنهم) قاصداً قلبه. ولعل أشهر حديث ورد فيه القلب هو ذلك الحديث الذي يجسّد وظيفته في صلاح الجسم أو فساده سواء كان ذلك من الناحية العقائدية أو النفسية أو السلوكية أو غيرها وهو قوله (صلى الله عليه وسلم): «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

والقلب، في التراث الإسلامي عموماً هو مرادف للنفس ومحور العبادة والصلاح، بينما يأتي العقل في معرض الحديث عن التأمل والإدراك.

بعض توظيفاته المختلفة

في الشعر العربي

يأتي القلب في نصوص التراث العربي جميعاً بدلالات عديدة ووظائف كثيرة، كأن يكون له دور في توجيه المحبين، أو خوفهما، أو يأتي في مقام الظن أو التهمة أو البشارة.. إلخ، كما أنه يأتي في أسماء متنوعة، كالفؤاد، والخفَّاق، والدلّال، والحبّة، والسويداء، والقاع، وغير ذلك.

فهذا الشاعر الجاهلي امرئ القيس يذكر في معلقته بيتاً شهيراً يوظف فيه القلب توظيفاً متعدداً، فيقول:

أغــــرّكِ مــنّي أنّ حبك قاتلي

وأنـكِ مهما تأمري القلب .. يفعلِ؟

ويقول طرفة ابن العبد في وظيفة مختلفة للقلب:

خليليَّ لا والله، ما القلب سالم

وإن ظـــهرت مني شمائل صاحِ

وتقول الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمية)، وفي وظيفة ثالثة:

يا لهف نفسي على صخر، وقد لَمِفَتْ

وهل يــرُدّنّ خَبلَ القلب تلهيفي

وينسب للإمام علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه) ولأبي العتاهية أيضاً، بيت رائع موجز وبسيط، في دلالة أخرى للقلب:

ولــلـقـلـب عــلـى الـقـلـب

دلــيـل حــيـن يـلـقـاه ..

أما الشاعر الأموي (الأخطل /غياث بن غوث التغلبي) فالعقل عنده هو القلب ، والعكس بالعكس فيقول :

وكنتُ صحيح القلب حتى أصابني

من اللامعات المبرقات خُبولُ

وخذ هذا الدور الرائع للقلب من الشاعر الكبير بشار بن برد:

وما تبصر العينان في موضع الهوى

ولا تسمع الأذنان إلا من القلب..!

ولاشك أن الكثير من القراء يعرف هذا البيت الشهير للشاعر أبي تمام الطائي:

نقّل (فؤادكَ) حيث شئت من الهوى

مـا الحب إلا للحبيب الأولِ

ولا يمكن تجاوز المتنبي في هذا الاستعراض (القلبي) عندما يطلق إحدى حِكَمه الشعرية المدوية:

وما استَغْرَبَتْ عيني فراقا رأيتُهُ

ولا عَلَّمَتْني غيرَ ما القلبُ عالِمُهْ

وللشاعر أبي البقاء صالح بن يزيد الرندي بيت شهير في رثائيته الأندلسية يقول فيه:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إن كان في القلب إسلامٌ، وأيمانُ

ويتصل الزمن بالعصر الحاضر فيكتب الشاعر الكبير أحمد شوقي قائلاً:

لِمثلِ هذا يذوبُ القلبُ

إن كان في القل



وكـنـتُ إذا سـألـتُ الـقـلـب يـومـاً
تـولـى الـدمـع عـن قـلـبـي الـجـوابـا

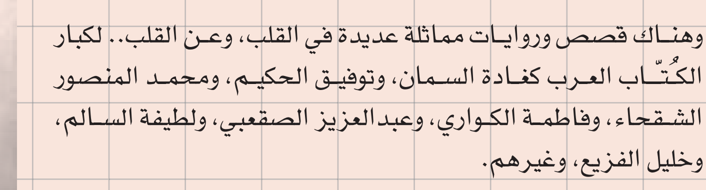
ونتوقـف عنـد هذا البيـت الرقيق من قصيدة عنوانها (القلب) للشـاعر السعودي د. غازي القصيبي، يرحمه الله:

حـنـانـك يـا قـلـب بـعـض الـهـدوء
فـصـدريَ كـاد يـجـنّ اشـتـعـالا

وفي الرواية عنواناً ومحوراً

وكمـا هـو موجـود فـي الشـعر، يحضر القلـب فـي النثـر وإن كان في المجمـل يقـل عنه كَمّـاً. لكنـه يحضر بكثافـة في الأعمـال النثرية والروائية، من خلال الكيمياء التي يتكون منها، أو التي يفرزها، وهي (الحب)، حيث يتم تناوله في معظم النصوص بشـكل مباشـر وغير مباشـر.

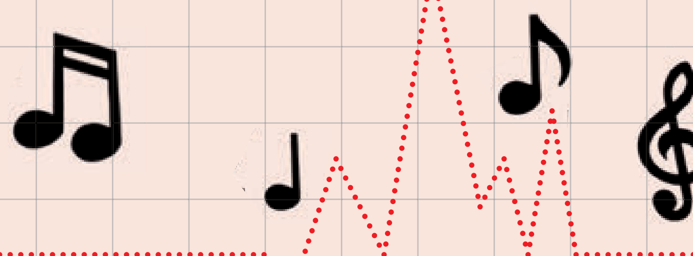
فعلـى سـبيل المثـال .. تحضـر روايـة «قلـب الظـلام» للروائـي البريطانـي جوزيـف كونـراد، التـي كتبها عـام 1902م، لتكون من أولى الروايات العالمية التي حملت «القلب» عنواناً لها. وفي الأدب العربـي تبـرز روايـة شـهيرة عنوانهـا «رد قلبي» للكاتـب المصري يوسـف السـباعي، التـي تحوَّلت إلـى أكثـر مـن عمـل سـينمائي وتلفزيونـي. وهنـاك روايـة تحمـل عنـوان «قلـب الليـل» للأديـب المصـري الكبيـر نجيـب محفـوظ، كتبهـا عـام 1975م. وتكتـب القاصـة السـعودية أمـل شـطا رواية بعنـوان «لا عاش قلبي» عام 1987م. ولسـمير مرتضـى مجموعة بعنـوان «حكايات من القلب» أصدرها في عام 2005م.



وهنـاك قصص وروايـات مماثلة عديدة في القلب، وعـن القلب.. لكبار الكُتّـاب العـرب كغـادة السـمان، وتوفيـق الحكيـم، ومحمـد المنصور الشـقحاء، وفاطمـة الكـواري، وعبدالعزيز الصقعبي، ولطيفة السـالم، وخليل الفزيع، وغيرهم.

وتُعـد رواية الكاتب اللبناني عبده وازن «قلب مفتوح» من أقرب الروايات التي كتبت عن القلب مباشرة، تحدث فيها عن جانب من سيرته الذاتية، بالإضافة إلى كشـف تعامل الأطباء مع قلبه. إذ يقول في أحد مقاطعها: «أسـلم فيهـا قلبـه المريض إلى مهـارة الأطبـاء وإرادة الصدفة، فدخل إلـى غرفـة بيضـاء ونام طويلاً، كمـا اعتقد، وخرج من الغرفـة البيضاء إلـى غرفـة بيضـاء أخـرى، وقد حظي بـروح جديـدة، تتأمـل الفرق بين النوم واليقظة، وبين ندوب الجسد وندوب الروح. ذلك أن تجربة الموت تسـتدعي تجارب الحياة، وتجربة الخوف المنفتح على الموت تسـتدعي أطياف الولادة الأولى».





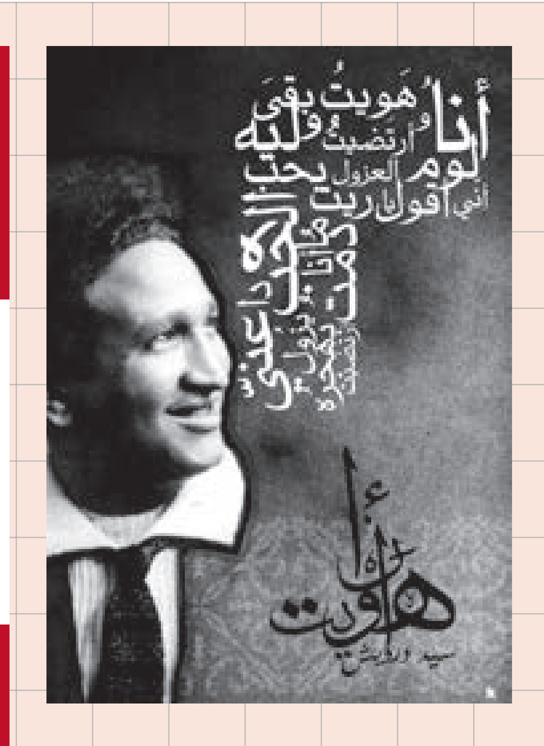
وفي الأغنية..
لا فعل يعصى على القلب

لعـل الكثيـر يتذكـر أغنية ليلـى مـراد «أنا قلبـي دليلي»، وحقيقـة.. فكل المحبين وحتى المتوجسين من أمر ما يرددون مع ليلى مراد.. أنا قلبي دليلي. وحين تأتي الأغنيات، وتجدك في رغبة لمحاكاة قلبك.. فاغرف منها ما شـئت. فهي كالشـعر، لا تكاد واحدة منها تخلو من حضور القلب ومسـؤوليته عن الحب والهيام والولع والفـراق والعتاب، والرجاء واللقاء و.. إلخ.

فبدءاً من ليلى مراد وأغنيتها المشـار إليها أعلاه، مروراً بسـيد درويش «يلزم بقى تهنّـي الفؤاد»، و«يا فؤادي ليه بتعشق»، والسيدة أم كلثوم في عدد كثير من أغانيها كأغنية «القلب يعشق كل جميل» وعبد الحليم حافظ فـي «يـا مالكا قلبي» التي كتبها الشـاعر سـمو الأمير عبدالله الفيصل، رحمـه الله، وفائـزة أحمـد «أنا قلبـي إليك ميـال»، و فريد الأطرش «يا قلبـي كفايـة»، وفيروز في تراثياتهـا «وكنتَ وعدتني يا قلـب أني /إذا ما تبـت عـن ليلى تتـوب»، وعبدالوهـاب «قول لي عمـل لك إيـه / قلبي اللي انـت ناسـيه» ونجاة الصغيـرة «قلبـك راح فين»، وطلال مـداح «مقادير يـا قلـب العنا»، ووديـع الصافي، وصبـاح فخري، وعبدالهـادي بلخياط، وعبدالكريم عبدالقادر، وغيرهـم، تجد أن كل أغنية تكشـف عن وظيفة خاصـة للقلـب فقلـب ليلى مراد - مثلاً - استشـعاري / استشـرافي، وقلب عبدالحليم انقيادي، وقلب أم كلثوم حكيم وواقعي وتقريري.. إلخ .







وفي الأمثال

استحوذ القلب على نصيب لا بأس به من الأمثلة العربية القديمة والحديثة، لما له من قيمة عند الإنسان، ولقابليته في تلبس حالات لا حصر لها. ومن الأمثلة التي لا تزال شائعة حتى اليوم:

- «البعيد عن العين .. بعيد عن القلب»: يقال للتعبير عن أثر الفراق الطويل في إطفاء جذوة العاطفة.
- «أكثر من الهَـمّ على القلب»: أي زاد من متاعب شخص أتعبته هموم أخرى.
- «القلوب عند بعضها»: يقال للتعبير عن تبادل المشاعر الودية نفسها.
- «قلبه ميت»: يقال لوصف شخص لا يشعر بأية شفقة على شخص أو أمر يستحقها.
- «سيف مسلول ولا قلب عذول»: أي إن النفس الحاسدة مؤذية أكثر من السيف الجاهز للضرب به.
- «قلوب عليها دروب، وقلوب من الهم تذوب»: يقال للتعبير عن وجود أناس يطلب الكثير ودهم، وآخرين مهملين ومنسيين.
- «قلبي على ولدي انفطر، وقلب ولدي على حجر»: يقال عن لسان حال الأهل القلقين على أولادهم، وتصرف هؤلاء الأولاد بلا مبالاة وقسوة.

من حب مدينة إلى حب العالم



«أنا أحبُّ نيويورك». أحد أشهر الشِّعارات المعاصرة وربما أكثرها تقليداً وانتشاراً.

صُمِّم الشِّعار في أواسط السبعينيات على يد الفنان ملتون جلايزر. وقد تحوَّل إلى العلامة التجارية لحملات الدعاية السياحيَّة للمدينة منذ ذلك الوقت. واستخدم، وما زال يستخدم حتى اليوم، على كل ما يمكن تصوره من سلع دعائيَّة وسياحيَّة: قمصان الـ«تي شيرت»، والحلي، والأقلام، وأكواب القهوة، وعلاقات المفاتيح، والأزرار، وحبات الحلوى، والقائمة لا تنتهي. وحاولت مدينة نيويورك حمايته من التقليد، ويقال إنَّها رفعت ما يزيد على ثلاثين ألف قضية في سعيها إلى هذا، لكنَّ الوضع خرج عن السيطرة ولم تبق مدينة أمريكية أو غير أمريكية إلا ونجد لها لاصقاً على سيارة أو أي شيء آخر يكرر ثلاثية «أنا ♥ ..».

وقد صُمِّم الشِّعار حسب مقابلة أجريت مع المصمم في وقت كانت معنويات مدينة نيويورك في الحضيض. ويقول مصمم الشعار إنَّ المقصود كان استخدامه لحملة تدوم بضعة أشهر فقط. ويؤكد أنَّ الشعار الذي يعتبر أنَّه أسهم بالفعل في إنقاذ المدينة من كبوتها في تلك المرحلة والذي ما زال تباع ملايين السِّلع بسبب وجوده عليها قدمه المصمم مجاناً من دون مقابل..

على أي حال فإنَّ هذا الشِّعار بقدر ما يبيِّن قوةَ شعار القلب، يمثِّل من دون شك مثالاً صارخاً على ما يستطيع أن يقدمه فنُّ التصميم وما يستطيع أن يلعبه من دور فعَّال في تحقيق أهداف مختلفة.



Corbis

كيف نرسم القلب؟

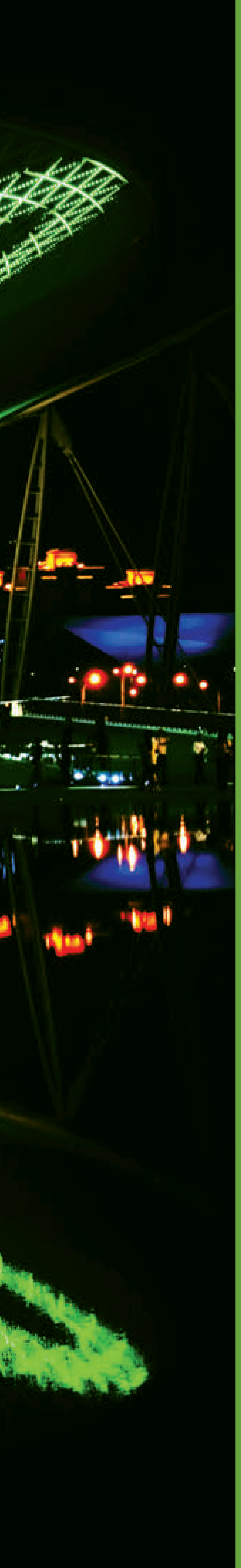
رمز القلب (♥) من أكثر الرموز شهرةً، وقد تحول في العقود الأخيرة إلى رمز عالمي يتجاوز اللغات. إلا أن ارتباط هذا الرمز بالقلب البشري هو ارتباط حديث لم تعرفه الحضارات السابقة.

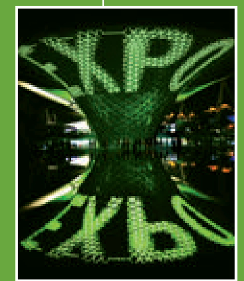
فالشكل (♥) هو شكل هندسي نراه في الطبيعة كثيراً، بل إن اسمه في الهندسة هو «المنحنى الجبري» أو ما يسمى بالإنجليزية: «Cardioid». ويظهر هذا الشكل في كثير من النباتات منها الفراولة على سبيل المثال، وفي شكل الحمامة أو اليمامة عندما تفرد أجنحتها. وهذا الشكل يجده علماء الآثار مكرراً في الرسوم البدائية التي رسمها الإنسان القديم على جدران الكهوف. ومن المؤكد أنه في ذلك العصر لم يكن يحمل المعنى ذاته الذي يحمله اليوم، إلا أن الدراسات عجزت عن معرفة ما يعنيه بالنسبة للإنسان القديم.

فهذا الرمز في حقيقة الأمر استعارته الحضارة الغربية، كما استعارت العديد من الأشياء، من الحضارة اليونانية. وبالرغم من أن الإغريق لم يكونوا يَعُدُّون هذا الشكل رمزاً للقلب إلا أنهم استخدموه للتعبير عن ورقة فاكهة العنب، وكانت تعني لهم الاستمرارية وإعادة النبض في الحياة. وكان أول استخدام رسمي لهذا الرمز ليمثل القلب هو ما قامت به مصانع طباعة ورق الكوتشينة في فرنسا عام 1480م بعد مدة قصيرة من اختراع الطباعة. وفي بداية الأمر، كان الجمهور يرى هذا الرمز فيتذكر مباشرة الميسر ولعب الورق، إلا أنه ومع مرور السنوات أصبح شكل المنحنى الجبري رمزاً وحيداً للقلب يتجاوز به الناس حواجز اللغات والثقافات.



Corbis





القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
نوفمبر - ديسمبر 2010
المجلد 59 العدد 6

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com